

**أسامة بن لادن**

**بلا قناع**

**لقاءات حضرت نشرها طالبان**

**بقلم : أحمد موفق زيدان**

## مقدمة :

لم تثر شخصية عالمية في أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الحالي جدلاً وإثارة بمثل ما أثارته شخصية أسامة بن لادن ؛ فإن كان كارلوس قد ملأ الدنيا وشغل الناس في عصره وعُد حينها بأنه " إرهابي من نوع فريد " ، إلا أن لأسامة بن لادن نكهة أخرى ، إذ أنه يعيش ويقوم بنشاطاته التي تعد إرهابية في نظر خصومه ، ومقاومية في نظر المعجبين به ، في زمن عالم القطب الواحد . لقد كان تحت تصرف كارلوس عشرات الدول والأنظمة التي تسهل له حركته ، وسيظل أسامة بن لادن لغزاً للكثيرين ، يحوطه الغموض لا بسبب شخصيته إذ أن كل من قابله يجزم ببساطته و دفته لمحدثه ، ولكن لطبيعة تحركاته والأساليب التمويهية التي استطاع من خلالها التعمية على وجوده رغم التنسيق الهائل بين أنظمة مخابرات دولية لديها إمكانيات مالية وبشرية هائلة وضخمة .

هيئة وملامح وتصرفات أسامة بن لادن ترفض أن تخبر أنه إرهابي ، ويبدو من الصعب على الدعاية الأميركية أن تنجح

في إبرازه وتصويره على أنه إرهابي ، فكل ما فيه يرفض ذلك ، وهي مهمة عسيرة للدعاية الأميركية ؛ فأسامة شخصية خجولة وحيي إلى أبعد الحدود ، ولكن حين يتحدث إليك تشعر بالثقة الكاملة في كل كلمة يقولها ، وواثق من الخط الذي خطه لنفسه .

وهنا تكمن مخاطر السياسة الأميركية التي اعتمدت طوال تاريخها في التعامل مع خصومها على استنساخ التجربة السينمائية الهوليوودية وهي تجريد الخصوم من انسانياتهم وهو ما حصل مع كل خصوم أميركا منذ الحرب مع الاتحاد السوفياتي السابق الذي أطلق عليه " إمبراطورية الشر " وهو ما كرره جورج بوش الابن في وصفه لدول محور الشر ، وكذلك وصف الخصوم بالديكتاتور والأشرار ، فالأنسنة في الإعلام الأميركي حكر على الأميركي وحليفه والشر هو من خاصية خصومه .

ولعل ما زاد من الغموض في شخصيته هو الحجب والجدران العالمية المضروبة عليه ، و التي تحول دون لقائه أو توضيح وجهة نظره ، وتجلى ذلك في القيود التي فرضتها الحكومة الأميركية على محطات تلفزيونها في عدم نشر أحاديثه و كلماته التي قد تحمل كوداً وأوامر معينة - حسب

قولها - لأتباعه من أجل تنفيذ عملياتهم ، وهو ما علق عليه ابن لادن لاحقاً في شريط فيديو بثته قناة الجزيرة بأن الأميركيين يتصرفون وكأننا لا نعيش عصر الإنترنت والاتصالات وغيرها .

أسامة بن لادن شخص ثري وضع كل ثروته من أجل تحقيق هدفه ويصفه من يعرفه بأنه صاحب رؤية واستراتيجية ويعرف كيف يحول هذه الرؤية إلى واقع على الأرض ، بالإضافة إلى قدرة خارقة على التأقلم مع المعطيات الجديدة التي تفاجأ أكثر الأحزاب بله الدول في كثير من الأحيان ، ومع فشل الإدارة الأميركية وحلفائها في القبض على ابن لادن الذي أطل على الجميع في الثاني عشر من نوفمبر " تشرين ثاني " من العام 2002 وذلك على شاشة الجزيرة وصفحات الحياة اللندنية من خلال هذا الكاتب ، فإن ابن لادن أخرج الإدارة الأميركية وحلفائها داخلياً وخارجياً ليقول لهم بصوت واضح أنني ما زلت حي ، وأن توجهكم إلى العراق في هذا الوقت بالذات ما هو إلا هروب من الواقع والهدف الذي جئتم من أجله ، وقصة التسجيل الصوتي الذي وصلني له قصة أخرى سأحدث عنها في مكان آخر من الكتاب .

ووفقاً للمعلومات المرشحة من خلال بعض الاستقصاءات التي قمت بها وتحديداً مع بعض المصادر العربية التي عايشت مرحلة الجهاد الأفغاني الذي كان أسامة يعمل فيه جهاًراً نهاراً ، فإنه ربما يكون من أوائل الأفغان العرب الذين سمعوا بأنباء الغزو السوفيتي لأفغانستان في العام 1979 لينهضوا عملياً بمساعدة المجاهدين الأفغان حينها ، وينقل عنه أنه سمع بخبر الغزو من المذيع وقرر على الفور حزم حوائبه وذلك بعد أسبوعين فقط من الاجتياح للتوجه إلى باكستان بغية الوقوف على حقيقة الوضع وإمكانيات المشاركة ، وبينما اقتصرت مشاركته في البداية من خلال تقديم التبرعات والزيارات المتقطعة لأسبوع أو أسبوعين قرر في العام 1984 الاستقرار في باكستان وقضاء الأيام الطويلة داخل أفغانستان مع المجاهدين ، و طوال هذه الفترة لم يتغير أسامة - على ما يبدو - منذ مجيئه و حتى الآن ؛ فوزه لا يتعدى السبعين كيلو غراماً بطول قد يتجاوز 190 سنتيمتراً .

والذي يظهر أن اهتمامه هذا بأفغانستان كان أول اهتمام له بالسياسة بشكل عام ، إذ أنه لم يؤثر عنه قبل هذه الحادثة أنها اهتم بالسياسة والقضايا الدولية ، ولكن ربما

أثرت حوادث أخرى جرت في نفس الفترة التاريخية ولعبت أفغانستان دول القطرة التي طافت على الكأس ففي تلك الآونة وقعت الثورة الإيرانية وكذلك توقيع اتفاقية السلام بين مصر والكيان الصهيوني وكذلك بدء أحداث الصدام بين الإسلاميين والنظام السوري والذي تردد كثيراً عن دعم مالي قدمه أسامة بن لادن إلى الإسلاميين في سوريا ضد النظام ، ولعل خلفية والدته السورية الأصل والتي كانت الزوجة الرابعة والأخيرة لوالده لعبت دوراً في عقله الباطن .

ما ينبغي أن تدركه وتعيه السلطات الأميركية أن ما حصل في أحداث الحادي عشر من أيلول وقبلها وغيرها كان رداً على ما تقوم به السياسة الأميركية في العالمين العربي والإسلامي وإن كان المقام ليس مقام تفصيلها ، وبكل تأكيد يدركها صناع القرار الأميركي جيداً ، وإن كانوا يسعون إلى تجاهلها وإغماض العين عنها ، وأنقل هنا ما قاله بالضبط الفيلسوف الفرنسي جان بود ريار عن أحداث الحادي عشر من أيلول في صحيفة الحياة اللندنية وفي عددها الصادر بتاريخ العاشر من أيلول عام 2002 يقول : " ... وما حصل في 11 أيلول لم يكن عمل إبادة ،

إنما عملية قتل انتقامية ورمزية هدفها النيل من القوة العظمى ، ومن عملية الدمج التوتاليتارية التي يجري فرضها ."

فما تريده القوة الأعظم الأميركية باختصار هو فرض ثقافة تكنولوجية القوة العظمى والتهام الثقافات الأخرى وإلحاقها بها ، وقيام الرئيس الأميركي جورج بوش بدور مارتن لوثر لإصلاح الدين الإسلامي بما يتماشى ويتسق مع الأهداف والمقاصد الأميركية .

يقولون إن الصحفي هو أول مؤرخ للتاريخ ، من خلال الأحداث والوقائع التي يتابعها بشكل يومي ، ويقوم بتدوينها ونشرها على الملأ ، وعلى هذا آمل أن أكون من خلال هذه اللقاءات التي أجريتها مع المطلوب أميركياً رقم واحد قد ساهمت في تسجيل التاريخ ونشره بأمانة بعيداً عن التشهير أو التهوين والتهويل ، وإنما أكون قد قمت بنقل الحقيقة كما هي ، فكما قال أحدهم علمتني الحقيقة أن أكرهها فما استطعت ، وكما قيل الرائد لا يكذب أهله ، فأرجو أن أكتب كل ما رأيت بأمانة دون محاباة أو خوف أو وجل ، فالحقيقة مرّة للكثيرين ، وهي الضحية الأولى للحروب ، فكيف إن كنا نحن في أم الحروب وأبيها وهي

**الحرب التي وصفت بالحرب على الإرهاب ، والتي تجمعت  
عليها كل القوى الغربية .**

## **الفصل الأول**

**ملاحظات ، بن لادن والقاعدة وطالبان**



قبل الدخول في صلب الكتاب أسجل بعض الملاحظات المهمة التي ستساعد و بكل تأكيد في فهم شخصية أسامة بن لادن التي أفرزتها ظاهرتة التي - باعتقادي - يمكن وصفها بالظاهرة ، فبعد اللقاءين المطولين الذين أجريتهما معه ، وكذلك بعد أحداث الحادي عشر من أيلول والهجمات التي حصلت على أفغانستان وسقوط حركة طالبان ، أستطيع أن أضع هذه الملاحظات التي قد تساهم في فهم وفك ألغاز هذه الظاهرة التي استوقفت العالم كله ، وجعلته حبيس أنفاسه بانتظار ما ستسفر عنه تلك المواجهة بين ما يمكن وصفه بصراع " المدب والنملة " ، والتي رفعت واشنطن شعاراً أشبه ما يكون " لا صوت يعلو على صوت ما يوصف بالإرهاب " و " معنا أو مع الإرهابيين " كما قال الرئيس الأميركي جورج بوش ، وإلى أين ستسفر هذه المواجهة ، وهو باعتقادي أمر مهم قبل الولوج إلى الحوارين الذين توقفت عن نشرهما بسبب الحظر الطالباني الذي كان مفروضاً على أي تصريحات لابن لادن ، ومثل هذه الملاحظات التي عدت بمثابة حقائق أو مسلمات أعتقد أنها مفتاحية في فهم وسبر غور شخصية مثل هذا الرجل الذي قسّم العالم إلى فسطاطين

واضحين ، أو كما وصف أحداثها الكاتب المصري محمد حسنين هيكل بأنها " عواصف النار على نيويورك وواشنطن " رغم الكثير من الأخطاء التي وقع فيها بمقاله الذي نشره في وجهات نظر في السفير اللبنانية بتاريخ : 2-2-2002 تحت عنوان : " واشنطن تؤذن للجهاد في كابول " وقمت بتصحيح الكثير من الأخطاء التي وقع فيها هيكل في مقال نشرته في صحيفة " الحياة " اللندنية التي أعمل مراسلاً لها في باكستان وأفغانستان منذ العام 1991 وذلك بتاريخ 15-2-2002 ، وأما الحقائق أو الملاحظات أو المسلمات التي أعتقد بأهميتها في فهم شخصية أسامة بن لادن والظاهرة التي أفرزها :

1 - الملاحظة الأولى : أسامة بن لادن تحدى الولايات المتحدة الأميركية في زمن صعب ونكد إذ تهيمن فيه على العالم قوة واحدة ، هي أميركا ، بل وتفرض على الآخرين رؤيتها ونظرتها إلى الأحداث ؛ ولكن أسامة قبل التحدي ومضى فيه ، وواصل تهديداته للولايات المتحدة الأميركية ، ونفذ هذه التهديدات على أرض الواقع بخلاف كثير من القادة والزعماء الذين هددوا وتوعدوا دون تنفيذ ، ومع أنه شخص خليجي لم يكن يتوقع الكثيرون أن تصدر عنه تلك

المعارضة القوية لأميركا وهو الذي شكك فيه البعض خلال فترة الجهاد الأفغاني لا لشيء إلا لأنه سعودي ، ويعمل لصالح الحكومة السعودية كما يقولون ، وعزز ذلك لدى البعض من هؤلاء المشككين الصورة النمطية المأخوذة عن الخليجيين بشكل عام و السعوديين بشكل خاص بأنهم ليسوا أبناء قضية عملية ، وإنما وظيفتهم تتمثل في تقديم الدعم المالي للحركات الإسلامية دون التدخل في شأنها الداخلي ، وإلا فسيؤخذ حينها أي رأي أو تدخل لهم على أنه أوامر من الحكومة السعودية لتجسير العمل لصالحها ، ولعل هذا ما دفع الولايات المتحدة الأميركية إلى قصر اتهاماتها في البداية لابن لادن على تمويل حركات إسلامية مسلحة في كل من مصر والصومال وأفغانستان والسودان ، لكن هذه الاتهامات الأميركية تطورت لتعتبره متورط في تفجيرات الخبر والعليا و السفارتين الأمريكيتين و ضربات نيويورك وواشنطن .

2 - الملاحظة الثانية : أسامة بن لادن بنظري اقترب من خطف حركة طالبان الأفغانية ، وليس خطفاً بالمعني السلبي أي لمصلحة شخصية ، وإنما تمكن من فرض أجندته السياسية على حركة تقليدية مولوية تفتقد إلى تلك

الأجندة السياسية ، إذ للمرة الأولى منذ سقوط الخلافة العثمانية في العام 1924 تقرب القوى الإسلامية التقليدية الممثلة بطالبان المتمذهبين بالمذهب الحنفي مع القوى الحركية الانتحارية أو الاستشهادية التي يمثلها أنصار ابن لادن من خريجي المعاهد العلمية و الجامعات العصرية وغير المتمذهبين بمذهب ويدعون إلى الاجتهاد في الشريعة ، بينما يعود التعليم الطالباني إلى المدارس الديوبندية التقليدية ، والتي تعتمد نفس العلوم التي كانت تدرسها المدرسة النظامية في بغداد أيام العباسيين ، وهي فجوة ليس من السهل تجسيرها ، فضلاً أن يتم التعاون بين هاتين المدرستين ، ولعل هذا ما دفع الولايات المتحدة الأميركية إلى التعاون مع طالبان في البداية بقناعة أن طالبان ضد العصرية وليست ضد الغرب كما قال حينها الناطق باسم الخارجية الأميركية جلين ديفيس ، وربما كان ذلك صحيحاً إلى حد كبير في البداية ، لكن تزاج العناد الطالباني مع النظرة التقليدية ضد اليهود والنصارى ، إلى جانب العصرية الإسلامية والفهم للعالم والأحداث التي تدور فيه من قبل ابن لادن أفرز توليفة ، سبقت التوليفة التي كانت تنتظرها أميركا وغيرها من الدول في أن تعمل

طالبان على التأقلم مع العصر وتطور ، وذلك على غرار ما حصل مع نشوء الدولة السعودية ولكن الفارق كان بعيداً بين التجريبتين ، إذ أن على رأس السعودية كان هناك ملك يرغب في التطوير والعصرنة ، بينما الوضع الأفغاني بخلاف ذلك إذ أن " أمير المؤمنين " يرى أن أي تحديث ربما قضاء على مملكته .

وعلى هذه الخلفية فمن المهم الانتظار لرؤية فيما إذا كانت مثل هذه المعادلة الجديدة ستتطور وتتوسع لتشمل مناطق أخرى من العالم الإسلامي أم أنها ستقتصر على الرقعة الأفغانية والباكستانية نظراً لخصوصية المكان و الزمان والأشخاص ، فالتأسيس لمثل هذه العلاقة التعاونية عوضاً عن الاتهامات التي كانت هذه المدارس تكيلها لبعضها البعض سيؤسس لعمل جديد وفريد من نوعه بين الجماعات الإسلامية المتباينة المدارس والرؤى ، وقد يشكل تهديداً جدياً على المصالح الغربية .

وينبغي التأكيد هنا على أن وصول طالبان إلى السلطة أظهر قدرة القوى التقليدية والمحافظه على الخروج من قوقعتها وشرنقتها التي بقيت فيها طوال السنوات الماضية وذلك منذ سقوط الخلافة العثمانية ، بل وأثبتت

القدرة على التعامل مع الجانب السياسي للإسلام ، وهو الجانب الذي كان مغيباً عن تلك المدرسة كما هو معروف . ومقتصراً على القوى الحركية الإسلامية وعلى رأسها الإخوان المسلمون وشقيقاتها من الجماعة الإسلامية الباكستانية وغيرها ، وكسرت طالبان القاعدة التي كانت مأخوذة عن المولويين و التقليديين بأنهم موالون للحكام وليس لديهم استقلالية في اتخاذ القرار السياسي ، وهو ما غذته تصرفات البعض منهم في العالم الإسلامي وتبوء الفكر الإخواني أو المقرب منه طوال العقود الماضية الساحة السياسية والتغيرية في العالم الإسلامي .

مثل هذا الواقع فتح أعين الكثيرين من المثقفين و الخبراء والأجهزة الأمنية الدولية على الحاضنة التي احتضنت طالبان وهي المدارس الدينية المقدر عددها في باكستان بأكثر من عشرة آلاف مدرسة ، والتي يتحدث تقرير أممي صادر عن العام 2001 بأن طالبان تمكنت بالتعاون مع المدارس الدينية المنتشرة في باكستان من تجنيد ما لا يقل عن عشرين ألف طالب تحت سن الثامنة عشر من أجل القتال في أفغانستان ضد خصومها .

ولعل ما يزيد هلع الغرب هو أن التغيير الصلاحي الذي جاء على يد صلاح الدين الأيوبي إنما بدأ من المدارس الدينية حين جند أبناء هذه المدارس في حربه لاستعادة المسجد الأقصى من الصليبيين .

**3 - الملاحظة الثالثة : أثبتت القاعدة على أنها جبهة متماسكة بعيدة عن فيروس الانقسامات والتشظيات التي عادة ما تميز الساحة الحزبية الإسلامية ، ولذا فرغم كل المصاعب التي عانتها وواجهتها والحصار الدولي المضروب عليها إلا أنها أثبتت عصيانتها على هذا التشظي والتفتت والانقسام ، بينما اعتدنا على رؤية الانقسام في صفوف الحركات الإسلامية وتحديداً المسلحة منها في أية مواجهة لها مع أعدائها أو خصومها ، وهو ما ظهر وبان في الجزائر وغيرها ، بينما تمكنت القاعدة رغم وجود جنسيات ربما من كل أرجاء الأرض في صفوفها و اختلاف اللغات والأجناس وربما الخلفيات بين أتباعها إلا أنها استوعبت هذه التناقضات كلها وصهرتهم في بوتقة واحدة وهي العمل الكفاحي ضد أميركا . وبالتالي استطاعت توظيف طاقات الكثيرين من الأتباع في أوزبكستان وطاجيكستان ، وجنوب شرق آسيا في أندونيسيا والفلبين وماليزيا ، وحتى أوروبا**

والعالم العربي من أجل الهدف المعلن والواضح ، وهو ما وضعتة كهدف لها تمثل بـ " إخراج القوات الأميركية من جزيرة العرب " .

4 - الملاحظة الرابعة : قوة التنظيم وامتانه ؛ فرغم كل الضربات التي تعرض لها إلا أنه ما يزال قادراً على توجيه الضربات بل ولم يقتل أو يؤسر أحد كوادره الكبيرة ، باستثناء ما حصل لأبي زبيدة في فيصل آباد في 28 مارس ، أذار من العام 2002 ، ورمزي بين الشيبة في كراتشي يوم التاسع من سبتمبر " أيلول " من العام 2002 ، ولعل مرد القوة والامتانة إلى الوضوح و البساطة في الهدف ؛ ففلسفته كلها مستندة إلى حديث نبوي صحيح وهو : " أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، أو أخرجوا المشركين من جزيرة العرب " ، فهذا الحديث هو مدار فلسفة ابن لادن ، ولذا عمد إلى التركيز على نظرية العدو المشترك والواضح بدلاً من اللجوء إلى العدو الأقرب كما وصفه في حديثه معي المتمثل بنظرة البعض من حلفائه بالأنظمة العربية ، لكن نظرية ابن لادن هي التي رسا لاحقاً الجميع عليها كونه هدف مشترك وعام سيشترك مع ابن لادن الإسلامي والوطني وربما حتى بعض الأنظمة



العربية المعارضة أو المتضررة من الهيمنة الأميركية ، وربما يصل الأمر إلى أنظمة غير عربية وغير إسلامية متضررة ومهددة بشكل خطير وجدي في مصالحها القومية ومجالات نفوذها .

ولعل الشهادات التي أدلى بها القادة العسكريون الأميركيون وغير الأميركيين خلال معارك " عرما " وغيرها دليل على متانة التنظيم وقدرته على التحرك في أصعب ظروف رغم التجيش العالمي ضده واستغلال كل الإمكانيات المتوفرة لدى الدول الغربية والمالية لها والخائفة منها من معدات ومال ومعلومات أمنية ونحوها .

ويظهر أن قوة القاعدة أتت من العنوان العريض الذي وضعته لمواجهتها بقتال اليهود والنصارى منذ الإعلان عنه في 23 مايو " أيار " من العام 1998 في خوست الأفغانية شرقي أفغانستان ، وهو ما سهل على القاعدة أمرين استراتيجي وتكتيكي مهمين الأول وهو الاستراتيجي بجمع مجموعات مسلحة غاضبة من النفوذيين الأميركي واليهودي تحت لواءها وهو ما أخرجها من شرنقة الخلاف والقتال مع الأنظمة التي قد يتفق ويختلف الكثيرون في قتالها وتوقيته أو التعامل معها سياسياً وعبر صناديق الاقتراع ،

أما الهدف التكتيكي الوظيفي ويتمثل في أن كل مجموعة مؤدية للقاعدة كانت في الغرب أو الشرق بإمكانها القيام بأعمال عسكرية ضد العدوين اللذين وضعتهما لنفسها ومؤيديها دون العودة إلى القيادة ما سيصعب حركة ملاحقة ومتابعة كيفية تحرك القاعدة وهو الأمر الذي ما يزال يذهل الأجهزة الأمنية الغربية والعربية .

5 - الملاحظة الخامسة : تمكن أسامة بن لادن حتى كتابة هذا الكتاب من التواري عن الأنظار والاختفاء بدون حماية أي نظام سياسي ، أو دولة تؤويه كما درج على ذلك معظم أو كل المطلوبين الكبار في العالم ، وهي قضية بنظري في غاية الحساسية والأهمية في فهم كيفية تحرك المطلوبين الكبار في العالم بدون غطاء حكومي ، كما كان عليه الأمر حين تواجد في السودان أو في أفغانستان " طالبان " ، حيث نظامان سياسيان يسيطران على أراض شاسعة ، ويتحرك بحرية أو بشيء من الحرية في الاتصال مع الإعلام ، وكذلك في التواصل مع أتباعه وناشطيته ، فالمعروف أن الحركات المسلحة في كل العالم وعلى مدى التاريخ - حسب فهمي ومعرفتي - على الأقل لم يتمكن أحد منها في النجاح بدون غطاء حكومة أو دولة ، ولذا

وجدنا كارلوس حين انكشف الغطاء الحكومي الذي يوفر له ذلك تم القبض عليه وأودع في السجن ، ونفس الأمر حصل مع زعيم حزب العمال الكردستاني عبد الله أوجلان بعد أن رفعت سوريا الحماية عنه ، وهذا الأمر ينطبق حتى على حركات الإسلام السياسي ، فنجاح حزب الله في لبنان إنما يعزا بدرجة كبيرة للدولة التي سانده ووقفت إلى جانبه ومن ورائها إيران وسوريا وأوضاعاً إقليمية ودولية موالية بدرجة كبيرة .

وعلى هذه الخلفية فمن المهم جداً مراقبة فيما إذا كانت حركة مسلحة وشخص مطلوب رقم واحد للقوة الأعظم الأميركية بهذا الوزن سينجح في مواصلة الهروب ، بل وحتى تنفيذ أعمال ضد عدوه رغم كل الحصار الدولي الخانق المضروب عليه ، وفي ظل عولمة أمنية غير مسبوقة .

ولعل المستغرب أن يهرب ويفر قادة أفغان ومن أصول أفغانية إلى خارج بلادهم لعدم عثورهم على المأوى والملاذ ويتمكن ابن لادن ورفاقه مع عائلاتهم من العثور على مكان داخل أفغانستان كما هو ظاهر حتى الآن ، بل ويتمكنون من الاختفاء والتواري عن الأنظار رغم كل

المتابعات المنظورة وغير المنظورة . ومثل هذا الواقع ربما سيثبثك الكثيرين في صدقية المثل العربي الدارج : " أهل مكة أدرى بشعابها . "

6 - الملاحظة السادسة : أعاد أسامة بن لادن لأفغانستان أهميتها ومكانتها بعد أن سعت الولايات المتحدة الأميركية إلى تناسيها وإيكال أمرها إلى الدول الإقليمية المجاورة لأفغانستان ، ولعله أعاد إلى دول الأطراف والمهملة أهميتها في السياسة الدولية بعد أن كان العالم مقسم في الفلسفة الغربية إلى دول محور ودول أطراف ، وبذلك أدخل ابن لادن مصطلحاً جديداً في الاستراتيجية الدولية بعد الجغرافيسياسية والجغرافاقتصادية وهو مصطلح ما قد يطلق عليه " الجغراإرهابية " ، فالمكان الممثل بأفغانستان و الفعل الذي يطلق عليه صفة الإرهاب اجتماعاً في أفغانستان وهو ما دفع الولايات المتحدة الأميركية إلى عدم تناسي أي دولة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ربما يستغلها أسامة وغير أسامة في تنفيذ أعمال ضدها ، ولهذا فقد كتب أحد الكتاب الأميركيين عن أفغانستان بأنها تمثل " حدود الفوضى " على حسب قوله ، ولم يعد في العلم السياسي المعاصر بعد أحداث أيلول أن هناك دولاً مهمة

استراتيجياً ومحورية كما قسمها بول كيندي ودول أطراف ،  
فقد غدت دول الأطراف المنسية أهم من الدول الفاعلة  
دولياً على الساحة السياسية مادامت مفاعيل التحرك  
الدولي هذه الأيام هو ما أطلق عليه " الإرهاب " .

7 - الملاحظة السابعة :قدرة أسامة بن لادن على حشد  
طاقات المسلمين ، وليس المتحدرون من الدول العربية  
فقط ، وإنما المتحدرون من دول غير عربية وحتى من  
دول غربية ، إذ لأول مرة يستعد أشخاص أسلموا حديثاً  
ومن الغرب للقيام بعمليات انتحارية في بلاد احتضنتهم ،  
وهو ما يشير إلى عمق القناعة العقدية و الفكرية التي  
تمكنت القاعدة من تشريبها في هؤلاء الشباب ، وذلك على  
غرار ما حصل مع ريتشارد ريد الذي كان يعتزم تنفيذ  
عمليات انتحارية من خلال حذائه المفخخ وذلك في  
الطائرة المتوجهة من باريس ، وهناك أيضاً جون ووكر  
الأميركي الذي ألقى القبض عليه في قلعة جنكي بمزار  
الشريف شمالي أفغانستان ، فضلاً عن أسرى بريطانيين  
واستراليين وغيرهم ، ولعل مرد نجاح أسامة في ذلك هو  
بتحديد العدو المشترك والممثل بالولايات المتحدة  
الأميركية المتهمه بالوقوف خلف مصائب المسلمين كما

قال في أشرطته بدءاً من فلسطين عبر دعمها الكيان الصهيوني وكشمير وتيمور الشرقية وقضايا عدة أخرى ، ولذا حقق أسامة بن لادن أهدافه في إقناع الكثيرين بنظريته الداعية إلى قتال العدو المشترك وليس العدو الأقرب كما كان يطرحه زعيم تنظيم الجهاد الدكتور أيمن الظواهري ، وهو ما سنرى ذلك في الكتاب ، ونجاح ابن لادن هذا في نظريته وفر له دعماً في معظم بقاع الأرض ، ونظراً لانتشار المصالح الغربية وتحديداً الأميركية منها في كل مدينة مهمة إن لم نقل في كل شارع ، فقد أدى ذلك إلى تسهيل مهمة ضرب المصالح الأميركية .

8- الملاحظة الثامنة : تمكن ابن لادن من تجنيد شباب سعودي وخليجي لأول مرة في تاريخ هذه البلدان المعاصر ، وهو ما وفر عليه مسألة التأشيرات وسهولة التحركات لهذه العناصر التي تتحدر من دول ينظر إليها في الغرب على أنها حليفة له ، وبالتالي لا تحتاج إلى تأشيرات ، ولا حاجة لمراقبتها ما دامت دولهم حليفة لأميركا ولم يسجل عليهم الاشتراك في أية حوادث ضد الولايات المتحدة الأميركية سابقاً ، ولذا فقد كانت الكارثة على أميركا في أحداث نيويورك وواشنطن حين اكتشفت

أن غالبية المنفذين كانوا من المملكة العربية السعودية ، وضاعف من خطورة الأمر أن كل قادة القاعدة الكبار من دول تعد حليفة قوية للولايات المتحدة الأميركية ؛ فابن لادن من السعودية ، وأبو حفص الذي قتل وكذلك الظواهري من مصر ، والناطق الرسمي باسم القاعدة سليمان أبو غيث من الكويت الذي حررته أميركا من الغزو العراقي في العام 1991 ، حتى قيل أن شريط تدمير المدمرة الأميركية في عدن كانت الكويت مركز توزيعه ، إذ وزع فيها أكثر من 200 نسخة .

9- الملاحظة التاسعة : بساطة الحديث الذي يتفوه به ابن لادن والذي يلقي صدى لدى الكثير من الشعوب العربية و الإسلامية ، ويفهمه ويستوعبه المثقف من كامبريدج والفلاح أو العامل ، والمعروف أن قوة الخطاب في بساطته خصوصاً وأن ذلك جاء مع شراسة الهجمة الشارونية على الشعب الفلسطيني وبدعم أميركي لا محدود ، الأمر الذي خدم أسامة بن لادن بشكل لافت وساعده على نظريته الداعية إلى تراكم وتكريس العداء إلى الولايات المتحدة الأميركية وتوظيف كل حدث لخدمة الهدف الأساسي وهو العداء للولايات المتحدة الأميركية ،

ولذا ينبغي أن يسجل هنا أن ابن لادن لم يستهدف حتى الآن مصالح غربية ، وإنما حصر كل ضرباته ضد أهداف أميركية لدعوة الآخرين إلى النأي عن الدفاع عن واشنطن ، وإن كان تشكيل التحالف الدولي ضده وضد طالبان والذي أسفر عن سقوط الحركة ربما يدفعه إلى إعادة النظر في هذه الاستراتيجية ، وربما يلجأ إلى السعي إلى توجيه ضربات ضد المصالح الغربية بشكل عام خصوصاً بعد كلمته المشهورة في شريطه الذي بثته الجزيرة : " إن هذا العالم قد انقسم إلى فسطاطين " .

10- الملاحظة العاشرة : لعل ما ميّز هذه الحرب بين الولايات المتحدة الأميركية والغرب عموماً وتنظيم القاعدة هو عدم وجود قواعد لها عادة ما تنظم أية حرب ، وأحياناً تكون هذه القواعد معلنة أو سرية يفهمها الطرفان ، وما زلت أتذكر كلمة رئيس الشطر الكشميري في باكستان السابق سردار عبد القيوم خان لي حين تحدث عن إمكان تفجر الصراع بين الهند والباكستان على خلفية كشمير فقال : " ربما تستخدم كافة أشكال الأسلحة بما فيها النووية في حال تفجر الحرب ، فإن دخلت الكراهية و البغض في حرب فحينها لا تستبعد استخدام أية أسلحة



ومنها النووية " فكيف إن أسقطنا ذلك على العداء الأميركي مع القاعدة مشفوعاً بالكراهية العقيدية والحقد التاريخي المتراكم لدى أتباع القاعدة الذين يحملون أميركا كل ما لحق بالمسلمين طوال القرن الماضي ، وترجمت القاعدة تحطيم قواعد اللعبة هذه التي درجت أميركا على قناعتها بأنها لن يتم كسرها ، وهي عدم مهاجمتها في عقر دارها ، ولذا كانت كل عقيدتها العسكرية منصبة على تعزيز أمنها في الخارج وفوجئت أميركا بعاصفة الطائرات كما وصفها الناطق باسم القاعدة سليمان أبو غيث لتعيد إلى الذاكرة أهوال الكاميكااز الياباني وعملياته الانتحارية حين هاجم حوالي 18 شاباً عربياً بطائرات مخطوفة مقار الهيئة الأميركية الاقتصادية والعسكرية الممثلين بمركز التجارة العالمي والبنتاغون الأميركيين ، والفشل في ضرب مقر الهيئة السياسية الممثل بالكابيتول هول ، ثم ما تردد عن عزم ناشطي القاعدة من تسميم المياه في روما وامتلاك القاعدة لأسلحة دمار شامل كل ذلك يشير إلى أن الحرب يمكن أن تذهب إلى أبعد مديات ، وأن حدودها غير معلومة ولا يمكن التنبؤ بها ، ولعل هذا ما عكسته

التصريحات الأميركية القائلة بأن الحرب مع " الإرهاب " طويلة الأمد .

11- الملاحظة الحادية عشر: أرغمت الحرب الجديدة التي تعد القاعدة أحد طرفيها روسيا على التعاون مع الولايات المتحدة الأميركية في قضايا عسكرية كانت محرمة حتى قبل يوم واحد من أحداث الحادي عشر من أيلول ، بل وقبلت التواجد الأميركي لأول مرة منذ قرون في حديققتها الخلفية الممثلة بدول وسط آسيا ، مقابل صداقة محتملة مع الولايات المتحدة الأميركية ، وهو ما دفع مدير مركز التحليل والدراسات الاستراتيجية في مجلس الأمن القومي في كازخستان مولن ايشيمبايف إلى القول بأن روسيا : " فقدت هيمنتها العسكرية - السياسية في آسيا الوسطى وغدت الولايات المتحدة هي الضامن للأمن والاستقرار في المنطقة ، وسيمتد وجودها هنا لفترة طويلة . " وقد تحدث وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد عن فترة عشرين عاماً ، وما تخشاه موسكو أن تكون هناك اتفاقيات سرية بين هذه الدول وأميركا لمرحلة ما بعد أفغانستان واستخدامها كقواعد مستقبل أ. " ولا يستبعد البعض أن تكون موسكو وربما بكين بدأتا في الانزعاج من التواجد

الأميركي بهذه الكثافة في مناطق نفوذها ومجال حيويتها ، وربما يتطور ذلك إلى دعم كل القوى المناوئة للتواجد الأميركي في المنطقة والثأر من هزيمتها في أفغانستان ؛ فقد عثر قرب مطار قندهار على مجموعة صواريخ مضادة للطيران بارتفاع 5.5 كم روسية وصينية الصنع وهو ما أثار الشكوك في أن تكون عملية توريد هذه الأسلحة قد بدأت بالفعل من دول مثل الصين وروسيا وذلك لمناهضة الوجود الأميركي ، خصوصاً وأن مثل هذه الصواريخ التي تباع أو تورد للدول العربية لا يتعدى مداها الثلاثة كيلومترات فقط .

فصناع القرار في أميركا يدركون أن الخطر الحقيقي الذي يهددهم على المسرح الدولي هو روسيا وهو ما تحدث عنه بالتفصيل مستشار الرئيس الأميركي الأسبق زيغينو بريجنسكي في كتابه " رقعة الشطرنج الكبرى " ، ومفتاح السيطرة على روسيا هو بالسيطرة على جمهوريات آسيا الوسطى وان مفتاح السيطرة على جمهوريات آسيا الوسطى هو أوزبكستان التي توصف بمصر المنطقة . ولذلك ليس بغريب أن يذكر الرئيس الأميركي بوش اسم أوزبكستان في خطابه أمام الكونغرس بعد أحداث 11

سبتمبر مباشرة، وان اوزبكستان هي أول دولة في تلك المنطقة تم فتح قوات أميركية فيها.

12- الملاحظة الثانية عشر: أوجدت ظاهرة أسامة بن لادن مكانة واعتباراً للإعلام العربي وتحديداً الفضائي والذي دأب طوال العقود الماضية على النقل والنسخ من الإعلام الأجنبي ، فانقلبت الآية حين محض ابن لادن كل مقابلاته وتقاريره وبياناته وصوره للإعلام العربي وتحديداً قناة الجزيرة ، والتي غدت هي وشعارها على شاشات كل محطات العالم وبدون استثناء ، ولأول مرة يغدو الإعلام العربي صانع للخبر ، وجاء توفير طالبان الفرصة للجزيرة في الاستفراء بتغطية القصف الأميركي على أفغانستان ليعزز مكانة الإعلام العربي الذي كان معظم ما ينشره هو ترجمات لما يطبع في الدوريات العالمية .

ورغم حديث البعض عن خسارة الجزيرة لحوالي أربعة ملايين دولارات ثمناً للإعلانات التي توقفت بسبب إصرارها على بث أشرطة ابن لادن غير أن ما حصده الجزيرة من دعاية وشهرة وسط العالم برمته يستحق ربما البلايين من الدولارات ، وبحاجة إلى عشرات السنين حتى يتم حصد

هكذا شهرة ونجومية وهو ما تحقق لها في غضون أشهر إن لم يكن أقل .

ومعلوم جدلية العلاقة بين السياسي والإعلامي فبعد أن كان وما يزال قادة الدول العربية والإسلامية يحرصون على إعطاء أية مقابلات مهمة وتسريب الأخبار السرية إلى الإعلام الأميركي والغربي بشكل عام ، جاء ابن لادن و الطالبان ليكسروا هذه القاعدة ، على أمل كما عبر لي ابن لادن في أحاديثه أن يعزز ذلك من ثقة العرب و المسلمين بأنفسهم وينتهي عهد الهيمنة الغربية والأميركية على الإعلام وغير الإعلام . فلأول مرة يشهد العالم تدفق الخبر بشكل معاكس ممثلاً من العالم الثالث أو العالم العربي تحديداً إلى العالم الغربي بعد أن كانت الآية معكوسة تماماً . وكسرت بريطانيا تقاليد العظيمة في عدم السماح لأقل من وزير بالتحديث للإعلام وكونت " وحدة الإعلام الإسلامي " وعينت جيرالد راسل ناطقاً باسمها وهو يتحدث العربية بطلاقة ، وزار الدوحة غير مرة للظهور على قناة الجزيرة لتوضيح وجهة النظر البريطانية للمشاهدين العرب ، وربما لأول مرة في تاريخ الحروب يتم إنشاء مكتب إعلامي للتحالف الدولي في دولة خارجة عن

الدول التي شاركت قواتها في الحرب ضد أفغانستان والقاعدة حين تأسس مثل هذا المكتب في إسلام آباد ، وهو ما يشير إلى كسب ابن لادن الإعلام في حربه مع أميركا .

ولم يقتصر تأثير الأحداث على الجوانب الإعلامية فحسب وإنما تعداه إلى فرض مادة الإسلام في الجامعات الأميركية ، وأقبل الجمهور الغربي على دراسة الإسلام والدول العربية في الوقت الذي لم يكونوا معنيين بنا وبإسلامنا وبقضائنا ، وبدأ الحديث يدخل الكثير من البيوت الأميركية عن سببية كره الشعوب العربية والإسلامية لأميركا .

13- الملاحظة الثالثة عشر : كشفت ظاهرة ابن لادن وأحداث الحادي عشر من أيلول الكثير من زيف الإعلام الغربي وحرته وحقوق الإنسان الذي كان ينادي بها الغرب ، وظهر الإعلام الغربي منساقاً وبشكل كامل إلى السياسة الغربية ومتناغماً معها تماماً باستثناء بعض الأصوات التي واصلت رسالتها في الاستقلالية والمهنية ، ويقف على رأس هؤلاء الصحافي البريطاني اللامع روبرت فيسك الذي كتب في الانديندنت البريطانية مقالاً : " لماذا أصبح الصحافيون هدفاً ؟ " وذلك على هامش اختطاف وقتل

مراسل الـوول سـترـيت جورنال دانـيال بـيرل فـي باكـسـتان ،  
 ويعزو فيسـك فـي المـقال الـذي أعـادت نـشـره صـحـيفـة الـدوـن  
 الباكـسـتانية الرصـينة فـي تـاريخ : 2= 3 = 2002 إلـى تـحوـل  
 كـثـير مـن الصـحـافـيين الـأمـيركـيين وغيـرهم إلـى مـقاتـلين ،  
 وينقل عن جيرالد وريغير مراسل تلفزيون الفوكس نيوز  
 الـذي حـمل سـلاحه حـين تـوجه إلـى جـلال آـباد شـرقـي  
 أفـغانـسـتان ، وحين سئل ماذا ستفعل به أجاب : " سأقتل  
 أسامة بن لادن إن لقيته في طريقي " ، وهناك الكثير من  
 الأمثلة على الفوكس ، وحتى السي إن إن التي رضخت  
 للشروط الأميركية في عدم بث أشرطة ابن لادن بحجة أنها  
 قد تحمل كوداً لاتباعه وناشطيه .

لقد غدا الإعلاميون الغربيون بشكل عام عبارة عن أشبه ما  
 يكون بعملية استنساخ بشري ، فالكل يؤيد ويؤمن على ما  
 يجري ، وقد شبهها البعض بالمحرقة التي لا يمكن أن  
 يدينها أو ينتقدها ، واستدعت السلطات الأميركية الإذاعي  
 الأميركي الشهير كايل هافونز صاحب البرنامج الإذاعي  
 الشهير الذي يحمل اسمه في راديو لوس أنجليس ،  
 ووجهت له تهديداً مباشراً بوقف برنامجه إذا استمر في  
 إتاحة المجال أمام انتقادات البعض لسياسة الرئيس جورج

دبليو بوش في أفغانستان و الشرق الأوسط ، ونشرت صحيفة إيفنيغ ستاندر قصة ثلاثة صحافيين فصلوا من وظائفهم لأنهم تجرءوا على اعتبار الحرب الأميركية ضد ما يوصف بالإرهاب عملاً استقراطياً يتجاهل جذور المشكلة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وجاء خطاب طردهم من العمل كونهم لم يلتزموا بالخط الوطني في التعامل مع قضية استراتيجية تتعلق بالأمن القومي للبلاد . ولم تكتف قناة فوكس بالتهجم على ابن لادن وتنظيمه بل وأضافت مصطلحات غريبة كل الغرابة عن تقاليد أبسط قوانين المهنة حين وصفت ابن لادن بـ " الشرير " وكيس القذارة ، والقاتل و المجرم"<sup>[1]</sup>.

لم يعد هناك بعد أحداث الحادي عشر من أيلول أخلاقيات صحافة وإعلام مهنية حقيقية ، ولم يعد الصحفي والإعلامي الغربي متجرد باستثناء البعض ، وكشفت هذه الأحداث أن الإعلام الغربي بمجمله أشبه ما يكون بالإعلام الشمولي والديكتاتوري في بلدان العالم الثالث ، وظهر أهمية الإعلام الشمولي والديكتاتوري في بلدان العالم الثالث وفائدته في هذه الحرب ، إذ أن إعلام دولة مثل



طاجيكستان ووأوزبكستان وغيرهما لم يحرك ساكناً ما دام كله تحت سيطرة الدولة وتحكمها ، ولكن إعلاماً كإعلام دولة باكستان التي قدمت تسهيلات للقوات الأميركية سبب لها بعض الصداق نظراً للحرية النسبية التي يحظى بها .

لقد أفرزت أحداث الحادي عشر من أيلول إعلاماً أميركياً جديداً وصف بـ " الإعلام الوطني " وبعد أن كان الإعلام أولاً والحكومة أخيراً قبل أحداث الحادي عشر من أيلول انقلبت الآية ؛ فقد غدت الحكومة ومصالحها أولاً والإعلام أخيراً .

وتعدت دائرة التأثير من الدائرة الإعلامية إلى إصابة الحضارة الغربية في مقتلها حين حدثت من الحقوق المدنية والقانونية وأرغمت أحداث أيلول الغرب على تغيير منهاج وتقاليد حياته التي التزم بها طوال حياته ، والقصص كثيرة في هذا المجال ، وليس من المناسب سردها كلها ، مادمننا قد اخترنا في هذه المقدمة إعطاء إضاءات ودلالات وملاحظات عما أفرزته ظاهرة ابن لادن وأحداث الحادي عشر من أيلول .

14- الملاحظة الرابعة عشر : فشلت الأجهزة الأمنية الأميركية في توقع ضربة الحادي عشر من أيلول رغم

الإشارات العديدة التي ظهرت من ابن لادن في التلويح بضربة قوية ، وهو ما ظهر في التقرير الذي بثته إم بي سي قبل الضربة بأكثر من شهرين ، وحتى أن صحيفة الدستور الأردنية ذكرت في عنوان لافت لها والصادرة في تاريخ : 14 حزيران 2002 أي قبل حوالي ثلاثة أشهر من ضربات نيويورك وواشنطن الخبر الذي أود نقله مع عنوانه الرئيسي الذي تصدر الصفحة الأولى من الجريدة يومها : " تقارير في صحيفتين أميركية وألمانية ، ابن لادن يخطط لاغتيال قادة الدول الـ " 8 " بطائرات محملة بالمتفجرات ، ثم يقول التقرير : ذكر تقرير أمس أن قوات أمن دولية تعمل بشكل حثيث لإفشال مؤامرة يقال إن أسامة بن لادن وضعها لاغتيال الرئيس الأميركي جورج بوش ورؤساء آخرين خلال قمة اقتصادية في إيطاليا الشهر المقبل . وقالت مصادر لصحيفة " نيويورك بوست " إن مسؤولين إيطاليين ذكروا أن أجهزة الاستخبارات الألمانية حذرتهم من أن ابن لادن يقوم سراً بتمويل جماعات من حليقي الرؤوس النازيين الجدد لتمكينهم من ارتكاب أعمال عنف خلال القمة . وقالت الصحيفة إن الهجوم ربما يأتي من الجو على شكل ضربة غريبة على طريقة أفلام جيمس بوند

تم بواسطة طائرات محملة بالمتفجرات البلاستكية يتم التحكم بها عن بعد . وقالت صحيفة يبلد الألمانية أن الطائرات ربما تطير مخترقة المبنى الذي تنعقد فيه قمة الدول الصناعية الثمانية . "

والسؤال الذين ينبغي أن يوجهه كل أميركي إلى السلطات الرسمية كيف حصل هذا الفشل الذريع للأجهزة الأمنية في ضوء ما نشر ، ويأتي قائد الأسطول الأميركي في المحيط الهادئ الأدميرال دينيس بليز ليقول للنيووزيك الأميركية الصادرة بتاريخ : 11-3-2002 : " نحن لم نربط الأمور بعضها بعضاً ؛ فقد كان التوقع أن تحصل الضربات وتستمر الحرب مستهدفة مصالح دبلوماسية وعسكرية في الخارج ، وبالتالي نستطيع أن نبقي الحرب على ذلك المستوى ، وكان قرارنا يمكن تفهمه ولكن كان قراراً خاطئاً . "

وعلاوة على ذلك كله خلقت هذه الأحداث وما رافقها من أحداث تحديات وتهديدات متعاضمة للقوة الأعظم أميركا ، خصوصاً في ظل فشلها الأمني حتى في اعتقال قناص روع أهالي واشنطن ، فكيف ستقدر على القبض على المطلوبين لها في خارج أراضيها .

15- الملاحظة الخامسة عشر : بدأت لأول مرة تطرح الولايات المتحدة الأميركية خيار الضربة النووية ، وهو ما كشفت عنه المصادر الصحافية الأميركية عقب أحداث الحادي عشر من أيلول ووضع تقرير استخباراتي أميركي حسب الصحف الأميركية دول عدة على رأسها دول ثلاث هي العراق وسوريا وليبيا كأهداف لضربة نووية وكذلك إيران ، الأمر الذي يشي بحجم اليأس الذي يملك الإدارة الأميركية في ظل المتغيرات الدولية و المنطقوية التي أعقبت أحداث الحادي عشر من أيلول . وتحديث بعض التقارير عن عزم الإدارة الأميركية تصنيع قنابل نووية صغيرة الحجم لهذا الغرض .

16- الملاحظة السادسة عشر : تمثلت بالانهيار والسقوط الحضاري الأميركي ، والذي سببته أحداث الحادي عشر من أيلول ، فقد غيرت الكثير من صور القيم الغربية والأميركية ، من تفشي العنصرية تجاه غير الأميركي ، وتحديداً العربي ، وكذلك التخلي عن القانون ، فبعد أن كانت واشنطن تدين تشكيل المحاكم العسكرية العربية ، وغير العربية ، على أساس ، أنها لا توفر للمعتقلين والمحتجزين

محاكمة عادلة ، بوجود محامين ، ومدافعين عنهم ، وهو ما سقطت فيه الولايات المتحدة الأميركية ، بعد أن شكلت محاكم عسكرية ، وهو ما دانتها منظمات حقوق الإنسان ، وسقط الإعلام الأميركي ، الذي اكتفى بنقل بيانات ولقاءات المسؤولين الأميركيين دون الكشف عن خفايا الأحداث في أفغانستان ، بالإضافة إلى القصور الذي وقعت فيه الأجهزة الأميركية لعجزها عن الكشف أو توقع ما حدث في الحادي عشر من أيلول . ومن صور السقوط الحضاري الغربي هو دعم وتعزيز الأنظمة العسكرية الديكتاتورية ، والتي كان ينظر إليها غربياً قبل أيام من أحداث وربما ساعات من أيلول على أنها أنظمة غير ديمقراطية ، وعليها أن تعيد الديمقراطية ، ورفض الكثير من قادة الدول الغربية زيارة هذه الدول ، وعلى رأسها باكستان ، ولكن فجأة تغيرت الأمور وانقلبت ، وبدأ الجميع يهبط في إسلام آباد لتشجيع القائد الباكستاني برويز مشرف ، والذي وصف من قبل هذه القيادات الغربية التي كانت تهاجمه حتى قبل أيام ، بأنه

الباني الثاني لدولة باكستان بعد مؤسسها محمد علي جناح في العام 1947 إثر قرار الانفصال عن الهند ، وغابت صفة الديكتاتور الباكستاني التي كانت تلاحقه كظله في كل مناسبة ، وغير مناسبة ، واستقبل في كل العواصم العالمية بكل الترحاب ، وهو ما يعني أن حقوق الإنسان والديمقراطية ما هي إلا شعارات لخدمة المصالح الغربية والأميركية ، وبعيدة كل البعد عن المبادئ والقيم الغربية التي تدعو إلى نشرها في الدول الأخرى .

ويقول الناشط الحقوقي السوري هيثم المناع :  
 "ترد كلمة حقوق لانسان عن رامسفيلد عند الحديث عن أفغانستان في ظل طالبان حيث يرون الاستشهاد بتقرير منظمة العفو الدولية ، وتقرير منظمة هيومان رايتس ، ووتش الأميركية لعام 2001 ، أما بالنسبة إلى توقيف قرابة 2450 شخصاً بمساعدة 90 دولة في أقل من عام على حوادث أيلول وبقاء 660 شخصاً منهم في المعتقلات ، وفي ظروف تحقيق استثنائية " وفق إحصاءات البنتاغون " فهذا أمر تقدره الحكومات المعنية بالأمر ، يقدر البنتاغون عدد المعتقلين في أفغانستان

بقرابة 7500 معتقلاً من أربعين جنسية ولا يعطي أرقاماً بالمفقودين ، الأمر الذي لا يشمل معتقلي غوانتانامو ."

وفي نفس السياق يمكن القول بأن أحداث أيلول وما بعدها فضحت هشاشة القانون الدولي والنصوص الصريحة لميثاق الأمم المتحدة والتي تنص في أول كلماته : " نحن شعوب الأمم المتحدة عاقدو العزم على إنقاذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب" وكان مجلس الأمن أصدر قرارين في الفترة من 11 سبتمبر وحتى بدء الهجمات الأميركية ضد أفغانستان في 7 أكتوبر والقراءة المتأنية لنص القرارين تظهر أنهما لا يجيزان استخدام القوة وإنما هما يدينان هجمات 11 سبتمبر ، ويشيران إلى الإجراءات التي تتخذ للقضاء على ما يوصف بالإرهاب ، ولم يذكر القراران كلمة واحدة عن استخدام القوة العسكرية أو ما شابهها ، بل إنهما لم يشيرا إلى أفغانستان ولم ترد فيهما الصيغة المعهودة لجميع الوسائل الضرورية والتي وردت في قرارات مجلس الأمن الصادرة إبان حرب الخليج الثانية والتي أعطيت الضوء الأخضر لاستخدام القوة العسكرية ضد العراق ."<sup>2</sup>

<sup>2</sup>راجع بالتفصيل كتاب ما وراء الحادي عشر من أيلول لـ مايكل ماندل .

17- الملاحظة السابعة عشر : أسفرت أحداث الحادي عشر من أيلول عن حالة جديدة في العلاقة الأميركية مع الدول العربية ، وفي علاقة الأخيرة مع شعوبها ؛ فقد تحولت الحكومات العربية إلى جاسوس على أفرادها ، بعد أن فتحت مخزن معلوماتها وملفاتها للاستخبارات الأميركية لتنجو من تهمة "البن لادينية " على غرار من كان يحاول الهرب من تهمة المكارثية ، ولكن بالمقابل حاولت الأنظمة العربية استغلال هذه الأجواء من أجل تصفية حساباتها مع الحركات الإسلامية بحجة الدفاع عن الديمقراطية الغربية ، بعد أن صورت الأنظمة العربية هذه الحركات الإسلامية على أنها المهدد الأول لقيم الحضارة الغربية . وللأسف فقد لعب المثقفون العرب في غالبيتهم دور المطبل والمزمر للسياسات الحكومية العربية والمروج لسياسات بوش في تبرير حملته على ما يوصف بالإرهاب ، وظهر هذا المصنع الثلاثي أميركا والأنظمة العربية ومعهم المثقفون وبعض علماء الدين الإسلامي في خندق واحد ، حيث تدثر بوش بغطاء إسلامي وإن كان رقيقاً وفره له بعض علماء السلاطين لتبرير الحملة على أفغانستان ، من خلال إدانة



أحداث أيلول ومهاجمة طالبان أو القاعدة وابن لادن ، الأمر الذي سيظهر أمام الجمهور وكأن الحملة مبررة .

18 - لملاحظة الثامنة عشر : أفرزت أحداث الحادي

عشر من أيلول عن حالة شبيهة بحالة المحرقة التي لا جدال فيها ولا نقاش ، ومن يطرحها فكأنه يجادل في مسلمات متفق عليها ، وبالتالي فإن من يتهم بأنه من القاعدة أو طالبان لا يمكن السؤال والاستفسار عن صحة هذا الادعاء ، وظهر ذلك بتهويش بعض الأفغان المتعاملين مع أميركا على ضرب خصومهم ، وغدا في كثير من الأحيان لا فرق بين طالبان و القاعدة و البشتون والعرب ، وستظل الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها يستغلون ذلك لضرب أي حركة أو أي عدو حقيقي أو وهمي ، وما على الجميع إلا أن يتحسس على رأسه ويبعد التهمة عن نفسه ، فقد نشرت اليو إس توداي الأميركية نقلاً عن استطلاع للرأي أجراه معهد جالوب في السابع والعشرين من فبراير " شباط " 2002 أن 9% من تسع دول أجري عليها الاستطلاع ترى أن العملية الأميركية على أفغانستان مبررة .

19 - الملاحظة التاسعة عشر :أعدت أحداث الحادي عشر من أيلول وما تبعها أهمية السلطة الروحية على السلطة الزمنية " ولعل ذلك يبشر بانتهاء عصر رجال السياسة ليبدأ عصر رجال الدين في القيادة كما في الشأن العام ، ومبشراً كذلك باستيحاء الشرائع السماوية في الأحكام الزمنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وليس الإرادة الشعبية واعتماد الشورى بدل الانتخابات والاقتراع الديمقراطي الحر ."<sup>3</sup> وفي نفس السياق يمكن القول بأنه بعد أن كانت الأحزاب المعتدلة مثل الإخوان المسلمين وغيرهم متهمون بتفريخ الأحزاب المتشددة وهي التي تقوم بمنحها القوة المعنوية انعكست الآية حيث لعبت أحداث أفغانستان وطالبان وتحديداً ابن لادن والملا محمد عمر دوراً مفصلياً في نتائج الانتخابات الباكستانية التي وصل فيها الإسلاميون إلى القوة الثالثة وحصلوا على أكثر من خمسين مقعداً بينما لم يتعد عدد مقاعدهم في انتخابات عام 1997 الأربعة مقاعد ، وكلها بسبب أحداث أفغانستان وما أعقبه من تعاطف الشعب الباكستاني مع الأحزاب الإسلامية لمعارضتها

3 - أنظر آدمون صعب ، قاعدة ابن لادن لم تعد استثناء في النهار اللبنانية الصادرة بتاريخ 10-18-2002

الضربة الأميركية لطالبان والقاعدة ووصل الأمر إلى أن يقول قادة مجلس العمل الموحد الفائز في هذه الانتخابات وفي اجتماع عام عقد في " أيوب استاديوم " بكويته على الحدود مع أفغانستان يوم 11-10-2002 بأن هذا الفوز إنما يعود إلى التضحيات التي بذلها ابن لادن وطالبان ، ويتطور إلى أن يطالب مولانا عبد الرحيم بازاي الفائز في البرلمان المحلي بالإفراج الفوري عن رمزي يوسف وأيمل كانزي المعتقلين في أميركا ، كما قال أحد كبار علماء المنطقة وهو مولانا أنوار الحق حقاني بأن تضحيات الملا عمر وأسامة بن لادن لعبت دوراً في فوز مجلس العمل الموحد في الانتخابات ، وشكل هذا الفوز انقلاباً اجتماعياً حقيقياً في تلك المناطق المحافظة حيث تراجع وبشكل خطير دور الإقطاع والعائلات والأحزاب العرقية والعنصرية التي استأثرت بالمقاعد البرلمانية طوال تاريخ البلاد السياسي .

20 - الملاحظة العشرين : أفرزت أحداث الحادي عشر من أيلول حملة شعواء على العمل الإغاثي العربي والإسلامي دون التثبت فيما إذا كان لهذه

المنظمة علاقة بالفعل مع القاعدة أو طالبان ، أم لا ،  
 وذلك كله بحجة مكافحة ما يوصف بالإرهاب وتحدث  
 الكاتب روهان غواناراتانا أن " خمس المنظمات  
 الإغاثية العربية والإسلامية مختربة من القاعدة ."<sup>4</sup>  
 وهو ما يبرر الحملة على الجميع ، ما أفسح المجال  
 للمنظمات الكنسية وغيرها بالتسلل وبقوة إلى  
 أفغانستان وغيرها خصوصاً بعد الضغوط التي تعرضت  
 إليها منظمات على رأسها جمعية إحياء التراث الكويتية  
 في بيشاور فضلاً عن اعتقال واحتجاز الكثير من  
 العاملين في هذه المنظمات ، وهو ما أفقدها العنصر  
 البشري .

21- الملاحظة الحادية والعشرين :سببت أحداث الحادي  
 عشر من أيلول وما بعدها تراجع الإسلام السياسي لصالح  
 الإسلام العسكري ، ولكن لا يعني هذا تراجع الإسلام  
 السياسي لصالح العلمانية وغيرها من القوى الليبرالية كما  
 كان يتنبأ بذلك كتاب فرنسيون من أمثال أوليفر روي  
 وكيبيل ونحوهما .

<sup>4</sup> روهان غواناراتانا ، داخل القاعدة بالانجليزية ، ص 12 .

وبعد أن كان الإسلام السياسي هو الذي يقوم بتوفير الغطاء والدعم والمساندة وتفريخ الإسلام العسكري انقلبت الآية ، حين وفر الحملة الأميركية على طالبان والقاعدة فرصة ذهبية للجماعات الإسلامية الباكستانية بالفوز وقد اعترف كل قادتها لاحقاً بأهمية عنصر طالبان والقاعدة في هذا الفوز . وأفلحت القاعدة في استيعاب العمل الوطني بعد أن كان الأخير هو الذي يستوعب العمل الإسلامي وينعت كثيراً من التنظيمات الإسلامية بعدم الفاعلية والنشاط ، وبخلاف ما كانت عليه التنظيمات الإسلامية سابقاً من الخشية من التعامل مع المخابرات العالمية دفعت القاعدة بعض أعضائها ومؤيديها إلى التعاون من مع مخابرات إف بي آي كما حصل مع أحد مخططي عمليات السفارتين الأمريكيتين في أفريقيا الوسطى محمد علي المصري .

# الفصل الأول

رحلة في عقل زعيم

تنظيم القاعدة

أسامة بن لادن

من خلال حوار مطول حضرت

نشره طالبان

في أحد أيام أكتوبر " تشرين ثاني من العام 2000  
 دقّ جرس الهاتف في البيت ، رفعت السماعة كان على  
 الخط الآخر شاب قدم نفسه على أنه أبو عثمان المصري ،  
 عارضاً علي التوجه إلى أفغانستان للقاء الأفغان العرب ،  
 وربما لقاء الرجل حسب تعبيره ، وما تبادر إلى ذهني على  
 الفور بأن المقصود به أسامة بن لادن في داخل أفغانستان  
 ، أسرعت إلى التهيؤ للأمر ؛ فمثل هذا الصيد لا يوفر، ولا  
 بد من الرد عليه سريعاً ، إذ أن عملية المدمرة يو إس كول  
 كانت حديثة ، ما يجعل تعليق أسامة على الأمر أو نقل  
 انطباعات ما يجري هناك على الأقل مهم للغاية في عالم  
 الصحافة والسبق الإعلامي ، فقد كان آخر عهدي برؤية  
 أسامة بن لادن في العام 1990 إثر معركة جلال آباد  
 الشهيرة التي خاضها المجاهدون الأفغان في مارس " آذار  
 " من عام 1989 بعد أن انسحبت القوات السوفيتية من  
 أفغانستان ودخلت قوات المجاهدين الأفغان المدعومة من

قوات الأنصار العرب في معركة مباشرة مع القوات الشيوعية الأفغانية ، وخاض المقاتلون العرب في جلال آباد معارك شرسة ضد القوات الشيوعية الأفغانية برئاسة الدكتور نجيب الله الذي شنق بعد دخول طالبان كابول ووصولهم إلى السلطة في سبتمبر " أيلول " من العام 1997 وقدرت حينها المصادر العربية عدد قتلى الأفغان العرب في تلك المعركة بأكثر من 170 شخصاً ، وما تزال قبور العشرات من هؤلاء الأفغان العرب على يسار الطريق المؤدية من نقطة طورخم الباكستانية باتجاه جلال آباد شاهدة على ملاحمهم التي خاضوها إلى جانب الأفغان أنفسهم ، وربما قد دفن البعض منهم على أيدي هؤلاء الأفغان أنفسهم في معارك طوره بوره حين قاتل الأفغان إلى جانب القوات الأميركية ضد رفاق سلاحهم بالأمس ، وما يزال الأفغان الذين يعبرون من تلك المنطقة يخبرون غيرهم ممن لم يعاصر تلك الفترة عن أصحاب هذه القبور ، لكن تلك المعركة الضروس ضد القوات الشيوعية أسفرت لاحقاً عن احتفاظ القوات الشيوعية الأفغانية بجلال آباد لعوامل كثيرة ليس الآن محل الحديث عنها ، أعود إلى أسامة بن لادن ودوره في تلك المعركة ، فأقول كان قد



لعب دوراً مميزاً وعلا نجمه وكعبه كثيراً بعد أن شارك بنفسه وموّل المعركة وأشرف عليها ، وكم شوهد متنقلاً بين جلال آباد وبيشاور لتمويل المقاتلين ومساعدتهم على أمل أن يتحقق النصر من خلال فوهة البندقية وليس من خلال طاولة المفاوضات كما كان يرغب هو والمقاتلين العرب والأفغان ، ولعل هذا الذي مكنه من نسج علاقات وخيوط قوية مع القادة المحليين في هذه الولاية ليعود إليها بعد سنوات من طرده من السودان .

حزمت أمتعتي وبدأت بالتحضير لرحلة طويلة نسبياً ؛ فقد كنت أعرف أن عمليات التمويه والتضليل التي تقوم بها القاعدة والأفغان العرب على الصحافيين ستكلفني الكثير من الوقت والتعب ؛ فقد طلبوني إلى قندهار ، ولكن بكل تأكيد لن ألتقي أسامة إن حصل اللقاء هناك ، وإنما سيتم نقلني إلى مكان آخر قد يكون في الجهة المعاكسة لقندهار ، والتي يمكن الوصول إليها من بيشاور الباكستانية الحدودية بوقت لا يتعدى الساعات بالسيارة ، أما طريق قندهار فسيستغرق الأمر أكثر من يوم .

على كل حال لم يكن هناك مجال للمناقشة فالهاتف لا يساعد في مثل هذه الظروف ، إذ أن القوم يدركون أنه

مراقب وهو ما يحول دون الشرح و التفصيل والتوضيح والفهم والتفهم ، ولذا لا بد من الاعتماد على الذكاء في فهم الإشارات أو التظاهر بالفهم بانتظار اللقاء حتى تستكمل ما أشكل أو أغلق عليك فهمه .

توجهت إلى كويته الباكستانية ومنها إلى قندهار برفقة أبي عثمان المصري ، كان الطريق موحشاً ، وقسمات القوم تنبئ عن الشدة والقسوة واللامبالاة بما يجري في هذا العالم ، فالعولمة بعيدة من هنا ، وربما لم يسمع بها القوم حتى الآن ، ما داموا لا يعرفون من الحياة سوى الطعام والشراب والسلاح ، الطريق كان وعراً للغاية ، وربما لا فرق كبير بين الشطر الباكستاني منه والشطر الأفغاني ما دامت نفس اللغة والعرق والتقاليد والقبيلة هي المنتشرة ، فالأمر ليس كمن كان يعبر في السابق من ألمانيا الغربية إلى ألمانيا الشرقية ، فالكل سيان في بلاد البشتون أفغانياً كان أو باكستانياً ، أما الوجوه فلا تستطيع التمييز بين الأفغاني والباكستاني مادامت علامة الاستنساخ البشري الواحدة وهي العمامة تزين رؤوس الجميع في ظل حكم طالبان .

كان الوصول إلى قندهار مساءً ، توجهنا مباشرة إلى أحد المطاعم العادية في المدينة حيث طلبنا صحناً من " تشكن بلاو " وهو الأرز الأفغاني المعروف بالدجاج ، وبجانبه اللبن والسلطات ، وبدأنا نأكل بعد جوع ، إذ من الصعب العثور على مطعم مناسب على الطريق الطويل من الرحلة ، وما أن فرغنا من الطعام حتى طلب مضيقي أبو عثمان الشاي ، واعتذر لي بالذهاب للبحث عن البيت الذي سنقيم فيه ، وما هي إلا أقل من نصف ساعة ، حتى حضر أبو عثمان وطلب مني مغادرة المطعم للتوجه إلى البيت الذي تعين أن نبني فيه ، وعلى الفور توجهنا بالسيارة التي كانت معنا وبتنا ليلتنا في ذلك البيت ، والذي كان على ما يبدو مكتباً من مكاتب القاعدة شاهدت في بعض زواياه بعض أجهزة الكمبيوتر ، لم أسأل بالطبع عن المكتب ولا عن هويته خصوصاً وأنها المرة الأولى التي ألتقي بها القوم في داخل أفغانستان ، وربما مثل هذه الأجهزة الكمبيوترية الوحيدة و اليتيمة في مثل هذه الصحراء التي ينهمك أهلها في تلبية حاجياتهم الأساسية ، التزمت الصمت إزاء كل ما أشاهده دفعاً لأية شبهة قد تحوم حولي ، خصوصاً و أن الجميع مستنفر هنا توقعاً لضربة

أميركية لرد الاعتبار بعد العملية التي استهدفت المدمرة الأميركية يو إس كول في ميناء عدن ، ومع آذان الفجر أيقظنا من كان في البيت لنصلي جماعة ونأخذ غفوة حتى الصباح ولتبدأ بعدها رحلة مضية امتدت لأكثر من 12 ساعة من قندهار إلى كابول ومروراً بزابل وغزني ووردك ، كان طريقاً في غاية الوحشة وصحراء قاحلة أدركت حينها التأثير الذي ألقته موجة الجفاف القاسية على هذه الأرض التي حولتها إلى أرض يبسة متعطشة لرياح ماء ، خصوصاً وأن هذا الجفاف يضرب البلاد منذ سنوات ، إذ غدا الوضع أشبه ما يكون بعام الرمادة أيام حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قرأنا عنه في التاريخ الإسلامي ، فقلما تعثر أو تلمس في هذه الصحراء القاحلة الممتدة كامتداد البصر واتساع الأفق عوداً أخضراً أو بركة ماء ، وهي المنطقة التي طالما كسيت بثوب أبيض من الثلج ، لقد انعكس هذا القحط والجفاف على وجوه القوم التي بدت شاحبة وتحكي قصصاً مأساوية أولها أنها لم تذوق طعاماً يليق ببني البشر منذ سنوات ، وتنبيء عن حالة من العوز والفقر والحاجة لا تصدق ؛ فكما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " لو كان الفقر رجلاً لقتلته " وحين

تجد شخصاً جائعاً فلا تتوقع منه أن يقف مواقف نبيلة أو مواقف مشرفة قبل أن يملئ معدته ؛ فالجوع كافر كما قيل ، ولذا نجد الكثير ممن ارتد عن دينه وبدل وغير من أجل لقمة عيش يملأ بها معدته الخاوية .

## في بيت أسامة بن لادن :

كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً حين وصلنا إلى منطقة تبعد عن كابول بضعة كيلومترات باتجاه ولاية غزني ، أوقف السائق سيارته ، فهنا الكراج الذي عادة ما تقف فيه السيارات القادمة من الولايات الأفغانية الأخرى إلى العاصمة ، واستأجرنا على الفور سيارة أخرى ، فالوقت يداهمنا ، واقترب موعد حظر التجوال على الأهالي في كابول ، والذي عادة ما يسري من الساعة العاشرة ليلاً ، ولكن لكوننا عرب سيتسامح معنا الطلبة الذين يحبون العرب خصوصاً و أن الكثيرين منهم قتل في صفوفهم خلال الحرب مع المعارضة الشمالية ، هذا ما قاله لي مرافقي أبو عثمان المصري ، اطمأنت لكلام أبي عثمان

وهو المعروف حسب ما فهمت منه وشاهدت في قندهار في أوساط بعض قيادات طالبان ، وبالتالي فلا داعي للقلق بعد الآن ، استأجرنا سيارة خاصة والتي أقلتنا إلى منطقة في غرب كابول ، أخطأ مرافقي في العنوان قليلاً ولكن بعد برهة من الوقت استعاد الذاكرة خصوصاً و أن الرحلة من قندهار إلى كابول هدته وهدتني معه ؛ فقد استغرقت وقتاً ليس قصيراً ؛ فتعدت الثلاث عشرة ساعة في طريق وعر للغاية ، وربما ينبغي البحث في اللغة عن كلمة تناسب وعورته الشديدة ، وأحسست أن كابول التي كتب الكثير عن خضرتها و بساتينها لم يتبق منها شيء ، إذ تعرت تماماً ، وبدت لي صحراء قاحلة ، وربما إن عاد إليها الآن من كتب عن خضرتها ومياهها لاعتقد أنه أخطأ العنوان ، لقد عضها الجوع والفقر بنايبه ، ولمست ذلك في اليوم التالي حين تجولت فيها ، وتذكرت ما كتبه عنها السياسي الإنجليزي الكسندر بيرنز في العام 1832 بعد عودته من بخارى الذي سحره جمالها وفاكهتها صاحبة الحدائق الكثيرة فكتب عن كابول وهو الذي توجه إليها في مهمة سياسية يقول : " كانت هناك أشجار الإجاص ( الكمثرى ) والخوخ والمشمش والدراقن والتفاح والكرز والجوز والتوت والرمان والعنب .

جميعها في مدينة كبستان كبير ، وكانت هناك أيضا البلابل  
والعصافير السوداء والحمام والطيور المغردة على كل  
غصن . «

فهل لو عاد بيرنز لعرف المكان أم تبرأ مما قاله ؟ !! ، وقد  
حدثني الكثير من أهالي كابول بأنه حتى أيام حكم  
الشيوعيين كانت سفوح الجبل الذي يتربع عليه فندق  
انتركونتيننتال وكذلك مطعم باغ بالا مغطى بأشجار العنب ،  
ولم تكن الدوائر الحكومية التي تعمل على تقديم العنب  
كضيافة تشتري من السوق ، وإنما تقطف من هذه  
البساتين التي كانت ملكاً للحكومة .

تذكرت مرة كنت في منطقة استالف الأفغانية التي تعد من  
المصايف الأفغانية الرائعة ، وهي تقع شمالي كابول حيث  
يقع قصر للحكومة الأفغانية ، فقد بدت لي الطبيعة  
الأفغانية رائعة ، إذ أن ثمة عين على الطريق إلى كابول  
معروفة لجميع الأفغان ولعلها من أنقى وأطيب ما رأيت  
في حياتي ربما لا تقل عن ماء الفيحة الشامية قديماً ،  
والغريب في هذا الماء أنه يساعد على الهضم أكثر من  
السيغين آب ، ولكن الحرب وأهوالها حين تقع على بلد  
تحيله إلى ركام وتراب ، وتحوله إلى أثر بعد عين ، فكيف

إن وقعت الحرب الأهلية بين رفاق كانوا إلى يوم قريب في خندق واحد ضد عدو مشترك واحد ، فالإحصائيات مؤلمة من قتل وتشريد وتدمير للبنية التحتية التي ربما بحاجة إلى عشرات البلايين من الدولارات ، وهناك الأخطر من ذلك كله هو بناء الإنسان الأفغاني الذي غاب عنه التسامح الذي كان معروفاً وسط عرقياته وطوائفه .

دلفنا إلى البيت ، والذي كان مكوناً من طابقين ، وهو بيت ليس بالكبير ، عرفت لاحقاً أنه كان في السابق لزعيم الميليشيات الإسماعيلية سيد كيان الذي حكم وادي كيان في ولاية بغلان شمالي أفغانستان قبل وصول حركة طالبان إلى المنطقة واستيلائها عليها في العام 1997 ، البيت كان عادياً جداً في فرشته وترتيبه وعدد غرفه ، إذ أنه كان نسبياً صغيراً يحتوي على بعض الخدم الأفغان الذين يقومون على خدمة العرب ، بينما يجلس العرب في صالون وسط البيت يطل على كل غرفه يتجادبون أطراف الحديث ، أما نحن فكننا نجلس في إحدى الغرف المطلة على الصالون أو الموزع كما يقال له ، فهؤلاء الأفغان العرب الجالسين في الصالون لم يريدوا أن نعرف عنهم شيئاً وهم المطلوبون لأكثر من نظام عربي وغير عربي ، ولم نحاول أن نتطفل



عليهم ؛ فقد فهمنا من لهجتهم أن معظمهم من اليمن والسعودية و دول خليجية أخرى .

الوضع هادئاً في البيت ، ومعظم أحياء كابول لم يكن فيها كهرباء ، ومن بينها هذا الحي ، قضينا ليلتنا على فراش على الأرض ، ونمنا ملء جفوننا حتى الصباح بانتظار السفر إلى منطقة أخرى لم يحددها أبو عثمان بهدف لقاء أسامة بن لادن ، وإن كان الهاتف الداخلي في ذاتي بدأ يهتف بأني سألتقي أسامة في هذا البيت ولن يكون حاجة إلى التوجه لمنطقة أخرى ، بكل تأكيد لم أبح لمرافقي بذلك ونمت وكلي أمل على أن ألتقيه في هذا البيت لأتفادى ساعات سير أخرى وهي قضية في غاية السهولة للأفغان العرب ، وقد تعودوا على ذلك في هذه الأرض الجبلية التي أكسبتهم وأكسبت شعبها ميزتي الصبر والتحمل .

كانت الساعة تقترب من الرابعة والنصف فجراً حين كان مرافقي أبو عثمان يوقظني إلى صلاة الفجر فالجميع قد تهاياً ، أسرع باتجاه الحمام الذي كان الوحيد لأكثر من عشرة من ساكني البيت ، وبعد الوضوء وصلاة سنة الفجر لمحت في الصف الأول زعيم جماعة الجهاد المصرية

الدكتور أيمن الظواهري الذي لم يتقدم بخطوة تجاهي وبقي في مكانه ، وبدوري ظللت في مكاني حيث صليت صلاة السنة فقد توقعت أن يقوم باستقبالي والسلام علي ما دمت ضعيفاً عليهم ، وإن كنت لمحت وقرأت في وجهه أنه غير مرتاح لوجودي في هذا المكان ، وربما أكون مخطئاً في تقديري ذلك ، لم أجلس سوى دقائق معدودة بعد صلاة السنة حتى أقيمت الصلاة من قبل أحد الشباب الخليجين الموجودين في البيت ، ووقف الدكتور أيمن الظواهري إماماً بعمامته البيضاء ولباسه الأفغاني ولحيته الكثة التي بدأ الشيب يتسلل إليها ، فقد عرفت الظواهري من قبل في بيشاور، حين كنت أعطي الأحداث لصحيفة الشرق الأوسط والحياة اللندنية في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينيات ، إذ كان حينها طبيباً جراحاً مشهوداً له في مستشفى الهلال الأحمر الكويتي ، وعرف عنه الوقار والصمت ومتابعة الصحف المصرية خصوصاً صحيفة الأهرام القاهرية حسب ما سمعت ، وذلك من أجل متابعة الأحداث المصرية .

لم يطل الظواهري في صلاة الفجر ، وما أن فرغ منها حتى ظللت في مكاني في الصف الثاني من الصلاة ،

متوقفاً أن يقوم بالسلام علي ، ولكن ما هي إلا دقائق حتى نهض من مكانه إلى بيته الذي علمت لاحقاً أنه يسكن بالقرب من هذا البيت الذي نقيم فيه الآن ، وقمت بدوري إلى الغرفة المجاورة من أجل استئناف النوم أو معرفة ماذا سيكون برنامج هذا النهار ، ربما قرأ مرافقي ملامح وجهي التي من الصعب على المرء أن يخفيها في مثل هذه المواطن .

نظر إلي مرافقي أبو عثمان صامتاً ثم قال لي يبدو أن الجماعة سيأتون هنا ولن يثقلوا علينا مضيغاً : " حين سمع أسامة بأن رحلتك كانت طويلة إلى هذا الحد قرر أن يأتي بنفسه إلى البيت كي يوفر عليك الوقت والتعب . " بالطبع فرحت وسررت كثيراً وإن كنت أخفيها ، مبدياً استعدادي الذهاب إلى أي مكان يتطلبه لقاء أسامة بن لادن ، فالصحافي مستعد إلى آخر الأرض ليلقى هكذا شخصية ، وما هي إلا ساعات أي في حدود العاشرة صباحاً تقريباً حتى دخل أبو حفص المصري " محمد عاطف " في الثانية والأربعين من عمره ، حولته لحيته البيضاء وهدوءه إلى سن الخمسينات ، وبدا وقوراً وبشوشاً وسلم علينا ، وبينما نحن كذلك حتى لمحت كأن شخصاً ممثلاً يبدو أنه سعودي يدخل

بسرعة مسلماً ؛ ولكنه كان على ما يظهر مهموماً ومشغولاً بقضية أخرى ، وبدأ يعطي الأوامر بالانتشار لبعض الشباب الذين كانوا مسلحين ، فعرفت أن الرجل قد دخل البيت ، كانت أوامر الرجل الذي ظهر لي بأنه المسؤول عن الحراسة للحراس الآخرين كالآتي ، أنت انتشر هناك ، وأنت انزل إلى الطابق السفلي ، هكذا كان يعطي أوامره ، بينما لمحت بعض صواريخ ستينغر الأميركية مجهزة للتصدي لأية غارة أميركية أو غير أميركية ، وكانت واشنطن سلمت هذه الصواريخ إلى المجاهدين في الفصل الأخير من الحرب الأفغانية ، ثم اشترت الكثير منها من بعض فصائل المجاهدين ، لكن بعضهم لم يسلمها وأبقاها معه ، ولعل ما تبقى وصل إلى القاعدة ، كما كانت هناك بضع صواريخ من طراز سام 7 الروسية الصنع والمضادة للطيران أيضاً ، وبعد أن تم التوزيع بشكل منظم وهدأت حركة أقدم الحراس والمرافقة ، دخل الشيخ أبو عبد الله أسامة بن لادن كما يحلو لأتباعه أن يسموه .

كانت هيئته وكأنه قدم من منطقة ليست قريبة فالتعب ظاهر على هيئته ، وكذلك على ملامح مرافقيه وحراسه ،

سلم وجلس على الأرض بتواضع غريب ليسأل عن الأحوال والسفر ، وهل استرحنا منه بعد هذا النوم الطويل نسبياً .

## للجدران أذان !!

في تلك الغرفة الصغيرة و البيت المتواضع الذي يبدو أن أسامة يتردد عليه تذكرت المثل الدارج وهو : " للجدران أذان " ، شعرت برهبة المكان وهيئته والجو الغريب الذي يلفنا من وقت دخولنا إلى خروجنا ، لا أدري سببه ، ففي أحيان كثيرة يعجز المرء عن العثور على كلمات تناسب المكان والزمان ، ولعل إحداها في حياتي هي تلك الجلسة في تلك الغرفة ، ففيها سألتقي أول مطلوب في العالم تبحث عنه كل قوى الأرض الموالية والخائفة والمرعوبة من أميركا ، فإن كان للمكان عبقرية أو رهبة فهذا البيت قد يكون بالتأكيد أحدها .

كان كل جدار يحكي قصة من قصص ابن لادن التي سجلها ؛ ولكن هل للجدران لسان أيضاً ؟ حاولت استنطاق الجدران ؛ ولكن يبدو عبثاً ، ولكن لعلني أحصل على شيء من وراء

عملية الاستنطاق فكل جدار يحكي قصص لقاءات ولقاءات  
 لبن لادن وأتباعه ومضيفيه من حركة طالبان الأفغانية ،  
 ولطالما حلمت أميركا أن تعرف ما يدور في هذا البيت  
 المتواضع ، ولطالما سعت أن تضع جهازاً أو قريباً منه في  
 هذه الجدران البسيطة ولكن يبدو عبثاً ، كانت الجدران  
 تحكي قصة ذلك الشاب السعودي الثري من عائلة محترمة  
 ومعروفة أشرفت على توسعة الحرمين الشريفين في مكة  
 المكرمة والمدينة المنورة ، كنت أصغي باهتمام لكل ما  
 يهمس به هذا الجدار أو ذاك في أذني عن الساعات الطوال  
 التي ركن ابن لادن ورفاقه وأتباعه إليها ، وربما هنا جرت  
 التخطيطات لعواصف النار التي انصبت على أميركا ، والتي  
 كانت إيذاناً بمرحلة جديدة في العالم ، وظهر مبدأ بوش  
 على إثرها " إما معنا أو مع الإرهاب . "

كنت أنتظر أي إشارة أو تلميح أو همس من هذا الجدار أو  
 ذاك لعلها تفك لي الغازاً وأحاجي وأشياء وأشياء طالما  
 بقيت عصية على فهم هذا التنظيم المعقد والذي أخذ على  
 عاتقه مناهضة أقوى قوى الأرض في هذا الزمان ، ولكن  
 لغز التنظيم وأحجيته لم تكن بأقل من لغز وصمت هذه  
 الجدران ، وكان التنظيم علمها هذه المهنة ، وغدا التناغم

حتى بين الأشخاص والمكان ، والرسول صلى الله عليه وسلم القائل حين وقف على جبل أحد : " هذا جبل يحبنا ونحبه " فهل وصل الحب حتى بين القاعدة وأسامة وبين جدران هذا البيت ليخفي عنه الأسرار والقصص المثيرة التي ينتظرها كل فضولي مثلي .

## تثمين لدور العلماء والشارع العربي :

بدأ ابن لادن حديثه بتثمين موقف العلماء خصوصاً الذين أفتوا بمقاطعة البضائع الأميركية على خلفية الدعم الأميركي اللامحدود لليهود في فلسطين ، خصوصاً وأن الانتفاضة كانت في أوجّها ، وذكر أسامة فتوى الدكتور يوسف القرضاوي في هذا الصدد داعياً إلى تفعيل دور وأهمية الفتوى في عالم المسلمين ، خصوصاً وهم الذين يتعرضون للقتل والتعذيب في كل أرجاء الأرض وبشكل يومي على حسب قوله . كان يدعم رأيه أو يفصل له أكثر ، أو يعلق حسب المقام أبو حفص المصري ، والذي كان

وحيداً في الجلسة معنا ، فلم يجلس أيمن الظواهري الذي اعتكف ساعتها في بيته ، وربما كان منهمكاً في موضوع يخصه ، ولربما لم يكن راغباً في الاقتراب من صحافي كمثلي .

رأيت أبا حفص المصري في الجلسة شاباً طويلاً ربما يتجاوز طوله المائة و التسعين سنتيمتراً أقرب إلى السمرة وشعر خضبه البياض سعى إلى صبغه بالحناء مع لحية طويلة بأكثر من مقبض اليد ولباس أفغاني أبيض مع عمامة بيضاء طالبانية وهي علامة مسجلة لأفراد القاعدة الذين حرصوا على إرضاء مضيفيهم الطالبان الذين يرون في العمامة على كونها رمز تنظيمهم .

عرج أسامة على الشارع العربي والإسلامي الذي تفاعل مع الانتفاضة الفلسطينية ، مشدداً على أن " هذا الشارع لو انتفض لصالح قضية شيوعية أو علمانية لتم استغلاله بطريقة ذكية جداً من قبل أصحاب تلك القضية ، ولتمكنوا من الوصول السلطة ، ولكن للأسف فإن الإسلاميين لم ينجحوا في استثمار هبة الشارع الذي خرج منادياً بهم وشاجباً لمواقف الحكومات الغربية والعربية ، وبالتالي أضاعت الحركات الإسلامية فرصة لا تفوت للوصول إلى



الحكم لتطبيق شرع الله الذي طالما حلمت به الشعوب ونادت به السماء ."

وأضاف ابن لادن في حديثه : " باختصار لقد أدى الشارع العربي دوره وبامتياز ، ولكن أين من يحرك وينظم ويرفع الوتيرة ، ويستغل الحدث بما يخدم الإسلام وأهله ؟!! " "

وأكد ابن لادن على دور الإعلام خصوصاً الفضائي منه لشغف الجماهير والشعوب به ، وهو الذي ينقل لغة الجسم قبل لغة اللسان ، وهي الأهم في كثير من الأحوال لتفعيل دور الشارع العربي و الضغط على الحكومات من أجل تخفيف اعتمادها على الولايات المتحدة الأميركية ، والركون إلى الله تعالى ، ثم إلى الشعوب التي هي الرصيد الحقيقي في وقت السلم والرخاء و الشدة ، لكنه رأى أن الإعلام يحاول طمس كثير من الحقائق على رأسها حملات التشويه للحركات الإسلامية خصوصاً الجهادية منها في فلسطين .

وتطرق أسامة إلى ضرورة توحيد العمل الإسلامي مشيراً إلى كتاب سيصدر قريباً وسيقدم له ، وحين راجعت مقدمة ذلك الكتاب والذي هو بعنوان : " العمل الإسلامي بين

دواعي الاجتماع و دعاة النزاع " و لم يشر إلى مؤلفه إلا بالقول : " إعداد مركز الدراسات و البحوث في باكستان ، تقديم الشيخ أسامة بن لادن . "

و يبدو أن المركز ليس له وجود ، و يتحدث أسامة في المقدمة عن أهمية هذا الموضوع بعد أن شاع الخلاف بين الإسلاميين و كأنه القاسم المشترك بينهم إذ يقول : " .. و لكن ما يدعو للدهشة و يصيب بالذهول هو ما يلحظه المسلم اليوم من حجم الخلافات و الفرقة بين المسلمين عموماً و بين العاملين للإسلام بصورة أخص ، حتى أصبحت هذه الظاهرة الخطيرة تكاد تكون موضوع الإجماع و الاتفاق الوحيد بين فصائل العمل الإسلامي المختلفة !! . "

و يدعو أسامة في نهاية مقدمة الكتاب التي لم تتجاوز الثماني صفحات من القطع الصغير إلى التعامل الإيجابي مع هذا الطرح . و يقع الكتاب بالأصل في 145 صفحة من القطع الصغير ، تحدث فيه المؤلف عن الساحة الإسلامية و واقعها و الخلافات التي تعيشها ، ثم تطرق إلى ضوابط المنهج المطلوب ، و حدها بتسعة ضوابط ، ثم تحدث عن المعالم العامة لإطار التعاون بين العاملين للإسلام ، و ذكر ثلاثة معالم حسب رأيه ، و هي الوحدة في الأصول ، و

التعدد في تكامل لا تعارض ، و ضبط الخلاف بمنهج السلف ."

وعلمت فيما بعد أن الكتاب من تأليف " أبو حفص الموريتاني " الذي يعد أحد الشخصيات القيادية في تنظيم القاعدة ، والذي كان يدير معهداً للدراسات العربية في قندهار ، ويحظى بعلاقات وطيدة مع قادة حركة طالبان خصوصاً وأنه درس المذهب الحنفي في بلده على أصوله وهو ما يريح الطالبان الذين يتمذهبون على نفس المذهب ، الذي يدين به الشعب الأفغاني بشكل عام .

ويعتقد أسامة كما دونت في مفكرتي بعد لقائي معه بأن الإسلاميين أحد جناحين : " إما مسلمون عاجزون لا يعرفون من أين يبدؤون ، وإما مسلمون فقدوا الثقة بأنفسهم ، وبالتالي لا بد من إعادة الثقة إلى نفوسهم ، وقد أثبتت الأحداث الأخيرة في انتفاضة الشارع العربي الفارق الزمني و القياسي بين الشارع العربي والحركات الإسلامية ."

**تداعيات ما بعد يو اس كول :**

كانت عملية المدمرة الأميركية يو إس كول في ميناء عدن حديثة ، والكل في أفغانستان يتحدث عن دور القاعدة في العملية ، وبالتالي كانت الأجواء كلها بانتظار قيام الولايات المتحدة الأميركية بتوجيه ضربة إلى أفغانستان لرد كبرياتها الذي تمرغ في ميناء عدن حسب قول الكثير من المرافقين لبن لادن . ألمح الأخير في حديثه إلي الذي لم أسجله للأسف لأنه لم يكن مسموحاً لي بذلك ولكن سجلت بعض نقاطه بعد نهاية اللقاء في مفكرتي إلى مسئوليته على ضرب الباخرة ، وتوقع أن يكون ثمة رد أميركي على غرار ما فعلت واشنطن في خلال الضربة الأولى في العام 1998 لأفغانستان ، وذلك بعد تفجيرات السفارتين الأميركيتين في أفريقيا الوسطى . وقال لي حينها : " نحن نتوقع أن يكون الرد الأميركي في نوفمبر " كانون ثاني " من العام 2001 " ولكن ذلك لم يحصل إذ أن أميركا كانت تحضر لضربة أكبر من ذلك ، بحيث تقوم بحشد قوى عالمية معها مصطفى خلفها لتحشر القاعدة في زاوية ضيقة ، إذ أنها تود تجسيد الشر كله في القاعدة وأسامة بن لادن وبضع أفراد من الأفغان العرب .

وقال ابن لادن في لقائه آنذاك : " لقد سجدت شكراً لله على هذه العملية البطولية التي دمرت الهيئة الأميركية ، وهي إشعار للأميركيين بأن عليهم الرحيل من المنطقة العربية و الجزيرة العربية حصراً كما حضنا على ذلك الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام في آخر أيامه بأن أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب . "

ودعا ابن لادن خلال الحوار إلى مواصلة - ما وصفه - بالضربات الجهادية ضد القوات الأميركية من أجل إعادة الثقة بالنفس للأمة الإسلامية التي ضربت منذ سنوات طويلة في ثقتها وإمكاناتها ، وكذلك هز الهيئة الأميركية التي تعجرت وتكبرت واغترت طوال السنوات الماضية ، إن مسألة إعادة الثقة بالنفس للأمة الإسلامية واستنهاض هممها مسألة في غاية الأهمية هذه الأيام . " هكذا قال لي .

أبو حفص المصري معروف كما ذكرت بهدوئه وتركيزه في الحديث ، وحين يتكلم تحس بأنه يقذف بكل كلمة من فيه بعد تفكير وتأمل واستعداد للدفاع عنها كونه واثق منها ، ولكن لا تشعر أنه معتد برأيه ، أو من الصعوبة بمكان تغيير موقفه ، حدد أبو حفص المصري رؤيته لمستقبل الضربات

الأميركية على الشكل التالي : " ستكون ضربات على غرار كوسوفو وصربيا وسيتم حشد القوى العالمية ضد أفغانستان ، وسيتواصل الضرب لفترة ليست قصيرة وستستخدم أميركا قواعد جوية في دول وسط آسيا وتحديداً في أوزبكستان وطاجيكستان حصراً وربما باكستان ، ولا نستبعد أن تعمد روسيا إلى دعم قوات أحمد شاه مسعود مالياً وتسليحياً وبشرياً من أجل السيطرة على مناطق طالبان . " ولكن كل هذا لم يكن يعني أسامة أو أبو حفص المصري شيئاً ، إذ شدد كل منهما على أن التجربة الصومالية قاتلة للأميركيين ، وبالتالي كانت القاعدة تنتظر وصول القوات الأميركية في أفغانستان لتقاتلها على غرار ما فعله الأفغان العرب في قتالهم ضد السوفييت خلال فترة الجهاد الأفغاني ، ولكن ربما ما غاب عن ذهن كلاً من أسامة وأبو حفص المصري هو المثال الأميركي الذي وضعوه نصب أعين العالم جميعاً وهو " مثال كارزي " ، بالإضافة إلى الطريقة التي تعامل بها الأفغان مع العرب من لهث وراء الأموال وانهيار سريع لحركة طالبان الأفغانية ، وإن كان الكثير يشير إلى أن انهيار طالبان لم

يكن مستبعداً ، ولكن ربما كانت المفاجأة هو سرعة الانهيار

أسامة بن لادن كان يتكلم بكل فخر عن تجربة " المجاهدين العرب في الصومال و استبسالهم ضد القوات الأميركية التي أرغمت بعد أيام على الرحيل من الصومال تاركة عملية الأمل التي جاءت من أجلها بدون أمل " .

وبدأ يتحدث ابن لادن عن رأيه في أن القوات الأميركية لن تخرج من المنطقة العربية مستندلاً ببعض التصريحات الأميركية والتي يقول بأنه سيضمنها في مقدمة كتاب " القول المختار في حكم الاستعانة بالكفار " للشيخ السعودي الراحل حمود بن عقلاء الشعبي " و الذي يقع في 165 صفحة و نشرته حسب الكتاب دار الصحوة للنشر و التوزيع في بيروت - لبنان . و المقدمة التي استغرقت 22 صفحة ، وهنا أجدني أعود إلى مقدمة الكتاب كوني لم أسجل كل كلمة تفوه بها أسامة سوى بعض النقاط الرئيسية ، وبعد أن يتحدث في المقدمة عن أهمية الكتاب و نقده للوجود الأميركي في المنطقة العربية يجزم ابن لادن أن هذه القوات جاءت لتبقى ، ناقلاً تصريحاً لأحد المسؤولين بثته هيئة الإذاعة البريطانية يوم 7 - 11 - 1418

هـ " إن الأميركيين و البريطانيين لو قيل لهم أخرجوا من الجزيرة لا يخرجون . "

كما نقل في المقدمة عن إمام الحرم النبوي الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي في إحدى خطبه قوله : " و في الآونة الأخيرة صار اليهود و النصارى يختلقون مشاكل للمنطقة ، و يتذرعون بها للتواجد العسكري ، و بعد أن تمهدت الأسباب للدول الكبرى صاروا يفتعلون الأحداث الصورية للتدخل العسكري بعد أن تدخلوا اقتصادياً . "

ثم يقتبس الكثير من النقولات للرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون ، و كذلك الشيخ سفر الحوالي وغيرهما للتأكيد على أهمية المنطقة الخليجية في منظار السياسة الأميركية . لكن مع هذا كله يبدو لي أن أسامة والقاعدة بشكل عام استعدت للأسوأ في الضربات الغربية و الأميركية على أفغانستان ، وهذا ما مكنها من تحاشي قتل أو القبض على أحد من قيادتها أو قاعدتها الفاعلين والنشطين رغم انهيار حركة طالبان الأفغانية ، ومن السخرية بمكان أن يتم القبض على بعض قادة الطالبان في الوقت الذي ينعم قادة القاعدة بالحرية و الاختفاء ، ويظهر أن ما نشرته النيويورك تايمز في أوائل شهر فبراير



" شباط " من العام 2002 وأعدت نشره الشرق الأوسط اللندنية ربما يكون من الصواب حين تقول سيثبت المستقبل أن معركة طوره بوره ما هي إلا عملية تضليل لقوات القاعدة التي كانت في مكان آخر غير جلال آباد ، وعلمت لاحقاً من أحد الأفغان العرب الذي تمكن من الخروج من أفغانستان بأن الذين تم القبض عليهم من قبل القوات الأميركية في باكستان أو داخل أفغانستان وتم نقلهم إلى غوانتانامو كان تقديراً خاطئاً من قبل ابن الشيخ الليبي والموريتاني الأصل ، فقد رفض مساعدة قبائل أفغانية رتبت للانسحاب بشكل آمن من طوره بوره ، لكنه غير رأيه في اللحظات الأخيرة واستمع لنصيحة بعض القبائل الباكستانية ، و انسحب معها وهي التي قامت بتسليمه للقوات الباكستانية ومنها إلى القوات الأميركية ، رغم أن هذه القبائل أقسمت على القرآن الكريم أنها لن تخذلهم ، وعلى هذا فلم يكن هناك أي فضل للقوات الأميركية في القبض على هؤلاء ، ونفى المصدر بقوة أن يكون أصلاً ابن الشيخ من قادة أو حتى أتباع القاعدة ، وإنما كان كل عمله هو تدريب كل من يرغب بالتدريب بغض النظر عن انتمائه الحزبي .

وقد سمعت من هذا المصدر كلاماً ربما يكون من المناسب تسجيله في هذا المكان بالذات إذ قال : " نحن لم نعد نقبل أن نكون ضيوفاً على الأفغان ، فقد مضى على وجودنا في أفغانستان أكثر من عقدين من الزمن ، وبالتالي فنحن من أهل البيت ، خصوصاً بعد أن احتلت القوات الصليبية الأميركية أفغانستان ، وهذا يحتم علينا أن نقوم بتحريرها والدفاع عنها أمام هذه القوات ، إذ أن الجهاد أصبح متعيناً على كل مسلم في الأرض . "

## الخروج من السودان والاتصال بطالبان :

حين بدأ أبو عبد الله الحديث عن ذكريات الماضي خلال فترة الجهاد الأفغاني نظر إلي متأملاً ومستذكراً أيام بيشاور ، وسأل هل التقينا من قبل ؟ قلت بكل تأكيد في منطقة حياة آباد في بيشاور ، حين كنت تسكن في منطقة فيز أربعة ، وأجريت معك حواراً كانت حينها معركة جلال آباد على أشدها ، ومساعدتك للتوسط بين القادة الأفغان ،

ولكن الحوار يومها لم ينشر بناءً على رغبتك ! فتذكر الرجل وقال نعم هذا صحيح كنت أسمع عنك وأقرأ مقالاتك ولعلنا نتمكن من إجراء حوار معك ؛ ولكن كما تعرف فإن الطلبة تحت الضغوط ولا يرغبون بمثل هذه اللقاء ، وإن كنا نتحدث في لقاء ليس للنشر الآن ، ولكن أعتقد حسب فهمي من حوار معي أنني تحللت من عدم النشر بعد زوال سببه الممثل برحيل حركة طالبان الأفغانية التي كانت تفرض على أسامة الحظر بسبب الضغوط الدولية والأميركية حصراً عليها ، والتي طالبتها بتسليمه فرفضت درءاً للضربة الأميركية ، وعمدت الحركة إلى تقييد حركته ومنع نشاطه ، وإن كان ذلك لم يكن صحيحاً أبداً إلاً ظاهرياً ، وإلاً لو كان الأمر غير صالح للنشر فما الفائدة من لقائي وحديثه معي المطول هذا .

صمت أسامة برهة من الوقت ثم ابتلع ريقاً ، وطلب كوباً من الماء الذي يحرص على أن يكون أمامه أثناء الحديث ، وإن كان أتباعه لا يتركون الكأس فارغاً ما دام هو جالس ثم قال : " لقد عانى الشعب الأفغاني الكثير قبل ظهور طالبان والكل يعرف ماذا كانت تفعله أحزاب المجاهدين من فرض للإتاوات والخوآت ونحوها ، حتى قيص الله لهذا

الشعب كوكبة من طلبة العلم ، وهي التي أنقذته من العصابات المسلحة الذي كان أسيراً لها ، وكان لهذه الكوكبة أن رحبت بنا أيضاً بعد أن ضاقت بنا الأرض بما رحبت ."

كان أحد الشخصيات المصرية ويدعى أبو جهاد المصري ممن رافقوا أسامة في السودان ، ثم في رحلته إلى أفغانستان قد أبلغني بعد الحديث بالقول : " حين طلبت منا الحكومة السودانية مغادرة أراضيها جلبنا الخريطة لنبحث لنا عن مكان ما تحت الشمس ، وبتنا نتساءل هل هناك دولة معينة مستعدة لاستضافتنا ، وبينما كان الجميع غارق في البحث عن مأوى لمعت فكرة لدى أحد الأخوة وهي العودة إلى أفغانستان التي لدينا فيها ذكريات ومؤيدون ، وقد استثمرنا فيها الكثير من الدماء دون أن نستفيد منها ، ووافق الجميع على الفور على ذلك ."

وكانت مصادر أفغانية في جلال آباد حدثني أن عدة زيارات إلى السودان قام بها القائد الميداني الراحل فضل الحق مجاهد التابع للحزب الإسلامي بزعامة قلب الدين حكمتيار ، والذي كان يحظى بوجود قوي في جلال آباد ، إلى جانب المهندس محمود وسازنور حيث كان ابن لادن يحظى

بعلاقات وطيدة معهما أيضاً ، منذ أيام الجهاد الأفغاني ،  
فقد سعى بعد سقوط النظام الشيوعي الأفغاني إلى تعبيد  
جزء من الطريق الرئيسي لهم بين طورخم وجلال آباد ،  
وكذلك إلى إصلاح مطار جلال آباد ، وتقول المصادر  
الأفغانية نفسها بأن فضل الحق تمكن من إقناع وترتيب  
عودة أسامة بن لادن ، كان وجود حركة طالبان حينذاك  
يقتصر على مناطق جنوب غرب أفغانستان ، وحسب رواية  
أسامة في حديثه ذلك اليوم لي فإن : " الأخوة الذين معي  
لم يكونوا يعرفون أحداً من الأخوة الطلبة الذين ظهروا  
بينما كنا في السوادان ، إذ أن معظم المجاهدين العرب  
قاتلوا في مناطق الجنوب الشرقي والوسط والشمال ،  
وليس هناك أخوة عرب كثر قاتلوا في مناطق الجنوب  
الغربي حيث ظهرت طالبان ، ولم تكن نعرف على كل حال  
سوى القائد إحسان الله الذي تسلم لفترة رئيس البنك  
الأفغاني في كابول ، ثم قتل في مزار الشريف في معركة  
وقعت كما هو معروف مع الميليشيات الأوزبكية بزعامة  
الجنرال عبد المالك ، الذي انقلب على الطلبة بعد أن  
تحالف معها . "

ولكن يبدو أن القيادات الأفغانية الميدانية في جلال آباد شرقي أفغانستان التي استقبلته حينذاك ، والتي كان يحظى معها بعلاقات وثيقة للغاية كانت تحضر للاستسلام لقوات طالبان ، ولم تشأ القتال ضد طالبان خصوصاً وهي التي وقفت على الحياد طوال الصراع الأفغاني بين حكمتيار ورباني ، وكانت منطقتهم مأوى للطرفين خلال أشد المعارك الواقعة بينهما ، ولكن الغريب أن جميع هذه القيادات الميدانية التي دعت ورحبت بأسامة بن لادن في ولايتها وسلمت بعدها المدينة لطالبان بعد أن ربطته بالأخيرة حسب رواية أسامة نفسه قتلت في ظروف غامضة إثر إخلاء المدينة من قبل طالبان ، حيث قتلوا في كمين نصب إليهم قرب الحدود الباكستانية خلال عملية مغادرة المدينة وتركها لطالبان ، وإن كانت الأصابع اتجهت يومها إلى باكستان خشية أن تنقلب هذه القيادات ضد طالبان في وقت من الأوقات ، وهو ما يهدد حليف باكستان الاستراتيجي طالبان آنذاك . إذ كانت باكستان تخشى أن تعود الحمية لهذه القيادات الميدانية التي فجأة فقدت كل امتيازاتها لصالح طلاب علم جدد ليس لديهم

نفوذ أو تأثير شعبي ، ولا رؤية إدارية أو سياسية لإدارة الأمور في بلد شديد التعقيد في كل شيء .

شدد ابن لادن في حوارہ معي على أن قناة الاتصال الحقيقية كانت الشيخ يونس خالص زعيم الحزب الإسلامي وهو من المولويين المحسوبين على نفس الاتجاه الفكري لطالبان ، خصوصاً وأن الملا عمر كان من أتباع الشيخ يونس خالص ، وهو ما سيوفر غطاءً قوياً لوجود ابن لادن في أفغانستان طالبان ، فألى جانب خالص هناك الشيخ مولوي محمد نبي محمدي فقط الذي يحظى بتلك العلاقة القوية مع طالبان نظراً إلى المزاج المولوي الذي يتشاطر فيه مع الحركة ، بينما الأمر يختلف في وضعية القيادات الأفغانية الأخرى مثل حكمتيار ورباني وسياف وغيرهم ممن لم يكونوا من نفس المدرسة المولوية.

وظهر من خلال الحديث أن ابن لادن غير متفق تماماً مع طالبان بخصوص إدارة البلاد ، إذ أنه كان يطمح منها في توسيع قاعدة مشاركتها السياسية خصوصاً في ضم شخصيات مثل حكمتيار الذي يحظى بشعبية في داخل أفغانستان وكذلك لخبرته السياسية وعلاقاته الإسلامية و الدولية المتشعبة منذ أيام الجهاد الأفغاني . وأبدى ابن

لادن في خلال اللقاء تبرماً من طالبان لعدم توسيع قاعدتها الحكمية ، خصوصاً في إشراك بعض الشخصيات الأفغانية من إعلامية وقانونية وغيرها من كافة التخصصات ممن يوثق بدينهم وكفاءتهم ، لكن للأسف لم تفعل ذلك ، هكذا قال ابن لادن ، وكان على ما يبدو والكثير من أتباعه الذين قاتل البعض منهم في صفوف الحزب الإسلامي بزعامة قلب الدين حكمتيار ضد أحمد شاه مسعود ينتظرون أن يتم اتحاد أو انضمام حكمتيار إلى طالبان ، وهو ما سيعزز من مكانتهم في أفغانستان نظراً إلى العلاقة الوطيدة السابقة التي كانت تربط بين حكمتيار وأسامة بن لادن ، بالإضافة إلى أتباعه الذين انضموا إلى طالبان بعد سقوط حكمتيار ، فضلاً عن ذلك كله القرب المزاجي والفكري بين الطرفين .

لكن طالبان لم تكن ترغب بذلك أبداً ، ويبدو أن ذلك كله مرده إلى عقد فكرية وشخصية بين المدرستين ، بالإضافة إلى الخشية من أن يتم سحب البساط من تحت أقدامها على يد حكمتيار ، ورغم كل المحاولات الدؤوبة لابن لادن حسب ما علمت أثناء فترة القصف الأميركي إلا أن طالبان ركبت رأسها ورفضت التعاون مع أحد بما فيهم حكمتيار



الذي ساندتها خلال فترة القصف الأميركي عليها ، واستعد في كثير من المناسبات التي ظهر فيها على وسائل الإعلام إلى التعاون معها ، وأرسل موفديه ومندوبيه إلى كابول لكن دون جدوى .

وتأثراً بنظرية المخلص أو المنقذ والمجدد الذي ينتظره كثير من المسلمين الحركيين ، ويسكن في جوانح قلوب الكثير من المسلمين العاديين ، فقد عوّّل البعض من المسلمين الباكستانيين وغير الباكستانيين كثيراً على أسامة بن لادن ضارين مثال صلاح الدين الأيوبي وغيره الذي غير وجه العالم الإسلامي حينها ، خصوصاً وأن عصر صلاح الدين الذي أطلق عليه " العصر الصلاحي " سبقه ظهور وتنامي دور المدارس الدينية التي لعبت دوراً في ذلك التغيير الذي شهده العالم الإسلامي ، وهو ما تكرر في تجربة حركة طالبان التي خرجت من رحم هذه المدارس الدينية ، وقد لمست ظاهرة أسامة حين وصلت إلى منطقة القبائل الباكستانية لتغطية التفاعل الباكستاني مع القصف الأميركي على طالبان ، فقد رأيت الكثير من الجوانيت والصيدليات والأماكن قد أطلق عليها اسم أسامة بن لادن ، وسمى الكثير أبنائه أسامة ، وكأنه المنتظر والمخلص لهذه

الأمة ، ولعله تأثراً أو استنساخاً لفكرة هذا المخلص الذي يسكن في قلوب الكثير من المسلمين ، كان أسامة مقتنعاً ربما بالملا عمر أكثر من الطالبان كحركة ، وهو ما يلمسه كل من يتعاون مع الأفغان إذ أن كثيراً من الأفغان العرب الذين قاتلوا في صفوف الأفغان كانوا مقتنعين بزعيم الحزب أكثر من الحزب كحزب ، ولعل هذا ما حال دون حصول أميركا أو غيرها على معلومات دقيقة عن ابن لادن الذي يدرك تغير الولاءات في أفغانستان وشراء الذمم ، ولذا لم يكن له أن يعطي أسرارها أو معلومات مهمة وحتى مكان تواجده لأفغاني مهما علا شأنه ، ربما غير زعيم الحركة وربما في حدود ضيقة أيضاً .

وتأكيداً على هذا فقد رأيت كل الأفغان العرب الذين يريدون حتى بعض الأمور التي ربما قد تبدو عادية يحرصون على الحديث مباشرة إلى الزعيم الأفغاني الأول وبشكل مباشر دون حجاب أو وسيط أو حضور أحد خشية من تسرب المعلومة ، وهو ربما ما طبقه ابن لادن وجماعته بامتياز خلال تواجدهم بين ظهراي حركة طالبان .

كان حديث أبو عبد الله باللغة العربية السليمة ، يسعى جاهداً إلى الوقوف عند الفاصلة والنقطة ، ومعطياً

لإشارات التعجب والاستفهام حقها ، لعل أبا عبد الله أدرك من قسّمات وجهي وأنا الذي تابعت الشأن الأفغاني من أوله وأدرك أنه وأمثاله من العرب لم يكونوا على قرب من التقليديين الأفغان وحصروا معظم روابطهم وعلاقاتهم طوال فترة الجهاد مع الحركيين الأفغان ؛ فتحدث في البداية عن تفسيره لظهور حركة طالبان وسرعة انهيار القيادات الأفغانية التي كانت تملأ الدنيا ، وتشغل الناس ليس في أفغانستان فحسب ، وإنما في العالم الإسلامي وغير الإسلامي ، ولم ينس السبب الذي دفعه إلى تأييد الحركة ، ومما قاله حسب الذاكرة : " ما رددته الكثيرون من الأخوة في أن طالبان عميلة للباكستان لا أعتقد أنه دقيق ، وإن كنت لا أشك في أن الحركة تتلقى دعماً من باكستان ، فثمة تقاطع مصالح بين الطرفين ، لقد تعب الشعب الأفغاني وسئم القتال وفقدان الأمن والفلتان الذي تفشى في المدن ، وبالتالي ما حصل هو عملية سحب داخلي أكثر مما هو دفع خارجي ، فباكستان عمقها الاستراتيجي العرضي ضيق إذ لا يتعدى الأربعمائة كيلومتر ، وهي بحاجة إلى عمق مثل أفغانستان يضاف إليها في حال اندلاع أي مواجهة مع العدو الهند ، وقد تمكنت باكستان

عبر استيلاء طالبان على الولايات المحاذية لها من تأمين حدودها وغابت التفجيرات التي كانت أشبه ما تكون روتينية في المدن الباكستانية الرئيسية ، والتي عادة ما تسبب زهق المئات من الأرواح ."

وسألت أسامة : ولكن ما صحة ما قيل عن عمالة طالبان لأميركا والاتهامات التي ساقها في البداية بعض قادة المجاهدين الأفغان ومنهم زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار ؟ فقال : " كانت واشنطن تراهن في البداية على فشل طالبان في إقامة الدولة الإسلامية ، وأنها ستتهار من الداخل ، وتندلع اشتباكات في صفوفها ، وهو ما سيمهد الطريق إلى الحل غير الإسلامي ، أي الحل العلماني برئاسة الملك السابق ظاهر شاه ، وذلك على غرار ما حصل مع فصائل المجاهدين في كابول بعد وصولهم إلى السلطة فاقتتلوا عليها ، ولكن الظن الأميركي خاب وتمكنت طالبان من إحباط المخطط الأميركي بل والوقوف والصمود في وجهه ."

ويبدو أن واشنطن ازداد حنقها وغضبها على الحركة التي لم تصمد في وجه العقوبات الأميركية التي فرضتها عليها لإيوائها ابن لادن فقط ؛ وإنما تمكنت حتى من تحقيق

انتصارات عسكرية لافتة ضد المعارضة الأفغانية في الشمال ، إذ توقع الكثير من المحللين حينذاك أن تؤدي هذه العقوبات الاقتصادية وغير الاقتصادية إلى انهيار طالبان ، أو على الأقل إلى اجتياح المعارضة لكثير من مناطق الحركة خصوصاً في منطقة الشمال التي تتشاطر وقوات التحالف الشمالي عرقية ولغة واحدة ولكن كل هذا لم يحصل .

وحسب بعض الأفغان العرب المقربين من أسامة فإن ما ساعدهم هو وجود مجموعة نصر الله منصور مع حركة طالبان ، خصوصاً وأن هذه المجموعة كانت قوية في الشرق الأفغاني ، وتحديداً في منطقة ظلمت حيث يقال : إن قوات القاعدة انحازت إليها بعد سقوط منطقة طوره بوره في جلال آباد ، وباعتبار أن كثيراً من الأفغان العرب كانوا يقاتلون خلال فترة الجهاد الأفغاني في تلك المنطقة قد نسجوا علاقات قوية مع أهالي ومقاتلي المنطقة ، الأمر الذي سهل لهم مواصلة العلاقة مع طالبان ، وكان نصر الله منصور العالم التقليدي الأفغاني والذي قاد حركة الانقلاب الإسلامي معروف عنه قربه من إيران ، إلا أنه قتل في ظروف غامضة في العام 1994 واتهم أتباعه

يومها زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار بالوقوف خلف قتله ، وهو ما سبب عقدة لدى أتباع منصور لاحقاً ، إذ لعبوا الدور الأساسي في إبعاد أي تقارب بين طالبان وزعيم الحزب الإسلامي والذي استعد غير مرة للتعاون مع طالبان ، خصوصاً مع بدء الهجمات الأميركية على أفغانستان ، لكن الدفعة القوية التي حصل عليها الأفغان العرب وهو ما عزز حضورهم وشوكتهم في صفوف طالبان ، هو انضمام القائد البشتوني جلال الدين حقاني والذي يعد الجسر بين الحركيين والتقليديين الأفغان ، ومعلوم أن كثيراً من الأفغان العرب قاتلوا في صفوف حقاني إبان فترة الجهاد ، وهو معروف لدى زعيم تنظيم القاعدة خصوصاً إذا عرف أن حقاني متزوج من يمنية وأسامة تعود أصوله إلى اليمن أيضاً ، وكذلك إحدى زوجاته منها .

## لقاء عاصف بين الملا عمر والأمير تركي الفيصل :

بعد أن تحدث أسامة عن طالبان وتأييده لها لتطبيقها الشريعة الإسلامية في أفغانستان وتوفيرها الأمن والاستقرار وهو الذي كان بمثابة العنقاء في بلاد مزقتها الحروب ، حسب كلام أسامة فقد تفتت بعد سقوطها بأيدي المجاهدين الأفغان إثر انهيار نظام نجيب الله الشيوعي في نيسان من العام 1992 ، شدد على أن الطالبان لهم مواقف رجولة ولا يمكن أن يساوموا عليه ، وذكر بعض تفاصيل اللقاء الذي وصفه بـ " العاصف " بين رئيس المخابرات العامة السعودية السابق الأمير تركي الفيصل وزعيم حركة طالبان الأفغانية الملا محمد عمر ، ومما قاله أسامة في خلال الحديث : " بعد حادث تفجير السفارتين الأمريكيتين في أفريقيا الوسطى في العام 1998 وصل الأمير تركي إلى أفغانستان ، والتقى زعيم حركة طالبان الملا محمد عمر ، وطالبه بتسليمي ، فرد الملا عمر بأن الضحايا في تفجيرات أفريقيا أميركيين وليسوا سعوديين ، والحادث وقع على أرض غير سعودية ، فليس هناك داع للتسليم أو الإبعاد ، وجاءني الطلبة ليدعوني إلى التوقف عن الحديث عن المملكة وقصر تصريحاتي على الأميركيين ، فذرفت دمعة ، وقلت بعدها للملا عمر أننا

سنترك بلادكم ونتوجه إلى أرض الله الواسعة على أن نترك أولادنا وأزواجنا أمانة في أعناقكم ، ونحن سنبحث عن أرض تحمينا ، فرد الملا عمر وقال لم تصل الأمور إلى هذه الدرجة ، ثم اعتذر الطلبة عن ذلك وتركوني وشأني . "

وبعد اللقاء مع أسامة كان أبو حفص المصري قال لي : " إن الملا عمر يدرك أن بقاءه في السلطة مرهون بأسامة ، إذ أن مصدر شرعية حركة طالبان كما حددتها منذ البداية هي حماية أسامة بن لادن ، وتخليها عنه سيفتت الصف الطالباني ، على اعتبار أن كثيراً من القادة الميدانيين مرتبطين بأسامة ويقاتلون من أجله ، وإبعاد أسامة أو تسليمه سيعني أن طالبان رضخت للنصارى ، وهو مصطلح معروف تداعياته وأبعاده لطلبة المدارس الدينية الذين درسوا الكتب المدرسية القديمة ، ولم يطلعوا على السياسة وتشعباتها و الضغوط الدولية . "

ويشير أسامة في اللقاء أيضاً إلى أن المملكة "هددت الحركة بتسليم شؤون الحجيج إلى حكومة الرئيس الأفغاني المخلوع برهان الدين رباني في حال لم تسلمني إليها ، وهي قضية حساسة وسط الأفغان كونها تمثل الشرعية الشعبية التي تستند إليها الحكومات في أفغانستان ، ولكن



مع هذا رفض الطالبان ذلك ، ومن باب أولى يرفضون الضغوط الأميركية ، لقد كان هذا التهديد من أخطر ما واجهه الطالبان كونه سينزع الكثير من شرعيتهم أمام البسطاء من الأفغان . "

كان الوفد السعودي برئاسة الأمير تركي قد وصل على متن طائرة سعودية إلى قندهار ، إذ كانت تتوقع أن تقوم طالبان بتسليمها أسامة بن لادن كما وعدتها ، وهو ما أكده الأمير تركي لاحقاً ، غير أن طالبان شددت غير مرة على أنها لن تقدم على تسليم أسامة بن لادن ، وإنما تدعو إلى محاكمة إسلامية أو تشكيل لجنة من علماء ثلاث دول هي أفغانستان والسعودية ودولة ثالثة ليصدروا حكمهم بحقه ، وفيما إذا كان مداناً أم لا ؟!

## ابن لادن يندم على إعلان الجبهة العالمية :

الجبهة العالمية لقتال اليهود والنصارى والتي كانت بضع تنظيمات عربية وباكستانية وبنغالية أعلنت عنها في

مايو " أيار " من العام 1998 في مؤتمر صحفي عقد في خوست شرقي أفغانستان ، بدا لي من لقائي من ابن لادن الذي تطرق إليها أنها غدت عبئاً عليه وعلى من معه ، وهو ما اعترف لي به لي أبو حفص المصري ، وقال ابن لادن بلهجة المتأثر والنادم على إعلانها : " لقد ظننا أنها ستكون نواة للعمل الجهادي العالمي ضد اليهود والنصارى وخصوصاً الأميركيين ، وستدفع حركات وجماعات وأفراد مسلمين إلى الالتحاق بهذه الحركة ، ولكن يبدو أننا بالغنا في قدراتها وإمكاناتها ، وكان من الأفضل عدم الإعلان عنها ، ولكن هذا ما حصل . "

ويستدرك ابن لادن فيقول لكن : " بعد إعلان الجبهة جاءنا الكثير من الشباب بهدف التدريب ، وخرج هؤلاء الشباب عن مشايخهم في الخليج العربي ، وبعد أن كان هؤلاء التلاميذ يرتبطون بشكل عضوي مع مشايخهم في الماضي بدؤوا يرون أن التعلم وحده لا يكفي ، ولا بد من الإعداد ، ويشير ابن لادن إلى الشباب الذي بدا في العشرينيات وهو يرغب بالمجيء إلى أفغانستان دون أن تؤثر فيه الدعاية الإعلامية الغربية السيئة ضد المجاهدين الأفغان واقتالهم الداخلي ، وهو أمر بنظري يقلق الغرب والأميركيين ، الذي يراهم

وهم يدعمون حكومات ديكتاتورية تجثم على صدور شعوبها لعقود بل وتورث أبنائها وأحفادها مقاليد الحكم " .

ويعزو ابن لادن سبب تمرد هؤلاء الشباب على مشايخهم خصوصاً و أن الطلبة أو المريدين في المنطقة الخليجية متأثرين جداً بمشايخهم ، ومطيعين لهم إلى إدراك " هؤلاء الطلبة أن المشايخ ليس لديهم برنامج ولا مشروع تحرك ضد ما تتعرض إليه الأمة الإسلامية ، والتي تذبج الأمة الإسلامية بشكل يومي ، ولا جواب لدى هؤلاء العلماء إلا الحولة والحويلة " أي لا حول ولا قوة إلا بالله ، بينما الجهاد الآن من أكد فروض الأعيان ولا أحد يستطيع أن يقول غير هذا . "

كان المؤتمر الصحافي الذي عقده الجبهة في خوست قد دعت إليه عدداً من الصحافيين الباكستانيين والأجانب من أجل تغطية وقائعه ، لإيصال وجهة نظرها إلى العالم الإسلامي تحديداً ، إذ أن الحركات الجهادية ربما غير معنية كثيراً بإيصال رسالتها إلى الغرب ، وهي التي تقاتله بالنار كما يقاتلها بالنار ، عملاً بالمثل .

ويستذكر أسامة كرم الأفغان حال وصوله إلى أفغانستان ثانية ، وخصوصاً الشيخ يونس خالص ، ومساواة الأفغان العرب بالأفغان أنفسهم ، بعد أن عشنا في بلادهم لعقدين من الزمن فيقول أسامة : " ذهبت إلى الشيخ يونس خالص أطلب منه السماح لنا بعقد مؤتمر صحافي في خوست لإعلان بعض الأمور ، فرد علي ولماذا تستأذني ، فهذا حقكم . "

ويستذكر ابن لادن ردود الفعل في الصف الإسلامي بعد الإعلان عن المنشور الأول والذي صدر في أغسطس " آب " من العام 1996 ، ومما جاء فيه على ما أذكر " أن جدران الظلم والإذلال لا يمكن تحطيمها بدون وابل من الطلقات والقذائف . " فيقول في خلال تلك الجلسة : " فاجأ ذلك الكثير من إخواننا واستغربوا لمواقفنا ، وربما فكروا أن إعلاننا هذا ضرباً من الجنون ، ولكن الحقيقة أن القوات الأميركية ينبغي أن ترحل من جزيرة العرب ، وهي وصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد بمقدوره أن يغير وصية وحديث نبي عليه أفضل الصلاة والسلام . "

ويتابع ابن لادن فيقول : " لقد انتقدنا كثير من الأخوة على البيان الأول الذي أعلننا فيه الجهاد ، وبدؤوا يقولون بعد

اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية أين أنتم مما يجري في العالم الإسلامي وفي فلسطين تحديداً ، فسهل الله عملية عدن التي حطمت كبرياء العسكرية الأميركية وأغرقتها في البحر ، لكن سعى الأميركيون إلى سحب هذه الكبرياء لئلا يتحدث التاريخ أن كبريائهم غرق هناك ، وتبقى أثاره إلى الأجيال المقبلة لتحكي لهم قصة إمكانية مقاومة هؤلاء المتغطرسين والمتكبرين في هذه الأرض ."

وحرص ابن لادن في خلال الحوار على التأكيد على أن دوره ينحصر في " التحريض واستنهاض همم الأمة المختزنة ، والتي هي بحاجة إلى من يفجرها ، ويحدو لها طوال مسيرتها الظافرة إن شاء الله ."

لم يخف ابن لادن في هذا السياق الحديث عن تقصير الحركات الجهادية و المسلحة منها في " جسر الهوة مع المثقفين وأساتذة الجامعات وتوضيح رؤيتها للأحداث و للمستقبل لهذه الشريحة المهمة من الشارع العربي والإسلامي ، وهي التي تعمل على تشكيل وصوغ رأي الكثير من العامة و الخاصة ."

في هذا الوقت كان أبو حفص المصري ينظر إلي وإلى زعيمه أسامة وكأنه يستسمحه في الحديث ، فصمت الأخير ليعطيه الحديث وقال حينها أبو حفص : " نحن نحاول من طرفنا رغم عزلتنا عن العالم وعدم الاحتكاك معه إلى التواصل مع الإعلام العربي و الإسلامي ، ولكن للأسف كما تعرفون فإن الأخوة الطلبة فرضوا علينا بعض القيود حرمتنا من نعمة التواصل هذه ، ولكن ندرك أهمية ذلك وسنعمل كل ما بوسعنا لتوضيح وجهة نظرنا والاستفادة من آراء ونظرات وتجارب الآخرين . "

## حادث تفجير الفندق اليمني :

يحرص أسامة بن لادن والمقربون منه خصوصاً مثل أبي حفص المصري على التحدث بفخر واعتزاز على " تجربة المجاهدين العرب في الصومال ، وكيف لعبت الدور الأساسي في إرغام القوات الأميركية على الرحيل منها " ، ويتمنون كما قال أن تكون نهاية القوات الأميركية في

أفغانستان كحالها في الصومال ، وهو ما سيسبب وضع نهاية للخطرسة والهيمنة الأميركية على العالم .

كان أحد الأفغان العرب قد روى لي قصة منام يتداوله الأفغان العرب لأبي حفص المصري ، وفحواه أنه رأى في منامه مرة أن بعض مساعديه يسرعون إلى غرفته ويخبروه أن رئيس الوزراء الصهيوني أرييل شارون يريد مقابلته ومفاوضته ، في جو يشير إلى أن وضع الكيان الصهيوني في مأزق وأن المنتصر هي القاعدة ، ولكن أبو حفص كما يقول لقد ترددت كثيراً كيف ألتقي بشارون وأصافحه ، ومثل هذا المنام الذي كان أفراد القاعدة يتداولونه كان يمنحهم الكثير من الدعم المعنوي في إمكان الانتصار والفوز ، ومعروف أن قصة المنامات والأحلام تلعب دوراً مهماً في عقلية المسلمين والشرقيين بشكل عام ، خصوصاً وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث بما معناه : " الرؤيا الصالحة جزء من واحد وأربعين جزءاً من النبوة . "

وأعود إلى الحديث عن واقعة تفجير الفندق اليمني الذي كانت تتواجد فيه قوات أميركية ، تحدث ابن لادن بشيء من الفخر والاعتزاز فقال : " تنامى إلى سمعي أن أحد

المسؤولين في اليمن دعا إلى اجتماع لعدد من العلماء وقادة الحركات الإسلامية ، وسألهم عن حادثة تفجير الفندق ، فاستهجن الجميع العمل ودانوه ، فما كان من المسؤول اليمني إلا أن قال : ولكن الواقع ليس كذلك ، إذ لولا هذا الهجوم لكانت القوات الأميركية في شوارع اليمن واتخذت لها مراكز في البلاد ، وربما طال الأمر وتطور إلى إقامة دائمة ، لقد اتصل الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور بطرس بطرس غالي بالرئيس علي عبد الله صالح وأبلغه أن طائرات أميركية وعليها علم الأمم المتحدة ستصل بعد ثلاث ساعات إلى اليمن ، فهي في طريقها إليكم ، وهي تقل قوات أميركية وستتخذ من اليمن قاعدة خلفية لعملية إعادة الأمل التي يعتزم الأميركيون تنفيذها في الصومال فوافق الرئيس الذي لم يكن أمامه خيار آخر ، ولو لم تحصل هذه العملية في بلادنا التي أرغمت السلطات الأميركية على تعديل سياستها ومواقفها وتقرر الرحيل من اليمن لبقوا هنا ربما إلى ما لانهاية ، فهذه العملية هي التي أرغمتهم على الانسحاب من اليمن ."



## هل هناك تنظيم باسم القاعدة ؟

هذا التساؤل الذي وضعته عنواناً هو كان ما يشير شهيتي الصحافية ، فقد غطيت الأحداث الأفغانية في عزها أيام الجهاد الأفغاني ، ولم أعر على ما يؤكد أو يشير إلى ذلك ، حيث كان كل الأفغان العرب منضوين تحت راية مكتب الخدمات الذي أسسه الشيخ الفلسطيني الأصل الدكتور عبد الله عزام في تشرين أول من العام 1984 ، وكان قد قتل مع ولديه محمد وإبراهيم في تفجير سيارته عن بعد أثناء توجهه إلى مسجد يتبع للمجاهدين العرب في بيشاور بتاريخ 24 نوفمبر " تشرين ثاني من العام 1989 ، ولعب أسامة بن لادن في تلك الفترة دور الممول للمكتب ، وإن كانت تبرعات ابن لادن حسب من يعرفه سبقت تأسيس المكتب حين كان يقدمها للمجاهدين الأفغان من خلال الجماعة الإسلامية الباكستانية التي كان على رأسها آنذاك أبو الأعلى المودودي ، و بقي يتردد على المنصورة ذلك الحي الخاص بأفراد الجماعة الإسلامية الباكستانية في لاهور حتى بعد وفاة المودودي .

و في شهر مارس " آذار " من العام 1986 قرر أبو عبد الله كما يطلق عليه أتباعه التفرغ لأفغانستان والجهاد ضد القوات السوفيتية ، إذ كان حتى ذلك الوقت يقوم بالصراف على بيت الخدمات الذي كانت ميزانية نفقاته السنوية حسب شهادة عزام نفسه ثلاثمائة ألف دولار أميركي يدفعها جميعها أسامة بن لادن .

و يرى الذين عايشوا تلك المرحلة أن الفرق بين عزام و ابن لادن هو إصرار الأخير على سياسة التمركز بحيث يجمع العرب في مكان تدريبهم ، و يعدهم ليكونوا كتيبة جهادية جاهزة ، أما الشيخ عبد الله عزام فكانت سياسته الانتشار ، و لعل هذا ما أوضحه الشيخ تميم العدناني الذي كان نائباً لعزام حين قال : " كنت أنا و الشيخ عبد الله نرى أن يكون تجميع الشباب مباشرة مع الأفغان و في خدمة الأفغان ، و لعل أبا عبد الله رأى أن القضية الأفغانية تفيدها في التدريب أكثر مما قد نفيدها نحن الأفراد ، فكأنه يريد أن يجعلنا نستفيد من الجهاد أكثر مما نفيده نحن ، و نحن نريد إفادة الجهاد أكثر من الإستفادة منه ، فهو خلاف شعرة بسيطة بالمفهوم . "

لكن نتيجة تحليل الشيخ تميم لم تكن صائبة تماماً بقدر تحليله الذي أكدته الأحداث لاحقاً ، فهذا الفرق لم يكن كشعرة معاوية ، بل كان كما أثبتت الأحداث أنه فرق كبير في الرؤية ، و النظرة الاستراتيجية ، و لعل تخرج أسامة بن لادن من كلية الإدارة و الاقتصاد من جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية انعكس على تفكيره كعادة كل التخصصات التي تلعب دوراً في صوغ سياسات و أفكار الناس .

و بناءً على هذه الخلفية افترق أسامة عن عزام في العام 1987 ، و قام بتأسيس معسكرات للتدريب و بيوت ضيافة خاصة به ، و حتى أنه قسم بيوت الضيافة إلى السعوديين و الشوام و نحوهم .

و يؤكد شهود تلك المرحلة أن المأسدة و القاعدة لم تكونا أبداً تنظيمياً سياسياً بقدر ما كانتا تسمية عسكرية للعمل إلى جانب الأفغان لكن مع التميز ، كون خلفيات العرب التي قدموا منها لا يتناسب طعامها و شرابها مع شظف العيش الذي اعتاد عليه الأفغان ، إضافة إلى اختلاف نفسيات الشعوب .

بدأت بهذه الخلفية لتوضيح الأمور أكثر للقارئ الذي لم يشهد أغلبه تلك المرحلة من تاريخ الحركات الإسلامية المسلحة ، وهنا أصل إلى مربط الفرس والشاهد من الكلام وهو قول أسامة بن لادن في لقائي معه في كابول : " لم يكن هناك أي تنظيم باسم القاعدة ، وإنما المسألة لا تتعدى تسمية بعيدة عن الأغراض السياسية ، فهناك الكثير من الشباب العربي الذي جاء وقاتل مع القاعدة ، لكن هل يعني هذا أنه يجب ملاحقته ، رغم أن فترة بقائه معنا لم تتعد الأسابيع القليلة المعدودة؟! "

وكان ممن حول أسامة في ذلك اللقاء قد أكدوا لي أن الاستراتيجية الغربية تريد حصر الشباب في تنظيم لتصفيته دون أي رد فعل شعبي أو إسلامي ، وهو ما دفعهم إلى إعلان اسم القاعدة ، ولكن الأحداث التي أتت بعد ذلك ربما تنبئ غير هذا ، أو ربما ابن لادن أثر عدم الإعلان عن اسم التنظيم تفادياً لضربه وتصفيته ، وإن كان مجرد إعلانه الجبهة العالمية لقتال اليهود والنصارى مؤشر على نيته العمل الحزبي أو الجبهوي ، وهو ربما ما تأثر به من العمل الإسلامي في السودان والجزائر ، وذلك لتحاشي صيغ العمل الحزبي بطرف معين ومدرسة فكرية واحدة ، وإنما

كان الهدف من تسمية الجبهة هو توحيد العمل واستيعاب الجميع فيها ، ولكن ما حصل في العام 2001 من تشكيل قاعدة الجهاد والتي ضمت حركة القاعدة برئاسته والجهاد المصرية بزعامة أيمن الظواهري توحى بأن التسمية قديمة وإن كان البعض من الأتباع يرى أنه أراد الاستفادة من ذلك الاسم الذي اكتسب شعبية وسمعة إعلامية يصعب أن يشق أي اسم مثل تلك الشهرة بعد السمعة والشهرة الإعلامية التي حظي بها .

كانت نواة القاعدة حسب ما فهمت من الملتصقين بأسامة حين تم إنشاء المأسدة التي تحولت إلى القاعدة لاحقاً قد شرعت في معارك جاجي الشهيرة التي خاضها أفراد أبو عبد الله في رمضان من العام 1987 ، و التي قيل بأنها معارك مهدت الطريق للانسحاب السوفيتي من أفغانستان ، و الذي بدأت طلائعه في فبراير " شباط " من العام 1989 ، و قد أبلى العرب في معركة جاجي هذه بلاءً حسناً ، حتى نقل عن الزعيمين الأفغانين حينها عبد رب الرسول سياف و قلب الدين حكمتيار بأن العرب كانوا طوال الفترة الماضية ضيوفنا ، أما الآن فنحن ضيوفهم ، كدليل على بلاء العرب في تلك المعركة ، و التي شاركت

فيها قوات " السبيتناز " السوفياتية وهي قوات كوماندوز روسية خاصة ، وهي أول مشاركة لها في أفغانستان منذ بدء الغزو السوفييتي في العام 1979 .

و تعزو أوساط عربية مطلعة عاصرت تلك المرحلة أن تطورات مهمة جرت في خلال تلك الفترة دفعت بأسامة إلى واجهة العمل الإسلامي في المنطقة تمثلت برحيل البديل الوحيد لقيادة الأفغان العرب تميم العدناني مدير مكتب الخدمات ، والذي توفي في يوليو " حزيران " من العام 1988 بسبب المرض الذي ألم به في أميركا ، حيث كان نائب الشيخ عزام ، ولحق به الشيخ الفلسطيني عبد الله عزام مع نجليه في انفجار سيارته كما أسلفت بعد عام تقريباً ، و جاء مقتل ضياء الحق قبله بشهرين إضافة إلى الانسحاب السوفييتي من أفغانستان ربما ليدفع ذلك كله أسامة بن لادن إلى الصفوف الأمامية لقيادة الأفغان العرب ، و ليكون القائد البديل عن كل القيادات التي قضت نحبها ، غير أن ابن لادن لم يطرح نفسه بديلاً ، وهو الذي يدرك حتى ذلك الوقت حساسية بعض المقاتلين العرب من قيادة سعودي لهم ، وانكفاً على نفسه مع أتباعه الذين كانوا حلقتهم الضيقة ، ونأى بنفسه عن كل المهاترات

والخلافات على المكتب وأموره وإدارته ، وكان قراراً أثبتت صحته ودقته الأحداث لاحقاً بعد أن فرط عقد المكتب بسبب المشاحنات والخلافات التي دارت بين الخلف ، مثل هذا الواقع الذي أنتج حالة من الضياع للأفغان العرب في أفغانستان وباكستان دفع بأسامة بن لادن طائعاً مختاراً ومقبولاً من الجميع إلى أن يكون قائد السفينة ، فلم يعد في إمكان هؤلاء الأفغان العرب من العودة إلى بلادهم ، وفضلوا الاستمرار في قتالهم من أجل تفتيت أميركا على غرار ما فعلوه ضد الاتحاد السوفيتي ، هكذا كانت تردد أوساطهم ، ونقل عن الكثير منهم الذين التقيتهم في أفغانستان : " إن كنا مزقنا الاتحاد السوفيتي فلماذا لا نقدر على ذلك مع أميركا " ، وعزز ذلك كله الانحياز الغربي الواضح ضد الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر ، والتي سعى الكل للحؤول دون وصولها إلى السلطة ، وتصوير هؤلاء الأفغان العرب وكأنهم فيروس الشر في العالم كله ، وهو ما أفقد هؤلاء الأمل في إمكان تغير سياسي في العالم العربي الذي يرون حكوماته الديكتاتورية مدعومة من قبل الغرب الداعي إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وعززت نظرة هؤلاء في مقاومة أميركا وقتالها تصريحات

ابن لادن الذي قال بأن مهمة تفتيت أميركا أسهل من تفتيت الاتحاد السوفيتي ، ولعل الثقة بالنفس التي ورثها المقاتلون العرب من الحرب الأفغانية أخطر تركة لأميركا والقوى الغربية بشكل عام ، وهي مصدر قوتهم وقوة تنظيم القاعدة حتى الآن .

## ابن لادن والظواهري والجماعة الإسلامية والعدو الأقرب :

المضلع الثلاثي الذي شكله أسامة بن لادن وأيمن الظواهري ورفاعي طه من الجماعة الإسلامية غير مرة أمام الإعلام واللقاءات التي جمعتهم في بيوت كابول وقندهار تثير شهية أي صحافي لمعرفة كنه هذه العلاقة ، وفيما إذا كانت متينة كما تظهر أمام عدسات التلفزيون أم أن تحت الأكمة الكثير من الأسرار والألغاز ؟ وهل كل طرف يعمل لمصلحته ومصلحة جماعته التي قد تتعارض مع مصلحة الآخرين ؟ وقد لا يبدو أن ابن لادن حرص على عدم إظهار أي نوع من الخلاف بين هذا الثلاثي ، وإن كنا لم



نلمسه في تلك الزيارات القصيرة ، فابن لادن يدرك أن نقل فيروس الخلاف والشقاق إلى القاعدة ما سيعطي انطباعاً سيئاً عليه وعلى جماعته ، وقد ينزع ثقة الشعوب العربية التي ملّت وسئمت كثرة تشرذم العالم الإسلامي و تفرق الحركات الإسلامية وغير الإسلامية ، حتى أن وباء وداء النزاع والشقاق غدا هو ما يميز العالم الإسلامي وهي الماركة المسجلة له ، ورغم تلميح أسامة بن لادن إلى وجود خلاف في الرؤية بينه وبين الظواهري إلا أنه كما يحلو لأتباع أسامة والظواهري وطه أن يصوروه بأنه " خلاف تنوع " كما ينعته علماء أصول الفقه الإسلامي ، ومما قاله ابن لادن في هذا السياق : " إن بعض الأخوة - مشيراً على ما يبدو للظواهري إذ أنه كان من المؤمنين بذلك - كانوا يؤكدون على ضرورة قتال العدو الأقرب الممثل بالأنظمة الحاكمة عملاً بقوله تعالى : " قاتلوا الذين يلونكم من الكفار " ولكن العدو الأبعد أصبح قريباً منا ، حيث تواجد على أرضنا ، وهو عدو مشترك مجمع على جواز قتاله ، كما أنه الآن بيننا جميعاً ، ولذا فقتاله من أوجب الواجبات والفروض العينية . "

الجماعة الإسلامية المصرية رغم بقائها بشكل علني أبعد عن القاعدة ، إلا أن شبابها كما تردد هم الذين شاركوا في العمليات التي نفذت في تنزانيا وكينيا ، إذ أشيع بأن المنفذ للعملية لا يتعدى العشرين عاماً من عمره ، و كان من الجماعة الإسلامية المصرية بزعامة الدكتور عمر عبد الرحمن المسجون حتى الآن في الولايات المتحدة الأميركية .

ويقول أحد الشباب المصري الذي كان في أفغانستان بأن الجماعة الإسلامية التي ينحدر شبابها من الريف بشكل عام والصعيد بشكل خاص أقرب إلى الفطرة و الثقة بالآخرين ، والاستعداد للتعاون معهم ، وربما عمليين أكثر من أهل المدن الذين قد يطغى عليهم التنظير وفلسفة الأمور ، وربما هذا ما عزز العلاقة بين أسامة بن لادن والجماعة الإسلامية ، وإن كان تسليم السلطات السورية للشيخ رفاعي طه إلى السلطات المصرية ربما يلحق الكثير من الضرر في هذه العلاقة . وقد لمست من الشباب العربي الموجود في أفغانستان خلال تلك الزيارة أن الكل سئم من هذه الحياة وبتغي الدار الآخرة كما يقولون ، حتى قال لي أحدهم وما زالت عباراته ترن في أذني : " لقد عشنا في

هذه الحياة أكثر مما كنا نتوقع ؛ فقد قدمنا إلى الجهاد وأعمارنا لا تتعدى العشرين عاماً ، وقاربت أعمارنا الآن الأربعين عاماً ، ونحن الآن نستبطئ الشهادة ، ونخشى أن يكون الله تعالى غير راض عنا حتى أخذ إخواننا لنا وتركنا نحن ."

## ابن لادن وعبد الله أنس وحلقاته في الشرق الأوسط :

شكل وما يزال يشكل الوجود العربي في باكستان أحجية للكثيرين خصوصاً الذين لم يعيشوا تلك الفترة ، ولم يشاركوا أو لم يقرؤوا عنها ، وقرأ الكثير منهم عنها بعيون غريبة وليست بعيون القوم الذين شاركوا فيها وكانوا شهوداً عليها ، وتباينت آراء معظم المتابعين لهذا الوجود في كيفية حشده ، وأهدافه ، والجهات التي وقفت خلفه ، فخصوم وأعداء هذا التواجد يعززون كل شيء إلى القوة الأميركية ، ويصورون ذلك على أنها على كل شيء قديرة ، وأن هذا التواجد لم يكن إلا بإشارتها ، وكأن الأفغان العرب

عبارة عن جيش مرتزقة تبحث عن الكرين كارد ، كما وصفهم حسنين هيكل في مقاله الذي نشره في وجهات نظر ، ونشرته السفير اللبنانية بتاريخ : 2 - 2 - 2002 ، بينما الواقع والحقيقة يجافيان ذلك ، فهل من يقدم روحه رخيصة في سبيل ما يعتقد به يبحث عن الكرين كارد !!؟ ، وماذا يفعل من يقتل بالكرين كارت بعد موته !!؟ ، وحسب معاينتي للساحة فإنها شهدت الصالح والطلالح ، واحتوت في عزّ الجهاد كل مكاتب أجهزة الاستخبارات العالمية ، ولكن بكل تأكيد فإن الشباب القادم إلى الجهاد بشكل عام لم يكن حافزه أو دافعه الولايات المتحدة الأميركية ، أو أي استخبارات عالمية أخرى باستثناء الذين جاءوا لصالح هذه الأجهزة وبإشارة منها ، وبهدف تجسسي محض ، وإنما كل دافعه هو المشاركة في الجهاد الأفغاني الذي أفتى كثير إن لم أقل كل علماء العالم الإسلامي بفرضه العيني أو الكفائي ، وشجع الجميع على هذه المشاركة ، ولعل الخلاف في الوجود العربي في باكستان وأفغانستان لم يبدأ إلا بعد سقوط النظام الشيوعي في أفغانستان في العام 1992 ، حينها استنفذت الدول أغراضها وهي التي كانت صامته لحاجة في نفس يعقوب أو في نفس ريغان أو

بوش ، واكتشفت هذه الدول فجأة ودون سابق إنذار أنها صممت على " فرانكشتاين " يهدد معاقبها بعد أن دعت هذه الحركات إلى دولة إسلامية في دولها ، وعزز من مصداقية طروحاتها هو الانقلاب الذي حصل على المسار الديمقراطي في الجزائر التي رأت فيه انسداد العمل السياسي والديمقراطي أمامها ، وأن التجربة الأفغانية قد تكون هي المفيدة والعملية مع دول وأنظمة ترفض أحداً أن يشاركها فضلاً أن يخلفها في هذا الحكم الذي تراه حقاً طبيعياً لها ولزبانيتها .

ولعلي هنا أشير إلى الكتاب التوثيقي الذي صدر عن الصحفي السوري باسل محمد تحت عنوان : " صفحات من تاريخ الأنصار العرب " ولكن للأسف لم يجد ذلك الانتشار الذي يستحقه كونه وثيقة سجلت من أفواه من عاصروا تلك الفترة ، وكثير منهم قضوا ، والبعض منهم بقوا أحياء ولكن ما يزالون فاعلين في القاعدة مثل أسامة بن لادن .

من هنا أستطيع أن أدلف إلى حوار مع الشيخ أسامة بن لادن الذي عبر عن عدم رضاه على الحلقات التي نشرتها الشرق الأوسط اللندنية على لسان عبد الله أنس صهر الشيخ عبد الله عزام ، والذي ذكر فيها الخلافات بين

الشخصين ، وتحدث أنس في الحلقات بلهجة فيها نوع من التهوين بأسامة بن لادن ، وإن كانت الحلقات ليست أمامي الآن لأستعيد ما ذكره بالضبط ، ولكن ما أذكره من كلام ابن لادن أنه عبر عن خيبة أمل من كلام عبد الله أنس ، وأن الوضع لم يكن بهذه الطريقة التي صورها أنس ، فقد أكد لي كثير من الأفغان العرب المرافقين لابن لادن الذين عاصروا تلك المرحلة أن العلاقة بين الشيخ عزام وابن لادن كانت قوية جداً ، حتى وإن اختلفت بعض وجهات النظر ، ولكن الاحترام والود هو الذي ساد العلاقة . ونقل لي أحدهم عن الشيخ عزام آخر شهادة في ابن لادن قوله : " لو كان هناك ولي لله في الأرض لكان أسامة بن لادن . " \_

## جواسيس في صفوف القاعدة :

رغم كل النجاح الذي أحرزته القاعدة في العمليات التي نسبت إليها إلا أنها تعرضت لبعض الاختراق ، وإن كان ليس على تلك الخطورة التي كشفت عملياتها أو

مخططاتها ، والدليل على ذلك العمليات التي نسبت إليها أو شبه تأكدت أنها هي التي قامت بها في أيلول ، فقد تحدثت إلى بعض الأفغان العرب الذين كانوا في كابول وقندهار والولايات الأفغانية الأخرى التي زرتها خلال تلك الفترة وكشفوا لي أن بعض الجواسيس تم التعرف عليهم في ظل التعاون والتنسيق بين خلايا الأفغان العرب في عدد من الدول وذكرت إلي هذه المصادر قصتين على الموضوع ، وسأضرب هنا صفحاً إذ لن أتطرق إلى الجواسيس الذين تم الكشف عنهم ، ونشرت أخبارهم في وسائل الإعلام حين عرضت حركة طالبان على تلفزيون أبو ظبي في العام 2000 بعض من هؤلاء الجواسيس ، فهنا سأحدث كما توافر لي من معلومات أفراد القاعدة عن هاتين الحادثتين واللتين لم يتم الكشف عنهما حتى الآن :

## جاسوس سوري :

ذكر لي أحد الأفغان العرب المقربين من أسامة بن لادن - على ما يبدو - حين كنا في كابول وذلك على هامش

اللقاء مع أسامة بأن أحد الشباب السوريين الذين جاءوا إلينا عن طريق إيران ، وعبر الحدود من هيرات إلى قندهار ، ومنها انتقل إلى معسكرات القاعدة في عدد من المناطق الأفغانية ، وتلقى تدريبات عدة على صنوف من الأسلحة والتمرينات ، وعلماً لاحقاً بعد عودته إلى سوريا أنه كشف كل ما تلقاه من تدريبات عسكرية ، وأساليب التدريب ، وكذلك الطرق التي استخدمها في الوصول إلى أفغانستان ، والمكاتب والبيوت الموجودة في الدول التي عبرها ، وهو ما أخرج جهات عدة لم يكن للمصدر أن يتحدث عنها بطبيعة الحال ، وحسب المصدر ذاته فإن الشخص الذي جاء به كان عراقياً كردياً ، عادة ما يتردد على سورية نظراً لعلاقة المصاهرة التي تربطه مع سيدة سورية ، ولكن يبدو أن هذا الجاسوس السوري لم يؤثر على القاعدة وتنظيمها ، وما كشفه أمور تتعلق بالدعم اللوجستي أكثر مما تتعلق بالخطط ، وحين سألت أسامة بن لادن عن ما يتردد عن وجود جواسيس وعملاء في صفوفهم وما تثار من تهم من قبل جماعته أو المؤيدين له ضد أشخاص ربما لا يتفقون معهم في الرؤية أو النظرة ، أجاب بكل هدوء وهو يحاول تذكر كل كلمة قد تحسب عليه أو له من هذا



الطرف أو ذاك فالكلمة لها مسارب ومسالك ستسلكها وربما تنال يميناً أو شمالاً ، وعليه أن يكون دقيقاً في الإجابة ، إذ أنه في بعض الحالات وربما في كلها يمشي على خيط دقيق مشدود للغاية هكذا تخيلته وهو يرد على سؤالي : " إذا كنت تظن بحياتي فكل ذلك بيد الله تعالى ، وأنا الآن لا أعتقد أنني شخص واحد ، فهناك ظاهرة اسمها الصحة الإسلامية ، ولن يطفى أحد نور الله الذي بدأ يسطع على العالم ، وقتل شخص لن يفيد أحداً ، إلا إذا كانت هذه الجهة أو تلك تظن أن العمل يمكن أن يشخصن في فرد واحد ، أما في العمل الإسلامي الذي هو لله والأجر يأتي في الدار الآخرة فلا يستطيع أحد أن يربطه أو يقرنه بشخص وفرد واحد ، وبعد هذا أقول بالنسبة للجواسيس الذين قد يكونون في المعسكرات وقدموا للتدريب ربما يكونون موجودين ، وهذا أمر طبيعي فكل من يعمل قد يتعرض إلى هذا ، فقد كان هناك منافقون في صفوف الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا يعني أن يوقف الرسول مسيرته ، ولكن ما أفعله إذا تريدني أن أقول لك بصراحة هو أن الشباب الذين يأتون للتدريب يكونون في البداية في دورات عامة للجميع ولا يعطون

شيئاً سوى التدريب العام ، ويزورهم بعد فترة طويلة الأخ أبو حفص ثم يرتب لي الأخوة زيارة إلى المعسكر بعد أن يصر المتدربون على رؤيتي ، وأذهب بشكل مفاجئ لفترة قصيرة ، ودون إخطار مسبق ، إذ أفاجئ الكل في الزيارة ، أملاً في أن تمنحهم رؤيتي كما يرون دفعة في التدريب والعمل ، هذا ما أفعله ."

## جواسيس من البدون :

ثمة قصة أخرى سمعتها في تلك الرحلة من عدد من الأفغان العرب تحكي قصة جاسوس آخر من فئة البدون ، قدم من دولة الإمارات العربية المتحدة حيث كان يقطن هناك ، ويبدو أن عملية تجنيده تمت في البعثة الأميركية في الإمارات ، وأرسل إلى بيشاور حيث اتصل مع القنصلية الأميركية في بيشاور ، وكان قد استقبله في مطار المدينة بعض الضباط الباكستانيين العاملين والمتعاونين مع الأميركيين ، والعهد على الأفغان العرب الذين نقلوا هذه الرواية عن هذا الشاب المجهول بالنسبة إلي ، إذ أنهم لم

يقدموا لي معلومات عن هويته بأكثر من هذا " شخص قدم من الإمارات ومن فئة البدون " ، وينقل عنه في خلال التحقيقات التي أجرتها معه حركة طالبان الأفغانية بعد أن دخل إلى أفغانستان بأنه تم تقديم النساء والخمرة له في القنصلية الأميركية في بيشاور ، وسلّم بعض المعدات لقتل وتصفية أسامة بن لادن ، وانقطع اتصاله مع القنصلية بعد وصوله إلى مدينة جلال آباد شرقي أفغانستان المعروفة بتمركز قوات الأفغان العرب فيها ، والتي دارت بالقرب منها في تلال طوره بوره معارك شهيرة بين الأفغان العرب والقوات الأميركية وحلفائها من القوات الأفغانية ، وغدت هذه المنطقة بعد تلك الواقعة من المعالم الإعلامية البارزة في أفغانستان من كثرة ما ردد الإعلام الدولي اسمها ، وحسب الأفغان العرب الذين روى هذه القصة التي تبقى مسئوليتها القانونية والتاريخية عليهم لصعوبة التحقق في قضايا جاسوسية كهذه ، فإن ثمة كوداً أو كلمة سر بين المجندين لصالح الأميركيين القادمين من خارج باكستان وبين الضباط الباكستانيين المتواجدين في مطار بيشاور ، وذلك من أجل استقبال الجواسيس وخدمتهم ومساعدتهم في تسهيل مهامهم

الموكلة إليهم داخل أفغانستان وتحديدأ ضد تنظيم القاعدة  
وزعيمه أسامة بن لادن .

## رؤيته في انتصار حزب الله اللبناني :

كان حديث الأفغان العرب الدارج في تلك الأيام هو  
الانتصار الذي حققه حزب الله في جنوب لبنان من طرده  
القوات " الإسرائيلية " رغم احتلال دام أكثر من 22 عاماً ،  
فالكثير من الأفغان العرب إن لم أقل الجميع يشعر  
بحساسية الموقف تجاه الشيعة الذين يشكلون حزب الله ،  
بخلاف ما يتردد في الإعلام الغربي عن وجود علاقة ما بين  
حزب الله والقاعدة أو الأفغان العرب ، ولذلك كان من  
اللافت والمهم بالنسبة إلي كصحافي أن أسمع أو أحاول  
جاهداً و بكل السبل والوسائل لمعرفة رأي أسامة بن لادن  
بحزب الله والانتصار الذي حققه ، وجاء الجواب حاسماً إذ  
كنت أعتقد أن المسألة تحتاج إلى مواقف سياسية  
وتوازنات محددة ، ربما تضليني وتهيل ضباباً على الجواب

الذي سيفقد حينها لونه وطعمه ورائحته ، وهنا أسطر ما قاله لي ابن لادن في هذا المجال رغم أن زعيم الحزب حسن نصر الله حين سأله المذيع فيصل القاسم في لقاء خاص من شهر شباط من العام 2002 في قناة الجزيرة تهزّب من السؤال ، ولم يشأ على ما يبدو أن يقدم رأياً فيه سوى قوله إن الناس قد اختلفوا في أسامة ، وأعود إلى ما قاله لي أسامة في ذلك المكان : " لقد تهيأت ظروف دولية وإقليمية ومحلية ساعدت على خروج اليهود من جنوب لبنان على يد حزب الله ، وللأسف لن يسمح بمثل هذه الظروف أن تتهيأ لحركة سنية ، لأن كثيراً من الدول والجهات لا تثق بالسنة وحركاتها ونشاطاتها . "

تذكرت حينها حديث جرى بيني وبين أحد الدبلوماسيين الفرنسيين المعنيين بالملف الأفغاني في إسلام آباد وقوله لي : " إن الحركات الشيعية يمكن السيطرة عليها من خلال دول ، وأما الحركات السنية المسلحة فحركات غير قابلة للسيطرة أو التحكم . " فهل كان مقصود أسامة من حديثه لي هو نفس ما عناه وقصده هذا الدبلوماسي الفرنسي؟! ترافق حديث أسامة بن لادن معي مع وصول بعض الأفغان العرب من الأكراد العراقيين وغيرهم من جنسيات أخرى

من إيران ، وظهر لي أنهم يستخدمون الخط الإيراني بعيداً عن الحدود الباكستانية التي شددت كثيراً على الأفغان العرب في الفترة الأخيرة ، والتي سبقت الهجمات الأميركية على أفغانستان وإسقاط حركة طالبان ، وسمعت همساً بين الأفغان العرب حينها في هذه الرحلة الطويلة و المضمّنة أن إيران لا يمكن لها تمنع في مرور هؤلاء العرب القادمين إلى أفغانستان ، وهي التي تنظر إلى أميركا كـ " شيطان أكبر " وفي حال أقدموا على اعتقال هؤلاء الشباب فسينظر إلى أنهم يعملون لمصلحة الأميركيين ، وهي ليست في مصلحتهم خصوصاً وأنهم يرغبون بأن يظهروا داخلياً و خارجياً على أنهم ليسوا متعاونين مع الأميركيين ضد حركات إسلامية سنية ، فإن كانت باكستان تفعل ذلك فهذا لا يبرر لإيران ، وهي التي ترفع الشعار الإسلامي المعادي للشيطان الأكبر .

في الحقيقة فتح لي كلام أسامة كوّة لا بأس بها في بحث أو معرفة أسباب انتصار الثورة الإيرانية وفشل الثورة الأفغانية أو إفشالها ، وأريد لها كذلك وبدون الغوص في كثير من التفاصيل المعقدة والمتشابكة أود أن أطرح نقطة ربما تعتبر مفتاحية في فهم هذا الواقع ، وهي أن الشيعة

على مر التاريخ الإسلامي لم يتحكموا فيه بشك كامل ، باستثناء فترة معينة ، ومكان معين ، والمتمثل بحكم الفاطميين ، رغم أنهم حين خرجوا من مصر بعد سنوات من حكمهم دون أن يتشيع أحد من أهل مصر ، وبالتالي فإن الغرب ربما ينظر إلى الشيعة على أنهم غير مؤهلين لقيادة العالم الإسلامي الغير مستعد في وعيه الجمعي لذلك ، سيما وهم الذين يشكلون أقلية من المسلمين ، بينما يشكل السنة الأغلبية الغالبة من المسلمين ، أضف إلى ذلك أن السنة حكموا العالم الإسلامي حتى سقوط الخلافة العثمانية في العام 1924 ، فإن كان يمكن حصر نفوذ وتأثير الحكومة الإيرانية في إيران وربما تداعيات الانتصار في بعض الجزر الإسلامية المنتشر فيها الشيعة ، فهذا الأمر لن يتحقق في حال وصول أي حركة سنية إلى الحكم ، والتي ستري نفسها الوريث الشرعي الوحيد للخلافة الإسلامية التي غابت طوال سنوات من الحكم ، وهكذا ستنظر إليها الحركات الإسلامية الأخرى ، وربما الشعوب المطالبة بوصول هذه الحركات إلى السلطة على أنها مأوى ومنقذ لهم كما حصل بعد وصول العثمانيين وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم كثير ، فقد حكم العالم

الإسلامي على مر حوالي أربعين عاماً من مكة المكرمة ، وأقل من مائة عام من دمشق ، وكذلك من بغداد واسطنبول ، ولم تكن هناك مشكلة حتى على التركي أن يحكم العربي أو غير العجمي بشكل عام ، بغض النظر عن بعض التجاوزات التي حصلت في السنوات الأخيرة لحكم العثمانيين ، وهي تعود إلى الأشخاص الذين وقعوا فيها ، وليس إلى الإيديولوجية الإسلامية التي لا ترفض أن يقاد العالم الإسلامي من غير العرب ، وإن كان الكثير من الفقهاء والعلماء يرون أن الأولوية للعرب في ذلك .

وقد ظهر صدق كلام أن أي حركة سنية قد تكون بؤرة لتجمع أتباعها في كل الأرض ، بغض النظر عن قوتها وسطوتها في حكم طالبان وقبلها في فصائل المجاهدين الأفغان ، حيث استقطبوا كل الشباب من العالم العربي والإسلامي الذي كان يتصرف في أفغانستان وكأنها دولة له ، وهو ما يعني أن النظرية القومية لم تترسخ بما فيه الكفاية حتى الآن ، بمعنى أنها لم تحل محل النظرية الإسلامية التي حكمت المسلمين منذ ظهور الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وحتى سقوط الخلافة وبروز



الدويلات القومية على أساس القومية والعرقية وليس على أساس الإسلام .

## لماذا الشارع الباكستاني صامت تجاه الانتفاضة ؟

كانت أحداث الانتفاضة الفلسطينية حينها تخيم وتلقي بظلالها على معظم وسائل الإعلام العربية والدولية ، فمن باب أولى على الأفغان العرب الذي يتعطشون للعودة إلى فلسطين من أجل القتال كما عبروا لي في أحاديثهم المتفرقة ، وكان حال الوسط الأفغاني العربي في تلك المنطقة التي تترعب على "سقف العالم " كما وصفها الرحالة قديماً كولومبوس يتشوق للعودة إلى فلسطين من أجل المشاركة في " شرف الجهاد على أرض الإسراء والمعراج " كما تحلو لأديبات الإسلاميين المتواجدين في أفغانستان الإطلاق عليها ، ولذا فمثل هذا الجو المشحون بالحماس ، والمعادي لكل ما هو يهودي وأميركي مولعاً بسماع كل شاردة وواردة عن هذه

الانتفاضة التي أحيت الموات من العالم الإسلامي حسب قول أحد الأفغان العرب لي في كابول .

في حديث أسامة في كابول المطول تعرض إلى الانتفاضة الفلسطينية التي حيا أطفالها الذين رفعوا رأس الأمة الإسلامية كما قال وعبر عن فرحته وسروره بما قدمه الشارع العربي والإسلامي من " تضامن وتظاهرات وحتى استعداد للقتال مع الفلسطينيين ، وإن كان الحائل الأساسي هو هذه الأنظمة التي تسهر على حماية الأميركيين واليهود " حسب قوله ، وبدا لي استغرابه من جمود وصمت الشارع الباكستاني كما قال لي ، فهل يمكن أن يصمت الشارع الباكستاني إلى هذا الحد؟! ويحجم عن المشاركة في مظاهرة واحدة مؤيدة للانتفاضة الفلسطينية في الوقت الذي كانت تتحرك المدن العربية والإسلامية على شكل كتل بشرية مؤيدة للانتفاضة الأقصى؟!!

وظهر أن أسامة حرص كثيراً على فهم أسباب وخلفيات ذلك ، وربما يكون هذا الموقف الباكستاني ضرب حسابات كبيرة لديه كان يبني عليها حسابات وحسابات ، حتى قرأت ما كتبه الكاتب الصحافي الباكستاني حامد مير والذي كان آخر صحافي يلتقي أسامة بن لادن حتى كتابة هذه السطور

وذلك خلال القصف الأميركي على أفغانستان ، يقول مير في سلسلة مقالات نشرها في صحيفته أوصاف الصادرة باللغة الأوردية الباكستانية المحلية : " حين سألني كل من ابن لادن والظواهري خلال ذلك اللقاء عن توقعاتي من الشارع الباكستاني أثناء الضربات الأميركية على أفغانستان ، أبلغتهما أنه لن يكون هناك كبير رد فعل سوى المظاهرات التي ترونها وتسمعون عنها ، فحينها رأيت تغيراً في وجهي كل من ابن لادن و الظواهري " ، والسؤال الذي يطرح نفسه هل خدعت أو ضخمت بعض القوى الإسلامية الباكستانية من قدراتها وغررت بابن لادن و الظواهري في أنهم قادرين على التحرك في باكستان ضد الحكومة أو ضد الوجود الأميركي؟!

ولذا حين توجه الآلاف من أتباع حركة تطبيق الشريعة الإسلامية بزعامة صوفي محمد من مناطق القبائل الباكستانية إلى داخل أفغانستان في الوقت الذي كانت فيه الطائرات والصواريخ الأميركية تواصل دكها للمدن الأفغانية والمواقع الطالبانية وتنظيم القاعدة أبلغني عدد من الأفغان الذين كانوا في منطقة جلال آباد شرقي أفغانستان أن المسؤولين الطالبانيين كانوا يقولون

لضيوفهم الباكستانيين : لماذا جئتم تقاتلون الأميركيين في أفغانستان؟! ولماذا لم تقاتلونهم في أرضكم بباكستان الذين يتواجدون في مطاراتها وقواعدها الجوية ، وتوفر لهم المنطلق والقواعد الخلفية واللوجستية؟! ولكن سؤالاً لم يكن يجيب عنه أحد من المتطوعين الباكستانيين .

ولكن بالمقابل يرى الكثير من الإسلاميين الباكستانيين الذين التقيتهم في أعقاب انهيار حركة طالبان أن المسؤولية تقع على عاتق الأخيرة ، فقد قدم الشارع الباكستاني بشكل عام والشارع الإسلامي بشكل خاص خدمات كبيرة لطالبان في مجالي البشر والمال والتحرك الجماهيري ، ولكن الحركة لم تثبت أمام القوات الأميركية ، ولم تبرهن على رغبتها في القتال ، وإلا فكيف يختفي رموز القاعدة المطلوبين دولياً ، ويستسلم قادة الحركة التي هددت وتوعدت بحرب عصابات وكان الجميع ينتظر تلك الحرب ، بل وتخلي الحركة مواقعها بشكل مفاجئ دون التنسيق حتى مع مضيفيهم من العرب وغير العرب ، وهو الأمر الذي أوقع الآلاف من الأنصار الباكستانيين وغير الباكستانيين في الأسر ، ما يزالون يدفعون ثمن تلك

الانسحابات الكيفية دون التشاور ، أو حتى إبلاغ أحد من الضيوف الذين ما يزالون يقبعون في سجون تحدثت عن ظروفها القاسية كل وسائل الإعلام ومنظمات حقوق الإنسان الدولية !!؟

## التجربة الصومالية تستحوذ على تفكير أسامة :

يحلو لأسامة بن لادن أن يتحدث بالاسهاب و التفصيل عن التجربة الصومالية ، وكم كنت أطمح إلى سماع تلك التجربة وهو الذي وعدني مرة أن نتحدث عنها بالتفصيل لنشرها في صحيفة " الحياة " اللندنية ، ولكن التطورات المتلاحقة والمتسارعة حالت - للأسف - دون تحقيق ذلك الطموح ، الذي طالما دفعني وأغراني في أن استكشف ذلك السر الغامض ، و التعرف إلى كيفية وصول الأفغان العرب إلى الصومال ، وعن طريق من وكيف جاءت تلك الفكرة ، ومن هو صاحبها ؟ فكلها أسئلة تغري أي صاحب تحقيق صحافي ، كان يحكي عن الصومال بكل فخر مشيداً

بما يصفهم بـ " الأخوة الذين مرغوا الكبرياء الأميركي بتراب الصومال الفقيرة ، وأسقطوا أسطورة الصقر الأسود الأميركي ، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره . " هكذا بدأ ابن لادن حديثه عن التجربة الصومالية التي بدا كما تراءى لي أنه معجب بها ، ويحلم بتطبيقها في مكان آخر من العالم الإسلامي ، وربما أفغانستان كانت في ذهنه المكان الأول والأكثر ترشيحاً ، فبنظرة أية هزة وضربة للقوات الأميركية ستدعوها إلى الانسحاب ، وسيدعو الكونغرس والإعلام الأميركي إلى الانسحاب ، فالعقلية الغربية بشكل عام والأميركية منها بشكل خاص عقلية مادية تعودت على الرفاهية السلم ، وغير مستعدين إلى تقديم قتلى وضحايا في بلد يحتاج عضو الكونغرس أو المسؤول الأميركي إلى ساعات حتى يشرح لدافع الضرائب العادي عن أهمية أفغانستان ، بل وشرح مكانها على الخريطة ، بخلاف ما كان عليه الأمر مع السوفييت في أفغانستان الذين ضحوا بالآلاف من قواتهم ووقتهم من أجل البقاء في أفغانستان ، ومع هذا فقد انهزموا ، وبالتالي فإن الجنود الأميركيين الذين لم يصمدوا لأشهر في الصومال تحت ضربات المجاهدين كما يقول ابن لادن

لا يمكن لهم أن يصمدوا في ظل الإعلام المفتوح الذي فتح المستور وكشف المخبوء ، وبالتالي فإن أي حادثة تتعرض لها القوات الأميركية ستكشف إعلامياً ، وسيحسب لها المسؤول الأميركي أو الغربي حساباً ، وهو المهووس بالعودة إلى السلطة في الانتخابات المقبلة وحسابات غربية عدة لا تتحمل كلمة الخسائر البشرية .

ومما قاله أسامة في تلك الجلسة : " ومما بلغني من إخواننا الذين شاركوا في قتال القوات الأميركية في الصومال أن الجندي الأميركي أجبن بكثير من الجندي السوفييتي الذين قاتلوه طوال سنوات الجهاد الأفغاني ، وعلى هذا فأرى هزيمتها ستكون أسهل بكثير من هزيمة الاتحاد السوفييتي . "

وكنت قد سمعت الكثير من الهمس في تلك الزيارة عن رغبة الكثير من الأفغان العرب لاستدراج الولايات المتحدة الأميركية إلى أفغانستان من أجل " تلقينها درساً صومالياً آخر خصوصاً و أن أفغانستان مقبرة الإمبراطوريات ، ففي القرن العشرين دفنت في رمالها الإمبراطورية البريطانية التي كانت لا تغرب عليها الشمس ، وكذلك الإمبراطورية السوفيتية أو إمبراطورية الشر كما كان يصفها الرئيس

الأميركي السابق رونالد ريغان . " وكانت البارونة البريطانية رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت ثاتشر في مقال لها نشرته في الغارديان أواسط فبراير " شباط " من العام 2002 عقدت فيه مقارنة بين الإسلام الأصولي و البلشفية الروسية ، ومما ذكرت فيه أن أفغانستان " أرض غدارة " ، وتأتي أهمية قول البارونة البريطانية هذا من تذوق إمبراطوريتها طعم الهزيمة في أفغانستان ، وخبرة البريطانيين المعروفة في تلك البقعة من الأرض التي تواجدوا فيها وحولها لسنوات طويلة .

وفي مقاله الذي نشر في الاندبندنت بتاريخ 27 - 3 - 2002 رأى الكاتب البريطاني روبرت فيسك أن أسامة بن لادن تمكن من جر الرئيس الأميركي جورج بوش إلى فخ نصبه له في أفغانستان .

ويبدو أنه في حال تواصل الحرج الأميركي في أفغانستان المتمثل في العجز عن

القضاء على القاعدة و طالبان ، خصوصاً إن نجح كل من القاعدة و طالبان في تطوير حرب عصابات ضد القوات



الأميركية في أفغانستان ، فإن ذلك سيخرج الكثير من الأنظمة العربية .

## كيف توصل أسامة مع العالم في ظل الحصار الطالباني ؟

كان هذا التساؤل من التساؤلات التي تثير فضولي كصحافي ، وأنا أتابع حديث ابن لادن في ذلك اللقاء الذي كم أندم على عدم تسجيله ، كونه وثيقة فكرية وسياسية مهمة باعتقادي في شخصية الرجل ، والذي كان يمكن أن يحل كثيراً من الألغاز في حياته لنا كصحافيين وبشكل عام للرأي العام الإسلامي وغير الإسلامي ، فحديث ابن لادن ذاك لا يمله صحافي ، أو متابع لشأن الحركات الإسلامية خصوصاً المسلحة منها ، فكيف تلك التي تقارع أميركا ، وأرغمت الأخيرة على تجيش أساطيلها ومن ورائه العالم كله ، وحشدت جميع طاقاتها وقدراتها وما في ترسانتها من أجل هزيمة هذا الشخص وتنظيمه .

بالطبع لم أكن أستطيع أن أسأل هذا السؤال بهذه  
الفظاظة والوضوح ، فأنا لا أسأل ذلك من أجل نشر مقابلة  
صحافية ، وإنما أسأل بقدر ما يسمح المقام والمقال ،  
والتقطت إشارة من ابن لادن حين ذكر لي بأن سجودي  
شكراً لله على تدمير المدرة كول بإمكانك نقلها عن مصادر  
مقربة من ابن لادن ، وفهمت حينها أن هذا أحد الطرق  
الملتوية التي استخدمها الرجل من أجل إيصال رسائله ،  
خصوصاً بعد أن تحدثت بعض المصادر عن دفعه لبعض  
الشيوخ والمصادر الإسلامية الباكستانية على القيام بهذا  
الدور ، الأمر الذي سيوفر عليه وعلى طالبان مسألة  
الضغوط الأميركية الممارسة على الحركة في حظر  
تحركات الرجل ، خصوصاً وأن الحركة تعاني من عقوبات  
اقتصادية .

كان ابن لادن راغباً جداً بدعوة صحافيين أفغان  
وباكستانيين وغيرهم من أجل توضيح مسألة الوجود  
الأميركي في المنطقة العربية ، وتحديد الموقف الشرعي  
من ذلك ، ومخاطره على الدول الإسلامية ، مع ما يترافق  
من نهب ثروات الشعوب الإسلامية ، وهو التاجر الذي كان  
يحرص على حساب ذلك كله بالدولار .

وبدا يحسب ابن لادن حساباً لم أسجله وكان الحساب بالدولار كيف أن مردود النفط العربي يدخل على كل مواطن مسلم كذا من الدولارات كل شهر وكل سنة ، ولكن الهدر والنهب هو الذي يبدد الثروات كما قال .

وتجلت مساعيه في الانقلاب والالتفاف على الحظر المفروض عليه طالبانياً من خلال تقديمه كتابين كما ذكرت ، إذ سعى ابن لادن من خلال هذه المقدمات إلى إيصال أفكاره وقناعاته لأتباعه أو العالم بشكل عام ، وفي نفس السياق استغل الحفلات والمناسبات والتلميحات من أجل البرهنة على أنه ما يزال موجوداً ويتحرك ، بل ويتواصل مع الشعوب والجماهير .

## قصة الحمام :

حصلت وأنا أستمع إلى حديث ابن لادن بشغف مطالباً بالمزيد لكن دون الإفصاح عن ذلك باللسان ، وإن كانت قسماً وجهي وإصغائي توحيان بذلك قصة طريفة ، ربما توحى وتكشف جانباً من شخصية بن لادن ، فقد

استأذنته بالخروج لقضاء الحاجة ، وذلك من الغرفة إلى الموزع أو الصالون الذي يضم الحمام ، ولكن وجدته مشغولاً ، فقد كان في داخله شخص آخر ، وكان ابن لادن الذي يجلس في صدر الغرفة مواجهاً للصالون يرى بعض من شباب الخليج العربي الجالسين مقابله والذين واصلوا حديثهم دون انقطاع ، كنا نسمع همهماتهم دون فهم شيء من الكلام ، نظر أسامة إليهم وأعطاهم إشارة توحى بأنه حين يفرغ الحمام أبلغونا حتى لا يقوم الضيف أكثر من مرة ، وربما يعثر على الحمام مشغولاً ، أوماً له من كان في الصالون بالموافقة والسمع والطاعة ، وناداني إلى الدخول وبالفعل ، وبينما كان هو يتحدث جاءت الإشارة ممن كان في الصالون حيث كان أسامة ينظر إلى الشباب ، لكن أنا كنت في مواجهة ابن لادن ، وبالتالي لا أراهم وكانت الإشارة بأن الحمام فارغ ، فنهضت وقضيت حاجتي وهي إشارة بقيت عالقة في ذهني حتى تذكرتها وأنا أكتب هذا الكتاب إذ كنت دونتها في دفتر الزيارة بعنوان قصة الحمام لعلي أكتبها يوماً ما .

## العلاقة مع الملا عمر :

يتحدث ابن لادن عن زعيم حركة طالبان الأفغانية الملا محمد عمر بكل فخر ويعتبره شخصية إسلامية فريدة في القوة و البأس والإصرار على الحق ، وكان يصر على إضافة صفة أمير المؤمنين مع ذكر اسمه ، وعلمت من الكثير من الأفغان العرب أنه كان يلتقي معه بشكل شبه دوري ، ويبدو أن أسامة بن لادن أثر كثيراً على شخصية الملا عمر الذي لم يكتب له أن خرج من أفغانستان وباكستان ، بينما كان ابن لادن الذي جاب العالم ورآه يستطيع أن يقدم الكثير من المشورة و والآراء للملا عمر .

كنت قد التقيت الملا عمر في العام 1995 في قندهار ، وذلك بعد لقاء لي اعتبر سبقاً صحافياً مهماً آنذاك مع أبي حمزة المصري المتهم الأول بمحاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في أثيوبيا ، إذ التقيته آنذاك في كونار شرقي أفغانستان ، ونشرت اللقاء المطول في جريدة الحياة ، وكذلك تم بث مقاطع منه في محطة إم بي سي اللندنية .

بدا لي الملا عمر الذي كان حديث عهد بالزعامة والسلطة بسيطاً للغاية ، ورجلاً عادياً ، ولا يفقه ربما حتى القليل مما يدور في العالم ، ولكن شخصيته القندهارية إذا جمعت مع بشتونيته المتشددة ، وبقائه في المدرسة الدينية التي تحصر طالبها بين أربعة جدران وعدم إطلاعه على العالم أو سفره إلى دول أخرى جعلت منه متشدداً من الطراز الأول ، خصوصاً وهو الذي قرأ الكتب القديمة التي تصور وتبرز إسلام صدر الصحابة بعيداً عن فهم فقه الواقع ، و المشكلات الجديدة التي تعترض العالم الإسلامي وما يتهدد العالم بشكل عام .

كان اللقاء في القصر الأبدالي بوسط قندهار ، حيث اعتاد أحمد شاه الأبدالي مؤسس الدولة الأفغانية في العام 1747 والذي يطلق عليه الأفغان " درة دوران " أي درة العصر ، ظننت أنني سألتقي شخصية مهابة وعظيمة ، وعلى مكتب فخم ، ففوجئت بأن رفيقي معصوم أفغاني الذي غدا مفتياً للحركة في قندهار ، وكذلك مدير مكتبه وكيل أحمد متوكل الذي غدا بعدها وزيراً للخارجية يقودانني إلى باحة القصر التي كساها التراب والغبار ، وتوقفا تحت شجرة تحكي قصة أفغانستان منذ أكثر من

قرن ، وربما غرسها أحمد شاه الأبدالي نفسه ، فرش معصوم أفغاني " الباتو الأفغاني " وهو رداء بطول مترين بعرض متر واحد ، وجلس بجانب شخص بعين واحدة ، كان هذا الشخص هو الملا محمد عمر الذي أطلق على نفسه لاحقاً : " خادم دين رسول الله أمير المؤمنين الملا محمد عمر مجاهد " . وإن كان التاريخ كتب أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني فقد عرشه من أجل فلسطين فسيكتب التاريخ - برأيي - أن ثمة شخص آخر في التاريخ فقد عرشه ومملكته من أجل حماية شخص واحد هو أسامة بن لادن .

ووقعت لي في تلك الزيارة قصة طريفة يحسن أن أذكرها باختصار ، وهو أن بعض الطيارين الروس والمتحدرين من الجمهوريات التي كانت تحت حكم الاتحاد السوفيتي قد أسرتهم حركة طالبان بينما كانوا ينقلون شحنة من الأسلحة بطائرتهم من أوكرانيا إلى قوات التحالف الشمالي ، وتمكنت الحركة من إرغام الطائرة على الهبوط وأسرتهم ، وطلبت في تلك الزيارة لقائهم ، وبالفعل تمكنت من اللقاء ولكن كان حولي اثنين من الحراس التابعين للطلبة ؛ فاستأذنتهم بتصوير الأسرى التسعة فرفضوا وقالوا لي : التصوير حرام ، فقلت لهم إن هؤلاء

كفار ، وما يضر التصوير بعد الكفر ، فردوا : عليك أن تستأذن الملا عمر أو وزير الخارجية في ذلك ، فطلبت من أحدهما أن يذهب ويستأذن لي ، وبقي واحد فقط ؛ فطلبت منه كوباً من الماء ، وذهب بالفعل لإحضار الماء ، فظللت وحدي ، وحينها اغتنمت الفرصة ، وبدأت ألتقط عدة صور ليأتي الذي توجه إلى الملا عمر ووزير الخارجية برفض الطلب ، أما الذي أحضر الماء فقد جاء بعد خراب البصرة أو بعد التصوير ، والمفاجأة أنه سألني هل صورتهم فقلت لا لم يحصل ذلك ، لأنشر الصورة بعد أيام في صحيفة الحياة اللندنية التي كنت أعمل فيها .-

## الصلاة في الصف الثاني :

كان وقت الظهر قد اقترب ، وما على الجميع إلا أن يتهيئوا للصلاة ، فنهض ابن لادن ونهضنا جميعاً لنستعد إلى صلاة الظهر ، وبدا لي أن أسامة ما يزال يحتفظ بوضوئه طوال فترة جلوسه التي دامت أكثر من ثلاثة ساعات ، وهي مؤشر على الصحة التي يتمتع بها ، إضافة إلى أنه لم



يقم إلى الحمام أبداً خلال جلسته الطويلة هذه ، وهو ما  
 يتقن لي حينها أن مسألة الحديث عن تدهور صحته بين  
 الفينة والأخرى ما هي إلا اختلاق ، ولها حسابات خارج  
 الحقيقة والواقع ، وبعد أن أدى ابن لادن ركعتي سنة صلاة  
 الظهر، كان شخص يبدو أنه سعودي هو الذي تقدم إلى  
 الإمامة التي يراها الإسلاميون أن الأحق بها هو القارئ  
 وحافظ القرآن والأعلم بدين الله ، وبالتالي فهناك من  
 يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، وهو ما لا يملكه أسامة بن  
 لادن ، ورغم إلحاح المصلين على أن يصلي ابن لادن في  
 الصف الأول فقد رفض وصلى في الصف الثاني ، باعتباره  
 قد جاء إلى الصلاة بعد أن كان الصف الأول قد امتلأ ، ولم  
 يعد له مكاناً فيه ، إلا إذا تخلف أحدهم ومنحه مكانه ، فكان  
 أن أدى ابن لادن صلاة السنة في الصف الثاني ، ولا شك  
 فإن رفضه أخذ مكان أحد في الصف الأول تواضع ، وهو ما  
 عززه روايات كثيرة حكاها لي الأفغان العرب آنذاك عن  
 تواضعة ، وحرصه على ألا يكون مميزاً عن أتباعه وناشطيه  
 الآخرين .

لمست من خلال الزيارتين اللتين قمت بهما إلى قندهار  
 وكابول ، والتقيت فيهما مع ابن لادن بأنه لا يحب التميز

عن رفاقه ، ويحرص على أن يكون كواحد منهم في الطعام واللباس ، ولذا لا تجدد فرقاً في اللباس بينه وبين الآخرين ، ولعل هذا محل إعجاب الأتباع به وثقته بهم كونه واحداً منهم .

## الغداء ذبيحة :

ما أن فرغ الجميع من صلاة الظهر حتى انتحى أسامة بن لادن بأبي حفص المصري في غرفة أخرى وجلسنا نحن في الصالون حتى تم تقديم الطعام الذي كان عبارة عن خروف نحره أفراد أسامة كدليل على كرم الضيافة كما حرصوا على القول لي بأن الشيخ أمر أن ينحر خروفاً للضيف ، وهو كرم عربي قديم بأن الضيف لا يشتري له اللحم من السوق ، وإنما ينحر له في البيت ، وهو ما يحرص أسامة على فعله مع كل ضيوفه وزواره ، بدأ فرش السفارة البلاستيكية على الأرض في الصالون لتتسع إلى كل الموجودين ، ثم تم فرش الخبز الأفغاني من قبل الخدم الأفغان الذي يتقن معظمهم اللغة العربية أو على الأقل

بإمكانهم أن يفهموا أو يتفاهم مع المقاتلين العرب ، وبعد قليل جيئ بالأرز المكلل باللحم والمرق ، وأذن أبو عبد الله " أسامة بن لادن " للحاضرين بالطعام ، فتقدم الجميع كأن على رؤوسهم الطير، وهم يأكلون وأسامة يسعى إلى توزيع بعض اللحم علي ، ويحرص على تفتيت وتقطيع اللحم بنفسه ، وهي إشارة عربية أخرى على كرم الضيافة ، وما أن لحظ أسامة أن الجميع قد فرغ من طعامه تأخر عن السفرة حامداً الله فرفعت السفرة وقدمت الفاكهة ، ثم تم تنظيف ما تبقى من طعام على السفرة لتوزع أكواب الشاي على الجميع ، وهي آخر ما يتم عرضه في هذا المجال ، ليستأذن أسامة من الحاضرين ويودعنا قائلاً لي : إلى لقاء آخر يمكن فيه نشر المقابلة ، وسريعاً لمحت العديد من الحراس الخليجيين وقد قفزوا من غرفهم وأماكنهم إلى قرب السيارة اللاندكروزر السوداء التي كانت بانتظاره حيث السائق في داخلها ، والحراس من حولها ، وركب أسامة ملوحاً بالسلام على الجميع ، وما أن خرجت السيارة من داخل البيت حتى رأيت بعض الجيران الأفغان ينظرون بفضول ، وكأنهم أحسوا أن شخصاً مهماً ، وربما تيقنوا أنه أسامة في هذا البيت ما دام العرب هم الذين

يقطنون فيه ، غاب أسامة وبدأنا نرتب عملية السفر إلى قندهار ، ومنها إلى باكستان ، وبدأت رحلة عذاب أخرى ستستغرق أكثر من 13 ساعة في طريق ربما من الظلم تسميته بطريق .

## العودة إلى قندهار :

قررت مع رفيق الدرب أبي عثمان المصري العودة إلى قندهار ، لكن في اليوم التالي إذ تأخر الوقت الآن ، وهو ما سيسمح لنا بالتجوال في شوارع كابول هذه الليلة لأستعيد فيها ذكريات ماضية ، إذ أنني لم أدخلها منذ العام 1997 ، ومشيت في شوارع مغبرة لم يغسلها لا البشر ولا المطر منذ فترة طويلة ، وبدت وجوه القوم شاحبة ، وعيونهم تراقب أي أجنبي ، بينما المتسولات في الشوارع منتشرات بشكل لافت في ظل أكل الحرب لأزواجهن ، فمن لم تقص عليه الحرب مع السوفييت ، أتت عليه الحروب الأهلية بين فصائل المجاهدين والأفغان أنفسهم ، والتي أكلت الأخضر واليابس .

لم تكن كابول هي نفسها التي سمعت عنها أو قرأت عنها قبل الحرب ، ولكن رغم توافر الأمن والاستقرار الذي شهد به الجميع يومها لحركة طالبان ، إلا أن الكل يجمع على أن عجلة التاريخ قد توقفت أو أوقفتها حركة طالبان ، فالأغنياء الأثرياء تركوا البلاد ، وكذلك المثقفون الذين هم بمثابة المحرك لعجلة الاقتصاد و السياسة والاجتماع والتعليم والحياة بشكل عام ، وهي المشكلة الأساسية التي تعانيها وتشكو منها كابول في تلك الأيام .

أمضينا ليلة كاملة في نفس البيت ، وتحركنا صباحاً إلى قندهار العاصمة الروحية لحركة طالبان ، كان الطريق موحشاً للغاية ، وما يزيد من وحشته أنك تسير الساعات لا ترى عوداً أخضر ، فالجفاف هو العنوان المتفق عليه في أفغانستان الحرب الأهلية ، توقفنا قليلاً في مدينة غزني وعلى الطريق الرئيسي تناولنا طعام الغداء ، واسترحنا قليلاً لنواصل المسير إلى قندهار لنصلها مساءً ، حيث أمضينا ليلتنا في أحد بيوت المقاتلين العرب حتى الصباح ، ونقضي ليلة وسط الأفغان العرب ساعياً ما سمحت به الظروف للتعرف على تفكيرهم وطموحاتهم في ظل هذه الأجواء الصعبة للغاية ، بعيداً عن الأهل والأوطان ، كان

الكل يتحدث عن تغيير البيوت ، وانهمك الجميع في تغيير بيوته ونقل متاعه من بيت إلى بيت آخر ، إذ أن الأجواء كانت تتوقع ضربة أميركية رداً على تدمير المدمرة الأميركية يو إس كول في عدن ، باعتبار أصابع الاتهام الأميركية توجهت على الفور لتنظيم القاعدة ، خصوصاً بعد عملية المdahمات والاعتقالات لأشخاص يمينيين يشتبه في علاقتهم بالحادث وتنظيم القاعدة ، مشفوعاً بتلميحات صدرت عن ابن لادن وأعوانه تشير إلى مسئوليتهم عنها .

كانت شوارع قندهار وكأنك تمشي في مدينة أثرية قديمة ، حيث لا حياة ولا حركة يؤمها السواح من أجل رؤية ومشاهدة الأطلال ، و يعود عمرها إلى آلاف السنين ، بينما كان مرور أي سيارة أو " طنبر " أو حتى دراجة سيرسل عاصفة غبارية تجعل السائق ينتظر حتى ينقشع الغبار ليواصل سيره ، وإن كان مجرد المشي على الرجلين كفيل لوحده بتغيير لباسك ، ولم تعد قندهار تلك المدينة التي كانت مشهورة بالرمان ، فقد تراجع طعم وشكل الرمان الذي كان سائداً وقت السلم ، إذ كان يصار إلى تصديره إلى الخليج ، وكذلك إلى الهند ، ولكن لم يعد هناك رمان يطعم أهله ووطنه فضلاً عن تصديره إلى الخارج .

كان من العادي والروتيني أن أرى الأفغان العرب في شوارع قندهار ، وكأنهم من أهل البلد نفسه ، ولعل ما يمايزهم فقط عن الأفغان الأصليين هو عدم إتقان البعض منهم للغة المحلية البشتو ، أما المشي واللباس والتحرك والحرية في التنقل كله يشير إلى أنهم غدوا أفغاناً ، وربما بشكل أدق أصبحوا قندهاريين التي تعد معقل وأبو أفغانستان البشتون .

لم أمس نفرة أفغانية تجاه العرب الموجودين هناك ، ربما يعود ذلك إلى أن طالبان من المدينة ولديها السلطة والسطوة ، وبالتالي الكل يحترم ضيف طالبان أو خائف من ضيفها كما هو خائف منها ، لم أبحث عن السبب الذي رأته على الأقل ظاهراً من خلال جولة سريعة في المدينة أن القندهاريين غير مرتاحين للعرب ، ولكن الكل في قندهار كان مرتاحاً إلى ارتفاع أجور البيوت التي يستأجرها العرب ، وكذلك الدخل والصرف العربي الذي يضخ المال في المدينة ، وهو أمر يحرك شيئاً من الاقتصاد القندهاري الراكد والمتوقف ، لقد علمت أن أجور البيوت ارتفعت أضعافاً مضاعفة بسبب وصول العرب إلى تلك المنطقة ، والتي لم يكن يتوقع أحد أن يكون هناك غلاء في أسعار

البيوت وأجارها بتلك المنطقة تحديداً ، وكان الأفغاني المحطوط هو الذي يقوم بتأجير بيته إلى العربي الذي سيقوم بدوره في تحسينه بناءً و دهاناً ، الأمر الذي سيظهر البيت في أفضل حلة ، ولذا لم أستغرب حين سمعت بعد تخلي طالبان عن قندهار في 7 ديسمبر " كانون ثاني " أن القندهاريين كانوا يقفون على أبواب البيوت التي استأجرها العرب منتظرين رحيلهم ، حتى يستولوا على متاعهم الذي من الصعب نقله معهم وهم في ذلك الطرف الصعب .

## أسامة بن لادن والطائرة الهندية المخطوفة :

في أواخر شهر ديسمبر " كانون أول " عام 1999 خطف مجهولون الطائرة الهندية التي كانت متجهة من كاتمندو عاصمة النيبال وهي في طريقها إلى الهند ، وسعت الطائرة في البداية إلى الهبوط في مطار لاهور لكن باكستان رفضت العرض خشية أن يؤدي ذلك إلى



مواجهة هندية - باكستانية ، فتوجهت الطائرة إلى أفغانستان ، وهبطت في مطار قندهار حيث كانت حركة طالبان تسيطر على أفغانستان ، وبعد مساومات توجت بوصول وزير الخارجية الهندي جاسوانت سنغ تم الإفراج عن عدد من المعتقلين الباكستانيين في السجون الهندية مقابل الإفراج عن الرهائن ، وكان من بين المفرج عنهم الشيخ مسعود أظهر ، والذي أسس لاحقاً حركة جيش محمد في كشمير ، وكذلك عمر شيخ سعيد الذي سيلمع اسمه في قضية خطف وقتل الصحافي الأميركي واليهودي الأصل دانيال بيرل ، وحسب مصادر الأفغان العرب الذين التقيتهم خلال تلك الزيارة فإنه حالما تم الإفراج عن مسعود أظهر والشيخ عمر سعيد وغيرهما ووصولهما إلى قندهار ، أقام أسامة بن لادن مأدبة غداء كبيرة نحر فيها العديد من الذبائح على شرف المفرج عنهم حضرها بعض المشايخ الباكستانيين الذين حضروا من باكستان خصيصاً لهذه الغاية ، وكذلك بعض المسؤولين الطالبانيين ، يبدو الآن عرف سبب هذا الاحتفاء الذي حظي به أظهر وعمر شيخ ، وحتى أن بعض المصادر العربية ذكرت حينها أن مسعود أظهر كان معروفاً لدى بعض الأفغان العرب منذ

**أيام الجهاد الأفغاني ضد القوات السوفيتية في الثمانينات .**

**أحد الأفغان العرب المقرب على ما يبدو لأسامة ذكر لي أن تتابع الزيارات وكثرة الضيوف الذين جاءوا يومها للسلام على الشيخ أسامة ربما بحجة وجود مسعود أظهر كانت ضخمة للغاية ، ووصل الأمر إلى المئات ، حتى ألغينا الاستقبال لأسباب أمنية ، فالأوضاع كما تعرف صعبة للغاية ، ولا يمكن ضبط الأمور بشكل كامل في هكذا ظروف .**

**كان الشيخ عمر سعيد المتهم بختف وقتل الصحفي الأميركي دانييل بيرل مراسل الـوول ستريت جورنال قد اعترف خلال التحقيقات التي نقلتها صحيفة ذي نيوز في تاريخ : 18-2-2002 بأنه زار جلال آباد بعد أيام من أحداث الحادي عشر من أيلول في الهجمات التي نفذت على واشنطن ونيويورك والتقى أسامة بن لادن وبعض رفاقه من الأفغان العرب ، وبحسب الشخصين الذين قبض عليهما بتهمة إرسال صورة بيرل عبر البريد الإلكتروني فإن سعيد يحظى باحترام وسط المقاتلين العرب في أفغانستان ، ولدى حركة طالبان الأفغانية ، لكن مع هذا فإن الصحيفة**

نقلت عن مسؤول أمني باكستاني رفيع قوله بأنه لا يعتقد أن عمر عضو فاعل في تنظيم القاعدة .

الشيخ عمر سعيد شاب في الثامنة والعشرين من عمره ، كان درس في كلية الاقتصاد والسياسة في جامعة لندن ، وحصل على الجنسية البريطانية ، وتعرف على الشيخ مسعود أظهر في السجن حين اعتقل في الهند لسنوات حتى تم إطلاق سراحه في عملية تبادل رهائن الطائرة الهندية في قندهار .

## في بيت أبو حفص الموريتاني :

كما يقال عند العرب : " الضيف أسير المعزب " وبالفعل اقترح علي أبو عثمان أن نبيت ليلة عند " الشيخ أبي حفص " فظننت أنه أبو حفص المصري ، وفرحت أكثر لعلني أستطيع أن أكمل ما تبقى ، وبدأت أسرح بعيداً هل سبقنا أبو حفص إلى قندهار ، وحين سألته هل تقصد أبو حفص المصري بدد أمني بالقول لا .. فإن المقصود به هو الشيخ أبو حفص الموريتاني ، وهو من المشايخ المعروفين

والمقربين من طالبان ، ويدير معهد الدراسات العربية من أجل نشر اللغة العربية وتعليم الأفغان ، وخاصة القيادات منهم اللغة العربية ، هكذا قدمه لي مرافقي ، وأخبرني أبو حفص الموريتاني خلال اللقاء أن كثيراً من قادة الأفغان المقربين من الملا محمد عمر يتعلمون عنده اللغة العربية ، بالإضافة إلى إعطائهم دروساً في العلوم الشرعية وهو ما ينقص الكثير من قياداتهم .

أبو حفص الموريتاني يعد الشاعر الذي ينظم قصائد عادة ما يلقيها أسامة بن لادن ، شاب نحيف وقور في الثلاثينات من عمره ، قصير القامة وأسمر ، وذو لحية صغيرة ، ولكن علامات النجاة على وجهه ، يتحدث بهدوء ، ولا يكثر من الكلام ، ويحظى بقرب ولسق مع الأفغان ، ولذا فقد منحوه بيتاً جميلاً في وسط قندهار ، وكونه على المذهب الحنفي وهو نفس المذهب الذي يتمذهب به الأفغان فقد منحه ذلك ميزة القرب والعلاقة مع الأفغان لتمسكهم بمذهبهم .

**حديث سريع عن أبي زبيدة :**

لم يكن أبو زبيدة الذي برز اسمه في أعقاب مقتل المسؤول العسكري للقاعدة أبو حفص المصري شخصية مهمة لي حين كنت في أفغانستان ، رغم أنني سمعت البعض من الأفغان العرب يتحدثون عنه وكأنه يشرف على شؤون التدريب والمتابعة ، وربما مقرباً من المسؤول العسكري المصري السابق ، وبعد أن بدأت القوات الأميركية تزيد اهتمامها به وباسمه سعيت إلى تذكر ما سمعته عنه ، وشفعتها بالتوجه إلى بيشاور لأقابل بعض الذين عرفوه من جيرانه أو من بعض الأفغان العرب ، أملاً في تشكيل صورة معينة عنه ، وكشفت تحريات وتحقيقات قمت بها ونشرت بعضها في جريدة الحياة اللندنية الصادرة في تاريخ : 18-2-2002 بأن أبا زبيدة الفلسطيني المعروف باسم زين العابدين بن علي شخصية تتسم بالغموض ، لكنها كانت تتميز بالمقابل بالمحبة وسط الأفغان العرب الذين عاصروا فترة الجهاد الأفغاني في الثمانينيات ومطلع التسعينيات ، ويقول أحد الأفغان العرب القدامى الذي عرف أبو زبيدة : " كان شخصية عادية تتسم بالهدوء ونوعاً من الغموض والثقة بالنفس ، واستطاع نسج علاقات متميزة مع كثير من الخليجيين الذين قدموا إلى

الجهاد ، نظراً إلى أنه ولد من عائلة فلسطينية ثرية في السعودية ، وهو رجل عملي يحب أن ينفذ كل شيء بنفسه دون الركون إلى الآخرين . "

كان اسم أبو زبيدة أو " زين العابدين " و الذي هو في أواخر الثلاثينيات من عمره قد برز خلال السنوات القليلة الماضية وتضاعفت أهميته بعد أن تحدثت الأوساط الأمنية الأميركية على تسلمه منصب المسؤول العسكري في تنظيم القاعدة بعد مقتل أبو حفص المصري " محمد عاطف " في قصف أميركي على مدينة قندهار جنوب غرب أفغانستان مع أكثر من اثني عشر شخصاً من الأفغان العرب .

ويصف من رأى أبو زبيدة بالقول : " شاب قوي البنية رياضي الجسم ، أقرب إلى النحافة ، وأسمر ، ووجهه غير ممتلئ ، ويصل طوله إلى 175 سنتيمتر تقريباً ، وكان يعرف عنه الهدوء وعدم التضجر من أي تصرف مسيء ، مع خدمة رفاقه و التعاون على حل مشاكلهم بطريقة عملية و ميدانية بعيداً عن التنظير . "

وبينما نفى الكثيرون تعمقه في القراءة الشرعية أو السياسية ونحوها إلا أنهم يصرون على أنه دقيق المتابعة للأخبار من خلال الإذاعات و الصحف .

وكشفت مصادر باكستانية أمنية في بيشاور أيضاً أن أبا زبيدة الفلسطيني ربما جاء في منتصف الثمانينات إلى باكستان بهدف الجهاد حين كان زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن قد بدأ يستعد حينها للعمل بشكل مستقل عن الأفغان العرب الآخرين ، و الذي تمثل حينها في تأسيسه مأسدة الأنصار خلال معارك جاجي الشهيرة في رمضان من العام 1987 .

يبدو أن أبا زبيدة طوال فترة الجهاد الأفغاني الذي كان فيه صغيراً في السن نسبياً لم يكن يتردد كثيراً على بيشاور التي أطلقت عليها بعض الأدبيات العربية آنذاك بـ " بوابة الخلافة المفقودة " ، ولذا فقد ظهر نشاطه بين الشباب العرب مطلع التسعينيات .

ويقول أحد الباكستانيين الذين كانوا يقطنون في نفس الحي الذي سكن فيه أبو زبيدة الفلسطيني : " كان شخصاً عادياً ودوداً ، يمتلك سيارة عادية وقديمة نسبياً من طراز

تويوتا ، ويسلم على الجميع حين خروجه ودخوله إلى البيت ، ولم يكن هناك ما يستدعي القلق في شخصيته ، فقد ظهر لنا أنه عادي ، ولكن كان يتردد عليه الكثير من الشباب العرب وبقي في هذا الحي فيز أربع من ضاحية حياة آباد الراقية في بيشاور حتى العام 1997 . "

وكانت السلطات الأمنية الباكستانية بدأت في ذلك الوقت حملة مطاردات ومداهمات ضد الأفغان العرب ، وخصوصاً من يشتبه في علاقته بنسف السفارة المصرية في إسلام آباد .

ويشدد كل من التقيته على أن أبا زبيدة لم يعمل أبداً مع منظمات الإغاثة العربية العاملة وسط اللاجئين الأفغان ، والتي يصل عددها إلى الخمس عشرة منظمة ، وهو ما يشير إلى أنه كان منذ البداية مشغولاً بأجندة أخرى وهي العلاقة مع القاعدة ، إذ كان يلعب حسب بعض المصادر العربية في بيشاور دور : " التحريض على التدريب " ، خصوصاً و قد أفادته إقامته في السعودية على نسج علاقات مع الشباب الخليجين الذين كانوا يترددون على بيته ، والذي كان بمثابة بيت للضيافة . ويقول مصدر أمني باكستاني " حين علمنا بخطورته في منتصف العام 1997



لجاناً إلى اعتقاله ، لكنه لم يكن في البيت ، وربما أحس بذلك فاختفى ، ولكن علمنا لاحقاً أنه عبر الحدود الباكستانية إلى أفغانستان حيث تسيطر حركة طالبان الأفغانية على السلطة في كابول منذ العام 1996 وهي التي وفرت الملاذ لكل الأفغان العرب بمن فيهم زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن .

وتقول بعض الأوساط الأفغانية المطلعة " سمعنا الكثير قبل سقوط حركة طالبان الأفغانية أن أبا زبيدة كان يتجول في الشرق الأفغاني ، وقد نسج علاقات قوية مع قبائل أفغانية ، بالإضافة إلى إشرافه على تدريب الأفغان العرب في معسكرات تدريب أقيمت منذ أيام الجهاد الأفغاني وتحديداً في منطقة " خلدن " و سلمان الفارسي وغيرها .

لكن ستبقى مسألة تسلمه هذا المنصب الحساس في القاعدة محل تكهنات وتوقعات في ظل تكتم القاعدة على أسماء مسئوليتها أولاً ، وعدم الكشف عن مناصبهم ، إذ أن أسامة بن لادن لم يعلن بشكل رسمي وعلني أنه زعيم تنظيم القاعدة فكيف غيره .



## الفصل الثاني

شاهد على عرس نجل  
أسامة بن لادن

يوم كامل عاشه صحافي  
مع زعيم تنظيم القاعدة

كان يوماً عادياً من أواخر أيام شهر فبراير " شباط " من العام 2000 حيث الاستعداد للذهاب إلى الحج لأداء الشعائر المقدسة على أشده لعباد الله كلهم ومن بينهم عائلتنا ، فقد اعتادت زوجتي سنوياً على الإلحاح علي بأداء هذه الفريضة لكن مع اقترابها كانت تتخوف في أن يحول حائل صحافي دون أدائها ، وبدأت تضرب لي أمثلة على الأعوام الخوالي ، وكيف حالت عوارض صحافية و تغطيات إعلامية دون التوجه إلى مكة المكرمة ، لكن كنت أحرص على تبديد مخاوفها هذه بأن بداية العام الحالي تبدو مشجعة لأداء هذه الفريضة لتضرب بذلك عصفورين بحجر واحد أداء الفريضة أولاً و أخيراً إلى جانب رؤية شقيقتها المتزوجة هناك " وليشهدوا منافع لهم " كما قال الله تعالى ، وبينما نحن نتجاذب الحديث عما سنفعله هناك وكيف سنقضي العيد مع الأقارب في المملكة رنّ الهاتف ... وتقطب حاجبي الزوجة التي تتخوف من كل رنة تلفون يقطع عليها فرحة الحج ورؤية شقيقتها ، حتى وجدتني بدوري أيضاً أن وجهي قد تغير وانتحيت جانباً ، ثم إلى غرفة العمليات في مكتب البيت الذي كان بمثابة كابوس لها وللأولاد ، وما هي إلا دقائق حتى خرجت من

المكتب والزوجة المسكينة تنتظر على أحر من الجمر مع الأولاد وكأنهم بانتظار انفراج غمة عن أم تريد أن تضع مولودها ، أو عن شخص ينتظر خروج مريض من تحت عملية جراحية خطيرة فقلت لهم " هذؤوا من روعكم ، " لكنها كلمة لا تعني لهم شيئاً إلا أن المحذور وقع ، فاستشاط الجميع في وجهي غضبا وقالوا هل حصل ما يعكر السفر ؟ وهل انقلبت الأمور في باكستان أو النيبال حتى تحرمنا من الذهاب إلى المملكة ؟!! فقلت لهم ما هي إلا أياماً وسأعود من أفغانستان ، فكانت الطامة الكبرى إذ أن التوجه إلى تلك الديار انقطاع عن العالم كله ، فلا هواتف ولا نقل سريع ، وما على المرء حين يدلف إلى تلك البلاد إلا أن يكسر ساعته وينتظر فرج الله .

### أبو عثمان على الخط :

كان الشخص الذي على الخط الآخر هو أبو عثمان كما قدّم نفسه لي مؤكداً أنه من " طرف الأخوة في أفغانستان " وهو تعبير طالما اعتاد العرب على استخدامه

لأفراد القاعدة وجماعة ابن لادن ، ويريدني أن آتي إلى كويته الباكستانية في أقرب فرصة ممكنة ليتم نقلني إلى داخل أفغانستان لأمر مهم وعلى الفور ، وكعادة الصحفي سألته هل سأجلب معي المعدات التصويرية ؟ فقال : لا ، تأتي لوحده فقط ، ونحن بانتظارك ، وسنعرفك أو سنكتب لوحة يحملها شخص ما في المطار ، وبدأت على الفور بالتفكير في الرحلة ، وهل ستكون مهمة أم أن الأمر لا يعدو أن يكون ذهاباً إلى أفغانستان ، ولكن مجرد رؤية الأفغان العرب مكسب وسبق صحفي لا يتعفف عنه أحد ، وإن كان هاتف داخلي يناديني بالأذهب ، خصوصاً وأن صورة الصحفي العربي في أذهان القوم أو قسم منهم - على الأقل - ربما تعادل العميل للمخابرات ، والموظف لدى الأجهزة الأمنية العربية ، لكن قطعت سلسلة أفكارني وبدأت التفكير جدياً بطريقة السفر ، فهل أسافر عن طريق الأمم المتحدة بطائرتها من إسلام آباد إلى قندهار ؟ ولكن الطائرة لديها رحلتان أسبوعياً ، ونحن الآن في الخميس ، والرحلة المقبلة يوم الأحد ، ومن الصعب الحصول على تأشيرة سفر من السفارة الأفغانية للإجراءات الطويلة التي تحتاجها التأشيرة وأولها موافقة وزارة الخارجية

الأفغانية في كابول على الزيارة ، بالإضافة إلى أن السفارة لديها عطلة يومي السبت والأحد ، وأي تأخير سيعني أن السفر إلى الحج قد ألغي ، إذ أمامي فقط سبعة إلى ثمانية أيام لألحق بآخر رحلة طيران تغادر الباكستان إلى المملكة ، فعزمت على التوجه صباحاً بطائرة الـ " بي آي إيه " الباكستانية من إسلام آباد إلى كويته ، وفي صالة الدرجة الأولى اتخذت مكاناً ، اقترب مني النادل ليسألني ماذا تشرب ؟ كنت شارداً الفكر ، ومحلقةً فيما قد يحصل إلي ، وسلسلة الأسئلة لا تتوقف في ذهني ، ما هي طبيعة الدعوة ؟ وهل سأقابل أسامة بن لادن ؟ أم أنها مجرد رحلة استطلاعية ؟ ولماذا وقع الاختيار عليّ تحديداً ؟ فإن كان المطلوب الجزيرة فهناك مراسل للجزيرة هو الزميل تيسير علوني في كابول ؟ ولم يقطع سلسلة الأسئلة سوى النادل الذي كان ما يزال واقفاً بجانب ليعيد السؤال علي ماذا تشرب سيدي ؟ فاعتذرت له بالقول : قهوة ، فأسرع المسكين الذي وقف لبرهة ليست قصيرة وليحضر القهوة أملاً في رمي بعض الروبيات الباكستانية مع الفراغ من شرب القهوة ، وبدأت أرتشف القهوة ، لكن ذهني ما يزال يخلق في طبيعة الرحلة ، و الصعوبات التي قد تصادفنا في

المطار ، فهل سيكون أحد بانتظاري ؟ وهل سأعبر الحدود بسهولة ؟ ومتى سأقابل أسامة بن لادن ؟ وما هي نظرة الأفغان العرب إلى صحافي مثلي ؟ خصوصاً وأنه حسب ما أعلم فإن نظرتهم إلى الصحافي ربما تكون أقرب إلى نظرتهم لرجال الأمن ، فبعضهم لم يسرها مرة أمامي حين قال : بأنه لا فرق بين رجال الإعلام والأمن ، وبالتأكيد فمن الظلم تعميم هذه النظرة على كل الأفغان العرب ، وفي ظل تزاخم هذه الأفكار جاءني النادل نفسه ليقول لي سيدي إلى الطائرة ، فحملت متاعي القليل واتجهت إلى الطائرة بخطى سريعة وكأنها ستسرّع من الرحلة لتنتهي على خير ، وأخيب توقعات زوجتي التي جزمت لي قبل الوداع أن رحلة قندهار ستنغص عليها السفر إلى الديار المقدسة ، وأنا أقول لها : لن يحصل هذا غير مرة ، وإن كنت في داخلي أعتقد بمثل ما تعتقد به هي . ولذا فقد كنت طوال الرحلة أعيش هاجس اللحاق بآخر طائرة إلى المملكة لعلني أؤدي الفريضة هذا العام وألبي رغبة الزوجة والأولاد .

الطريق إلى كويته :



مدينة كويته الباكستانية التي تقطنها عرقية البلوش معروفة بتعاطفها مع الشعب الأفغاني لأسباب عديدة على رأسها العامل العرقي ، إذ تتشاطر شريحة واسعة من الشعب الأفغاني عرقية واحدة مع البلوش الباكستانيين ، بالإضافة إلى أن انتفاضة الشيوعيين الباكستانيين في منتصف السبعينيات ، والتي طالبت بدولة بلوشية باكستانية حين كان محمد داوود في السلطة 1973 - 1978 تلقت دعماً ومساندة لامحدودة من داوود ضد حكم ذو الفقار علي بوتو ، فقد كان الشيوعيون متنفيين في حكومة داوود آنذاك ، وحظي المطلب البلوشي الباكستاني بدعم سوفيائي ، وهو من شأنه أن يمنح موسكو منفذاً على الشواطئ العربية الدافئة ، وهو حلم طالما داعب مخيلة الملكة كاترين الثانية الروسية أيام حكم القيصرية ، وذلك في أن تمتلك يخبأ على تلك الشواطئ .

كويته لم تتطور كثيراً خلال الجهاد الأفغاني رغم احتضانها لمئات الآلاف من اللاجئين الأفغان ، فقد انصب الدعم و المساندة لأسباب يطول شرحها الآن على بيشاور التي

أطلقت عليها بعض الأدبيات العربية أيام الجهاد الأفغاني  
1979 - 1989 بـ " بوابة الخلافة المفقودة " .

الرحلة بالطائرة من إسلام آباد إلى كويته تبلغ الساعة ،  
ولكن المخاوف ما تزال تتقاذف في ذهني ، وأسئلة تروح  
وتأتي من سألتقي هناك ؟ وكيف سيكون الانتقال عبر  
الحدود ؟ وكذلك العودة ومن سألتقي ؟ وما هي الصيغة  
التي سأنقل فيها الخبر ؟ وهل سأتمكن من أداء فريضة  
الحج هذا العام ؟ كلها أسئلة كانت تطاردني كظلي ، لكنها  
بددتها غفوة مني في الطائرة ، فاستيقظت على أصوات  
المسافرين الذين بدؤوا بالهبوط فأخذت متاعي ونزلت  
بسرعة ، وما أن خرجت من المطار وعيني كالرادار تتابع  
لوحة يحتضنها شاب أفغاني حسب الوصف مكتوب عليها "  
أحمد زيدان " فعثرت على شاب متوسط القامة وأقرب إلى  
هيئة الصعايدة أو اليمنيين ، فقدم نفسه على أنه " أبو  
عثمان الصعيدي " في منتصف الثلاثينات من عمره ، فقد  
رآني على شاشة الجزيرة غير مرة ، وقال لي بأنه هو  
الذي سيرافقني في الرحلة ، وعلى السريع استأجرنا  
سيارة مع مرافق أفغاني لتعب السير باتجاه تشمن الواقعة  
على الحدود الأفغانية - الباكستانية ، وتمت المساومة على

السريع مع السائق الذي طلب حوالي الألف روبية باكستانية ، أي ما يعادل العشرين دولاراً لإيصالنا إلى تشمن الحدودية الباكستانية ، ومنها سيكون الانتقال بطريقة غير قانونية ، أي التهريب إلى أفغانستان ، وهي مسافة لا تتعدى الكيلومترات ، لتتوجه بعدها إلى سبعين بولداك الأفغانية ، ومن هناك إلى قندهار حاضرة " أمير المؤمنين الملا محمد عمر خادم دين رسول الله " كما يعرفه أتباعه وأنصاره ، ويحلو له أن يمهر توقيعته على القرارات والفرمانات التي يصدرها .

### المحطة في مطار قندهار :

ما أن استقلنا السيارة مع أبي عثمان الذي بدا عليه الهدوء مع عبارات الترحيب و التهليل ، والتي تشعر الطرف الآخر بمزيد من القرب والأنس في محاولة حثيثة من مرافقي للتدليل على أنهم ليسوا بإرهابيين وإنما أناس عاديون لبوا نداء الجهاد كما يقول : " للدفاع عن حرمة الأمة الإسلامية التي تنتهك بشكل يومي في كل

أرجاء الأرض دون مغيث أو مدافع عن هذه الحرمات " ، لكن كنت في وضع المستمع والمهتم بكل شاردة وواردة من الحديث فضلاً عن قراءة القسمات والإشارات والتلميحات التي تصدر عن لغة الجسم ، و التي هي في مثل هذه المواطن أهم من كل اللغات الحية التي تسعى أحياناً إلى تضليل الواقع لكنها غالباً لا تغير منه شيئاً .

على كل حال الطريق طويل ومزعج ، مليء بالحفر ، فغالباً ما يطرق الرأس في سقف السيارة " التاكسي " كل نصف دقيقة ، وربما أقل بسبب وعورة الطريق ومساعي السائق الحثيثة التي ترمي إلى الوصول قبل غروب الشمس لتفادي إغلاق بوابة الدخول إلى أفغانستان ، وهو ما قد يجعل سماح حرس الحدود بعبورنا إلى الطرف الأفغاني صعباً وربما مستحيلاً ، كان مرافقي يقول لي ما هي إلا ثلاث ساعات وسنكون في سبين بولداك الأفغانية ، وحينها نكون في ضيافة الطلبة ، لكن أجواء الطلبة بدأت منذ خروجنا من مدينة كويته ، إذ طالما شاهدنا العبارات التي تشيد بطالبان وأسامة على الجدران الموازية للطريق الرئيسي الذي يفضي إلى قندهار ، فقد كانت إحدى الجمل تقول : " كل طالب أسامة بن لادن " ، وهو ربما أمر مألوف

لمن يعرف تلك البلاد ، إذ أن المدارس الدينية منتشرة على الطريق الرئيسي وكذلك المساجد ، وهاتان المؤسساتان تلعبان الدور الأساسي والمحوري في عملية التحول الاجتماعي الحاصلة في تلك المنطقة ، خصوصاً وأن القائمين على هاتين المؤسساتين يمثلان – ربما – الطبقة المثقفة في المنطقة القبلية ، و التي يكثر فيها الجهل والامية ، فالعامة لا يجدون سوى العلماء ليقرؤوا لهم أو يرشدوهم لأمر دينهم وديناهم ، بينما أثر المثقفون القليلون في ذلك الإقليم الانتقال إلى المدن الرئيسية المهمة وفي أحسن الأحوال إلى كويته عاصمة الإقليم نفسه .

كانت الشمس ترسل أشعتها بهدوء وهي تتوارى وكأنها خجلة خلف جبال شاهقة في بيئة ربما تكون الوحيدة من نوعها في العالم ، حيث لا سيطرة للحكومة المركزية عليها ، وفي أسوء الحالات يتمكن أي شخص من التسلل إلى الأراضي الأفغانية أو العكس عبر دفع بضع روبيات لقوات الحرس ، كيف لا و هنا يقع المثلث الذهبي الممثل بأفغانستان وباكستان وإيران؟! حيث يقوم تجار المخدرات العالميون بأخطر لعبة في العالم دون أن تتمكن

حكومات من ضبط مثل هذه التجارة الخطيرة ، والتي ترسل خيوط الموت إلى أرجاء العالم كله .

بعد أقل من ثلاث ساعات وصلنا إلى تشمن الحدودية الباكستانية ، فطلب مني مرافقي أن أنزل من السيارة لنستقل دراجة نارية ضمن ترتيب معين للتسلل إلى الأراضي الأفغانية ، وتتضمن الخطة أن يجلس أحدنا وراء السائق ليقطع بنا حوالي النصف كيلو متر في طريق ترابية ، وما علينا إلا أن نغطي وجوهنا حتى لا يتعرف علينا أحد من الحراس الذي سيطلب حينها بسعر أكبر من السعر العادي لعبري الحدود من السكان المحليين ، وبالفعل ركبت وراء أحد سائقي الدراجة النارية ، وفي غضون دقائق كنت أمام البوابة التي يمر منها كل واحد وانتحيت بوجهي إلى الجانب الآخر المعاكس لوجود الحارس الذي يفتح البوابة ، فقد انتهت العملية في غضون ثوان حيث قدم السائق له بضع روبيات لا تتعدى الدولار أميركي ، فدسها في جيبه تحاشياً من أن يراه أحداً وهو يرتشي ، وإن كان الجميع يعرف ذلك ، لكنه يحرص على التعمية على الآخر ، ودلقت إلى الأراضي الأفغانية ومن هناك ركبنا في تكسي عادية ، وخلال دقائق معدودة كنا في منطقة سبين بولداك

وهي التي كانت منها انطلاقة حركة طالبان الأفغانية في صيف عام 1994 حين تمكن زعيمها الملا محمد عمر من السيطرة على هذه المنطقة ، والتي كانت تغص بالأسلحة و الذخائر التي اعتاد المجاهدون على تخزينها خلال الحرب الأهلية بين بعضهم البعض ، والتي امتدت من 1992 – 1994 وكان سقوط سبين بولداك في وقتها مؤشراً خطيراً على نهاية حكم المجموعات المسلحة الجهادية ، وتهاوت قلاع هذه الجماعات المسلحة واحدة تلو الأخرى رهبة أو رغبة بالدولارات التي أغدقتها طالبان والدول التي وقفت إلى جانبها حينذاك .

انحرفت السيارة إلى اليمين في طريق ترابي وعر جداً تحفه بيوت طينية أشبه ما تكون بالبيوت الأركيولوجية الأثرية المكتشفة حديثاً ، ووقفت السيارة ، طلب مرافقي أبو عثمان النزول لأداء صلاة الظهر والعصر جمعاً ، ثم تناول بعض الطعام والشاي الذي يعد الأمر الأهم عند الأفغان ، فقد اعتادوا على القول خصوصاً الشماليين منهم " أكر شاي نميخري جنك نميشا " أي " إذا لم تشرب الشاي لا يمكن أن تقاتل " وبالتالي فالعادة عند الأفغان أن يكون لكل شخص أينما كان في المطعم أو في البيت إبريقاً من

الشاي مع كوب خاص ، ويظل يشرب الإنسان حتى ينتهي من الإبريق ، وكدليل على أنه لم يعد يريد الشاي فما عليه إلا أن يقلب الكأس رأساً على عقب وهي دلالة على أنه لم يطالب بالمزيد .

سارعنا إلى الوضوء والصلاة ، وفرغنا منهما ، ثم شربنا الشاي ولم نتناول الغداء ، فلم يعجب صاحبي أبو عثمان شيئاً من الطعام الموجود ، وربما أدرك أنه من باب أولى ألا يعجبني شيئاً لسبب بسيط أن معدتي حديثة عهد بالمنطقة ، وبالتالي فأى طعام مثل المعروض ربما يسبب لها متاعب صحية ومعدية ، وبينما نحن نحتسي الشاي كان صاحب المطعم يرمقنا بنظرات لها مدلولات عدة على رأسها هل ستمكثون عندنا ؟ وكأنه يبحث عن زبون لعله بذلك يكسب أجرة النوم وتوابعها ، ولكن قطع صاحبي أبو عثمان نظراته بحسم الجدل القائم في ذهنه حين قال له : " نحن سنذهب الآن ولن ننام هنا " ، ورغم الابتسامة الصفراء التي صدرت عنه ، إلا أن قسمات الوجه كانت تحكي الكثير على رأسها أن أحلامه في كسب زبون عربي تلاشى في هذه الصحراء القاحلة ، أما حولنا فكان الأفغان الذين جلسوا القرفصاء متلفعين بالباتو الأفغاني ، وهو



رداء بطول مترين وعرض متر واحد وهم ينظرون إلينا قائلين لبعضهم البعض " عرب صيب ، عرب صيب " أي هؤلاء من السادة العرب ، وما أن فرغنا من الشاي حتى استأجرنا سيارة تاكسي إلى مطار قندهار حيث سنقضي يومنا فيه .

### ابن أوى :

على طول الطريق الذي سيقودنا في ليلة حالكة الظلمة محرومة حتى من ضوء القمر سترافقنا الوحشة والصمت الرهيب طوال تلك الرحلة باستثناء أصوات ابن أوى ، والتي ربما عملت على تخفيف وحشة الطريق الوعر والمليء بالحفر الكفيلة بإزعاج أي راكب لتحول بينه وبين أي غفوة ربما يفكر فيها المسافر ، ومع هذه الأصوات التي يرسلها هذا الحيوان أتذكر الكتاب الذي صدر باللغة الإنجليزية عن أسامة بن لادن والذي شبهه بإبن أوى ، كان مرافقي أبو عثمان يسعى بكل ما أوتي من قوة إلى تخفيف وطأة السفر الذي شبهه الرسول عليه أفضل

الصلاة والسلام " بقطعة من عذاب " ، ويسعى أبو عثمان إلى التعمية على برنامج الرحلة أما أنا فكنت أقتصد بالأسئلة ولا أسعى إلى طرح أسئلة فضولية قد يقرأ منها أبو عثمان الكثير ، فالحال والمقام لا يسمحان بكثرتها ، كان أبو عثمان متضايقاً إلى حد كبير من راكب أفغاني عادي أقله السائق ، رغم أن السيارة كانت مستأجرة خصيصاً من قبلنا ، ولكن يبدو أن السائق أراد من يسليه طوال هذه الرحلة الشاقة ما دمنا نحن الاثنين عربيين ، ولن نتحدث معه ، الأمر الذي قد يجلب له السامة والملل ، وكان هذا الراكب كثير السؤال ، ويحرص أن يعرف من نحن ؟ وأين سنذهب ؟ أما مرافقي أبو عثمان فكان يمرر له كل الأسئلة دون أن يجيب عنها سوى بالقول له : لا تسأل ، وتكلم مع السائق صاحبك مع بعض العبارات التي تنم عن الضجر والملل والانزعاج حتى من السائق الذي أقله دون مشورتنا ، كانت الساعة بدأت تشير إلى الثامنة ليلاً بالتوقيت المحلي حين بدا ضوء خافت من بعيد وعلى يمين الطريق كنت حينها بين النائم واليقظان فقال لي أبو عثمان : " إنه المطار وسننزل فيه حتى الصباح لتدبير أمورنا " ، ففرحت فرحاً كثيراً أننا وصلنا إلى مهجعنا ،

وبالتالي سنأخذ قسطاً لا بأس به من الراحة قبل أن نبدأ يوماً ربما يكون شاقاً لا نعرف شيئاً عن تفاصيله ، فالصمت وعدم السؤال عدة أي صحافي في مثل هذه الظروف الدقيقة لرجال مطلوبين لأكثر من دولة و نظام .

استدارت التاكسي التي كانت نمرتها من الإمارات العربية المتحدة أبو ظبي إلى اليمن ، وللعلم فإن كثيراً من السيارات في أفغانستان وقندهار تحديداً ما تزال عليها نمرة الإمارات العربية المتحدة ، إذ تشتري من هناك ثم تصدر إلى أفغانستان عبر إيران ولا يكلف الأفغاني نفسه عناء نزع النمرة ، إذ عادة ما تأخذ عملية التسجيل لدى مصلحة شرطة المرور وقتاً في بلد تسير فيها الحياة كلها ببطئ ، وكأنها ما تزال في القرون الوسطى ، فأوقفنا السائق بصرخة تصيح لها الآذان " دريش " أي " قف " ، طالباً كلمة السر ، لكن كلمة عرب صيب كانت كافية لتبديد مخاوفه وقلقه ، والسماح لنا بالدخول آمين مطمئنين .

بدأنا نغذ السير إلى مجمعات سكنية في داخل مطار قندهار حيث بعض الغرف التي كان الأميركيون بنوها في الخمسينيات حين أقاموا مشاريع عدة في غرب أفغانستان ومن بينها مشروع هلمند ، وربما لم يفكروا يوماً ما بأن

أعدائهم من القاعدة سيتخذون من هذه القواعد لأنفسهم أو للأفغان الموالين لهم مراكز للتخطيط لعمليات تستهدف مصالحهم ، مثلما لم يفكر ربما ساكني هذه الغرف من العرب أنفسهم أنهم سيجلون يوماً ما عنها ليتركوها إلى أعدائهم من الأميركيين وحلفائهم الأفغان الذين كانوا محصورين في خمسة بالمئة من الأرض الأفغانية فقط .

دلفنا إلى إحدى الغرف ، واستقبلنا شاب يظهر من لهجته بأنه من دول المغرب العربي ، لم أسأله بكل تأكيد عن اسمه أو وظيفته ، رحب بنا كالعادة ، وبدأ بإعداد بعض الطعام والذي تضمن البندورة و البيض والخبز ، مبدياً أسفه لعدم الاستعداد الكامل لطعام يليق بالمقام حسب قوله ، فشكرناه على لطفه ، إذ لا نريد سوى الاستراحة ، فقد هدنا السفر الذي تواصل لأكثر من 12 ساعة من إسلام آباد إلى قندهار ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى أنهينا الطعام ، وأوينا إلى فراشنا لنغط في نوم عميق بانتظار صباح حافل بالمفاجئات الصحافية ، ولنتنظر صيداً ثميناً ، ربما يطمع به أي صحافي على وجه الكرة الأرضية .

## إلى العرس :

كانت أول كلمة تلفظ بها أبو عثمان معي بعد الاستيقاظ من النوم والتهيؤ إلى الانتقال إلى مكان آخر غير المطار ، هو كشفه السر ، الذي ما يزال مخفياً عني طوال هذه الرحلة ، وهو الهدف من زيارتي كلها ، توقف أبو عثمان ليبتلع ريقه ثم يقول : " بأن الزيارة تهدف إلى حضورك لعرس محمد بن أسامة بن لادن على كريمة محمد عاطف المصري " أبو حفص " المسؤول العسكري في تنظيم القاعدة الذي يقوده أسامة بن لادن " ، لم أخف فرحي ، وإن كنت قد أظهرت له أنني كنت أتوقع أكثر من ذلك ، وهو لقاء أسامة بن لادن والانفراد بحديث خاص معه ، خصوصاً و أنه ملتزم بالصمت منذ القيود الظاهرية التي فرضتها عليه حركة طالبان الأفغانية ، بعد أن جرمته الولايات المتحدة الأميركية في مهاجمة سفارتها في أفريقيا الوسطى في العام 1998 ، وكعادة الصحفي الذي يظهر أن المعروض عليه ليس مهماً جداً أملاً في الحصول على المزيد ، رد أبو عثمان على الفور ستلتقي أسامة ، ولكن لن يكون لقاءً للنشر ، لظروف الحظر المعروفة التي

تفرضها حركة طالبان عليه بسبب الضغوط الدولية ، وهو ما أدى إلى قطع بعض الدول لعلاقتها مع الحركة ، إلى جانب حصار اقتصادي ومنع شركة طيرانها من الطيران إلى الخارج ، فشكرته على كل حال لاختياري خصوصاً لأن انفرادي بالمشاركة في هذه المناسبة تعود إلى عاملين أساسيين اثنين لا ثالث لهما وهو ما ظهر من بعض تلميحات القوم أنفسهم :

1. الحصار الذي فرضته حركة طالبان الأفغانية على أسامة بن لادن ، خصوصاً الإدلاء بأي أحاديث صحافية دفع القاعدة إلى اللجوء لصحافيين خارج أفغانستان ، وذلك لقناعتهم بأن مراسل الجزيرة تيسير علوني سيتعرض إلى ضغوط من الحركة ، وربما تصل إلى الطرد من أفغانستان بخلاف واقعي الذي أعيش أصلاً في باكستان ، ولذا لا يستطيعون اتخاذ إجراء ضدي ، خصوصاً و أنني أمثل الجزيرة التي ترغب القاعدة بظهور صورها عليها .

2. أما السبب الثاني فهو أنني أمثل مؤسستين إعلاميتين وهما : الجزيرة - كما ذكرت - بالإضافة إلى جريدة الحياة ، وهو ما قاله لي أتباع أسامة كون الحياة جريدة لها وزنها في الساحة الإعلامية العربية والدولية .

تحركت السيارة التي أقلتنا من المطار إلى مكان في غرب قندهار، لم أعرفه من قبل ، فأنا أجهل المنطقة ، لكن صاحبي كان يعرفها تماماً ، وبينما نحن في داخل المطار كنت أرقب بعض موظفي نزع الألغام الأفغان التابعين للأمم المتحدة يقومون بالبحث عن الألغام في ساحات المطار ، فسألته عنهم فرد أبو عثمان نعرفهم منذ سنوات ، وهم يبحثون عن الألغام ، و في نفس المكان الذي هم فيه الآن ، وندرك أنهم يعملون كجواسيس لا أكثر ولا أقل .

خرجنا من المطار إلى مكان في غرب المدينة ، وكأنه يحضر ليكون معسكراً للتدريب ، إذ رأيت ما يشير إلى ذلك ، حتى تيقنت بعد التقرير الذي بثته كبيرة مراسلي قناة السي إن إن الأميركية كريستينا أمان بور عقب هزيمة حركة طالبان الأفغانية من المكان نفسه على ما يبدو ، وقد طرأت عليه بعض التحسينات من الحواجز ، و أماكن تربية الخيول التي يعشقها ابن لادن .

وصلنا إلى المكان ، وجلسنا في غرفة صغيرة ، مفترشين الأرض ، وحولي شخص أو شخصين يبدو أنهما من اليمن ، وبعد دقائق حتى دخل علينا أبو حفص المصري ، والذي

جلس متربعاً على الأرض دون أي تكلف ، وأخذ يلاطفنا ويسألنا عن أحوالنا ، وفيما إذا تعبنا من السفر ، وإن كنا قد استرحنا بعد عناء سفر طويل ، وبدأ يسأل عن باكستان ، حتى وصل إلى السؤال الأهم بنظري وهو قوله : " هل وجودنا في أفغانستان يقع في مصلحة باكستان الاستراتيجية " ، والحقيقة فوجئت بالسؤال ، وقلت له بعد برهة صمت : " ربما هذه المصلحة مرتبطة برغبتها في الاحتفاظ بحركة طالبان الأفغانية ، بمعنى أن الأمور متعلقة ببعضها البعض ، وقلت أن جوابي لم يشف غليل أبي حفص الذي ظهر من كلامه أنه واثق جداً من كل كلمة يتفوه بها ، ولا يتكلم إلا للضرورة القصوى ، ورأيت أن كلامه يمكن عدّه لو أراد العادّ أن يحصيه ، ومع كل جملة يتفوه بها يطعّهما بابتسامة ، حتى و كأنك تنسى أنك أمام ثاني أهم ما يوصف بأنه " إرهابي " في العالم بالتصنيف الأميركي .

وكان الصحافي الباكستاني حامد مير الذي يعد آخر من التقى زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن ، ونشر مقابله في كل من صحيفة أوصاف الأوردية الباكستانية و كذلك الدون الإنجليزية الرصينة قد كتب عقب المقابلة في مقال



نشره في صحيفته بأنه حين سأله أسامة و الظواهري عن رد الفعل الباكستاني إزاء تعاون الحكومة الباكستانية مع الأميركيين فقد أجاب مير بأنه لن يحصل شيء على مستوى الشارع ، وكذلك على مستوى الجماعات الإسلامية الباكستانية ، والحكومة مطمئنة إلى الوضع الداخلي الباكستاني ، ويعلق الصحافي الباكستاني بالقول : " لقد رأيت وجهي كل من ابن لادن والظواهري قد تغيرا تماماً " الأمر الذي كان يظهر مدى تعويل كلاً من ابن لادن و الظواهري على الشارع الباكستاني و الحركات الإسلامية ، وكذلك المدارس الدينية المنتشرة فيه على الانقلاب على الحكومة الباكستانية ، ولذا جاء أول بيان لأسامة عقب الغارات الأميركية على أفغانستان يدعو فيه الشعب الباكستاني إلى المشاركة في " الجهاد ضد القوات الأميركية " .

أخذ الحديث أبو حفص المصري معنا وكأنه نسي أن اليوم يوم زواج ابنته على ابن زعيمه ، فقد استغرق في الحديث السياسي عن الوضع الأفغاني والأسباب التي دفعتنا كما يود أن يقول ، دون أن يستخدم كلمة " القاعدة " للتعاون مع طالبان والافتناع بهم . وبينما هو يشرح لنا الأسباب و

الدوافع لذلك التي لم أعد للأسف أتذكر شيئاً منها ، جاء أحدهم لينادي لصلاة الظهر فخرجنا وأمّ المصلين أبو حفص ، وما أن فرغنا من الصلاة ، حتى توجهنا إلى البيت المواجه للغرفة التي نجلس فيها ، حيث الطبخ فوق جذوع الأشجار على أيدي الأفغان العاديين وبمساعدة الأفغان العرب الذين كان معظمهم من اليمنيين والسعوديين ، سبقنا أبو حفص لنخرج بعده بدقائق إلى البيت الذي كان سيشهد العرس .

كانت الغرفة التي شهدت العرس كبيرة جداً ، وربما كانت صالة سينما أو مسرح أو شبيهاً من ذلك تعج بالمئات من الناشطين العرب ، الذين يشاركون في الحفل ، وما أن دخلت من باب الغرفة ، حتى بدا لي أسامة بن لادن ، وهو يتصدر المجلس ، وعلى يمينه ويساره شخصيات بدا عليها أفغانية وعربية ، وأمامه على شكل صفوف شباب القاعدة الذين كانوا يكبرون ، ويهللون ، بين الفينة و الأخرى ، واتخذت مكاناً في الصفوف الخلفية ، إلا أن إلحاح أحد المشرفين على الحفل بأن أجلس في صدر المجلس إلى جانب أسامة وذلك بناءً على رغبة الأخير ، أرغمتني على القيام ثانية ، مع عبارة من أحدهم ، وبكل أدب تقول " أنزلوا الناس منازلهم " ، سلمت على أسامة الذي قدم يده

للمصافحة وعلى يمينه أبي حفص المصري ، وعلى شماله شقيقه حسن ، ثم نجله محمد ثم أنا ، وسلسلة من الأفغان العرب .

بدا لي ابن لادن في أواخر الأربعينيات من عمره ، لكنه أقرب إلى النحافة ، بوزن لا يتعدى السبعين كيلو غرام ، وبطول يتجاوز المائة والثمانين سنتيمتراً ، صبغ لحيته بالحناء الأقرب إلى السواد ، ولبس اللباس العربي العقال ، مع وضع الجنبية اليمنى للتأكيد على أصوله الحضرمية ، وكان بشوشاً للغاية ، وفرحاً جداً ، ولعل فرحه أكثر بمقدم والدته وشقيقته ، وشقيقه الذين قدموا من المملكة بطائرة " أريانا " الأفغانية ، التي كانت عائدة لتوها من رحلة لنقل الحجاج الأفغان ، فالتفت إلى أحد مسئولي طالبان في المطار ، شاكراً إياه على مساعدته في نقل أهله بالطائرة ، وهو ينظر إلي : " إنه هو الذي قام بكل هذا العمل فجزاه الله خيراً . " وطالما مازحت شقيقه حسن بأني سألتقط له صورة في هذا المكان لنقلها إلى المشاهدين ، والقراء ، لكنه تمنع بكل تأكيد ، فقد تبدت منه الطيبة والأدب الجم في الجلوس والحديث .

جال فكري كثيراً عن الأسباب الخفية التي تجعل أفغانستان تحتضن طوال المرحلة الماضية من عمرها كل المطلوبين الدوليين رقم واحد من أمثال رمزي يوسف ، وأيمل كانزي وتاجر المخدرات الباكستاني المعروف أيوب أفريدي الذي فضل اللجوء إلى أفغانستان في العام 1996 خلال حكم طالبان ، ومن هناك توجه إلى الإمارات العربية المتحدة ليسلم نفسه إلى أميركا مباشرة ، متجاهلاً بذلك حكومته التي رأى تسليمها لباكستانيين وهما أيمل كانزي الذي كان متهماً بقتل عميلين تابعين للمخابرات المركزية الأميركية 1993 ، ورمزي يوسف المتهم بنسف مركز التجارة العالمي في العام 1993 . ويتردد في باكستان أن المخابرات المركزية الأميركية حين نقلته بطائرة خاصة من باكستان إلى أميركا ، وبينما كانت تحلق الطائرة فوق برج مركز التجارة العالمي ، قال له مرافقوه لقد حاولت أن تدمر هذا البرج فكان جوابه الساخر : " هل ما زال موجوداً في مكانه !!! "

لعل من الأسباب الرئيسية التي جعلت أفغانستان تحتضن هذه الشخصيات باعتقادي هو أن الشرعية التي كسبتها المنظمات الأفغانية طوال السنوات الماضية في الحرب

ضد السوفييت هي الشرعية الإسلامية ، وحتى في الحرب  
 ضد بعضها البعض إنما استمدت بقائها وشرعيتها من  
 الشريعة الإسلامية ، و الإسلام العالمي ، وعلى هذا فقد  
 رأى الجميع أن من حقه اللجوء إلى أفغانستان مادامت  
 قدمت نفسها كمحضن للمسلمين في الأرض ، للمشاركة  
 في الجهاد الذي لا تحده حدود ولا قيود ، وهو ما أفقدها  
 زعامتها القومية ، إذ أن كثيراً من الشخصيات الأفغانية  
 الكبيرة كانت ترفض حتى مجرد الاشتراك في الحكم ، لا  
 زهداً فيه ، وإنما لأنها ترى نفسها أكبر من أفغانستان ،  
 وقيادتها تتعدى حدود أفغانستان ، وهي التي رفعت راية  
 الإسلام الأممي ، ويؤكد على ذلك بعض المثقفين الأفغان  
 من أن فتح حدودهم أمام الإسلام العالمي ، أفقدهم  
 الزعامة القومية ما داموا كانوا يبحثون عن الجامعة  
 الإسلامية ، الأمر الذي أفقدهم هذا وذاك ، وقبل هذا كله  
 هناك فقدان الحكومة المركزية القوية القادرة على بسط  
 نفوذها على كل التراب الأفغاني الذي هو في الواقع نتيجة  
 حتمية للعامل الأول .

لاحظت أن الحفل قد غاب عنه زعيم تنظيم الجهاد أيمن  
 الظواهري ، والذي علله البعض من جماعة الأفغان العرب

المشاركين في الحفلة حينها بأنهم لم يدعوا الكثير من الأفغان العرب المنتشرين في المدن الأفغانية ، نظراً لمشقة السفر ، وإن كان ذلك لم يشف غليل السؤال الذي ظل عالقاً في ذهني ، وعلى الطريقة الصحافية أو المذهب الديكارتى في المنطق والذي يشكك في الكثير حاولت البحث عن جواب ، فبدأت أفكر بقضية الخلاف بين الشخصين ، وتساءلت هل ثمة خلاف بين الطرفين؟! خصوصاً و أن الطواهري بدأ يفقد الكثير من قوته وسطوته ببعده عن بلده ، و الانشقاقات التي دبت في صفوف الجماعة .

الجلسة كانت تضايقني كما تضايق الذي بجانبى ، نظراً إلى ضيق المكان ، ولكن نسيت نفسي مع الحفل الذي بدا ، وكأنه عرس يماني في هذه الصحراء القاحلة ، كان السؤال الذي أبحث عن جواب له ، وهو ما لم يكن يعني الكثيرين من المشاركين في هذا الحفل ، هو هل ظن هذا العريس ابن أسامة بن لادن والعائلة التي تعد من أصحاب أكبر الشركات في المملكة العربية السعودية أن عرس نجلها وأحد أبنائها قبل سنوات طويلة سيكون في هذه الصحراء ؟ وهل خطر على باله أنه سيكون ملاحقاً ومطارداً حتى في

يوم عرسه ؟ ولكن هذه الأسئلة التي تشغل بالي ربما لا تعني أحداً من هؤلاء الذين أمامي ، وانتقلت إلى قضية أخرى خصوصاً وقد بدا لي أن العرس لا يعنيني كثيراً ، إلا مجرد أنني حضرته وجلست بجانب ابن لادن ، والتقطت لي بعض الصور ، وهو ما سيساعدني في مهمتي الصحافية .

القضية الأخرى التي كنت مهوماً بها والتي ربما كانت آخر ما تخطر على تفكير الحاضرين ، هي ماذا لو أطلقت أميركا التي تبحث عن أسامة ليلاً ونهاراً بعض الصواريخ العابرة للقارات لتحيل العرس إلى مآتم ؟ فحين كنت في إسلام آباد قبل أيام من مقدمي إلى أفغانستان ، سألت بعض الخبراء العسكريين الباكستانيين و الغربيين سؤالاً أفادني الجواب عنه في هذه اللحظة بالذات ، وهو في حال عرفت الولايات المتحدة الأميركية بمكان أسامة بن لادن كم يستغرق الوقت الذي تحتاجه بين علمها بالمكان ، وتوجيه الضربة ؟ وتراوحت الإجابات بين الساعتين و الأربع ساعات ، وبدأت أحصي الساعات التي تمر علينا في نفس المكان ، فقد مرّت أكثر من أربع ساعات ، دون أن يحصل المكروه ، وحانت مني التفاتة إلى الخلفية التي يجلس أمامها أسامة بن لادن ، فرأيت خريطة العالم مرسومة على الجدار كله ،

والذي يبلغ ارتفاعه أكثر من ستة أمتار ويعرض عشرة أمتار ، لكن الخط كان عربياً واضحاً ، في إشارة إلى أن القاعدة نفسها هي التي رسمت هذه الخريطة ، وأبلغني من كان في المجلس ، أن من مصادفات القدر أن المقابلة التي أجريت مع أسامة بن لادن ، مع إحدى المحطات الأجنبية قبل تفجير السفارتين الأمريكيتين في تنزانيا وكينيا ، كان المصور قد ركز عدسة الكاميرا بشكل ربما غير مقصود على دار مدينتي دار السلام ونيروبي ، واللذان تعرضتا إلى الهجوم المعروف بعد فترة من تلك المقابلة ، وبدت ابتسامة خبيثة من محدثي ليقول إلى أين سيركز المصور الذي كان يصور العرس الآن ، وكأنه تلميح إلى أن عملية أخرى قادمة لا محالة .

كان الحفل قد بدأ ببعض الأناشيد و الأهازيج الإسلامية اليمنية التي لم أتمكن من فهم غالبيتها ، وربما سوى تكرار الحاضرين في أهازيجهم على الطريقة اليمنية " يوم اللي دمرنا على البحر كول " ، إذ كانت حادثة تدمير المدمرة طازجة ، وحديث الجميع ، و محل فخر كل من التقيناه من الأفغان العرب ، والذي كانت توضحه أكثر الأهازيج اليمنية ، إذ طغى على العرس بشكل كامل التقاليد



اليمنية ، وكأنك في تعز أو صنعاء أو صعدة ، فهل هي العودة إلى الجذور والحنين إليها حين رغب أسامة بالعودة إلى جذوره الحضرمية ، حتى ولو بالأفراح ما دامت العودة الفيزيولوجية غير متيسرة ؟!! أم أنها مجرد رسائل سياسية لمن يهمله الأمر عن قوته وسطوته ونفوذه في اليمن السعيد ؟!!

لم يكن يجلس إلى جانب أسامة قيادات معروفة من الطالبان ، وإنما بعض المسؤولين في المطار، والمسؤولين المحليين ، وحين سألتني أحد الحاضرين الأفغان عن عملي ، قلت له : صحافي ، وبدت نظرة انزعاج من أبي حفص المصري الذي كان على ما يبدو يتابع حديث الأفغاني معي ، إذ لم يكن يرغب في معرفة طالبان ، بأن القاعدة جلبت صحافيين لتغطية الحدث ، وهو ما قد يجرح طالبان التي تقول صباحاً ومساءً للعالم بأنها فرضت قيوداً على أسامة و القاعدة بشكل عام ، ولكن يبدو أن محدثي الأفغاني الذي لم يكن يتقن اللغة العربية لم يفهم جوابي ، وبعد أن فهمت نظرة أبا حفص المعبرة عن انزعاجه من جوابي بدأت بتفادي الجواب وإظهار أنني لا أتقن سوى اللغة العربية ، وهو ما أراح بالتأكيد أبو حفص خصوصاً بعد

أن تيقن أن الأفغاني لم يفهم علي ما أبلغته به ولا كلمة صحافي .

بدا لي حينها أن أسامة بن لادن و القاعدة بشكل عام ، ترغب باستغلال مثل هذه المناسبات لإثبات أنها ما تزال حاضرة وموجودة ، إذ أنها لا تستطيع خصوصاً زعيمها الابتعاد عن الجماهير ، فكيف إن كانت بعيدة عن الشعوب العربية كل هذه المسافة؟! وبالتالي تسعى القاعدة وعلى رأسها أسامة إلى إرسال رسائلها من خلال هذه المناسبات بعد أن حرمتها طالبان من التعبير عن أفكارها وخطوطها ورؤيتها للأحداث ، وهو ما أكده ابن لادن لاحقاً معي حين قال في حديثه لي : " لدينا مناسبات كثيرة وسنستغلها في التواصل مع العالم الخارجي ، بعد القيود التي فرضتها طالبان علي ومنعي من الحديث . " فقد ذكر لي أنه سعى إلى إقناع الملا محمد عمر من خلال زملائه في الحركة وبعض المتنفذين الباكستانيين المقربين إليه ، من أجل السماح له بالحديث في هذا الظرف ، وحتى أن وزير الخارجية مولوي وكيل أحمد متوكل نصح الملا عمر بالسماح لأسامة بالحديث في هذه الظروف ، بعد أن قطعت أميركا كل الخيوط معنا ، وبالتالي لم يعد أمامنا سوى الضغط

عليها من خلال أسامة ، وحينها فقط تذكرت ما قاله لي أحد الأفغان الكبار في السن في جلال آباد شرقي أفغانستان على الحدود مع باكستان بأن الأفغاني لديه ورقتين أساسيتين يمكن بهما الضغط على المجتمع الدولي بشكل عام وأميركا بشكل خاص ، وهاتان الورقتان هما : المخدرات وأسامة بن لادن وحالما نتجرد منهما ، سنكون مثلنا مثل راوندا أو بورندي لا أحد يأبه بنا ، فإن كان العالم تحرك لتحرير الكويت بسبب مخزونها النفطي ، فعندنا ما هو أهم من ذلك ، وهو الإرهاب والمخدرات ، وعلينا عدم التخلي عنهما بسهولة ، وبدون مقابل حقيقي وملموس .

علمت لاحقاً من بعض مصادر الأفغان العرب الذين كانوا في المكان ، أن أسامة سعى في محاولة منه مسألة الضغوط الطالبانية عليه من خلال لقاء الصحافة في مناطق بعيدة عن حاضرة طالبان " قندهار " ، مثل جلال آباد حيث نفوذ زعيم الحزب الإسلامي مولوي يونس خالص واسع فيها ، ويتمتع بعلاقات وطيدة مع أسامة منذ أيام الجهاد الأفغاني ، أو في ولاية بكتيا حيث وزير الحدود والقبائل الطالباني الشيخ جلال الدين حقاني ، والذي يتمتع بعلاقات وثيقة مع ابن لادن ، ويعد ملكاً في منطقتة ،

خصوصاً و أنه ينحدر من قبيلة زادران المعروفة في خوست ، و التي تحسب لها الحكومات الأفغانية حساباً كبيراً ، و يضاعف من أهميته علاقته الوطيدة مع الجماعات الإسلامية الباكستانية ، و كذلك مع الأجهزة الأمنية في باكستان منذ أيام الجهاد الأفغاني . ولعل هذا ما يفسره إعلان الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والنصارى في أيار من العام 1998 من قبل ابن لادن والظواهري وشخصيات باكستانية في منطقة خوست وليس في قندهار أو مناطق تتمتع طالبان والملا محمد عمر بنفوذ لافت فيها .

كان العرس اليمني الذي استغرق أكثر من أربع ساعات يتواصل وسط الأناشيد و الأهازيج والعروضات اليمنية ، مع التكبير و المزاح المعروف في هذه المناسبات والذي لا يخرج عرس القاعدة أو الأصوليين بشكل عام عن إطار الأعراس العادية مع الالتزام ببعض الأخلاقيات والحدود الشرعية .

كان الحاضرون يعمدون إلى تقشير البرتقال للعريس ، أو قذف الحلوى في فيه مع عبارة " كل وتغذى يا عريس فأمامك مشوار طويل وعمل شاق وليلة ليلاء " يقابلها

العريس الصغير بالسن بابتسامه مثل ابتسامه عمه أبي حفص ، وكذلك والده أسامة .

كانت وجوه القوم كلها فرح وابتسامات وضحكات وقفشات ، وكان الحاضرين الذين تعدى عددهم الخمسمائة شخص ليسوا مطلوبين أحياء أو أموات لأكثر من دولة ، أما اللباس فكان أفغانياً موحداً ، ولم يشذ عن لبس العمامة سوى القليل من الأفغان العرب ، وبكل تأكيد فقد غابت المرأة عن حفلة العرس ، وإن كانت هي الحاضر الأول والأخير ، فهي سبب هذا الحفل كله ، وما أن أخذ أسامة بن لادن الكلمة ، حتى لكان القوم على رؤوسهم الطير ، وانتهى عهد الضحك والبسمات ، وانتظر الجميع الأوامر والتوجيهات ، فالكل يحترمه ، ويقدره ، بل الجميع هنا في هذه الصحراء وفي هذه البلاد بسببه ، لكن كلمة أسامة بن لادن لم تكن خطبة ، وإنما كانت قصيدة نظمها له أبو حفص الموريتاني الشخص الثالث في القاعدة كما تقول مصادر الأفغان العرب ، وكان أبو حفص الموريتاني قد نظم معظم القصائد التي ألقاها أسامة قبل وبعد هذه القصيدة ، كما أبلغتني بذلك مصادر الأفغان العرب في زيارتي تلك ، وهو ما قاله لي أيضاً أبو حفص الموريتاني شخصياً ، فقد

اعترف ابن لادن في حديثه الجانبي غير الرسمي معي بالقول : " إنني كما يعرف إخواننا لست من فرسان الكلمة " ولكن يبدو أن كلماته التي كان يلقيها في الأشرطة أثبتت قدرته الكبيرة على الحديث الارتجالي دون أخطاء أو تلثم أو تأتأة أو نحوها .

بدأ ابن لادن بقصيدة مطولة من 62 بيتاً ألمح فيها إلى مسؤوليته على عملية تدمير المدمرة كول في ميناء عدن ، وربما لجأ إلى الشعر نظراً إلى أنه حمّال أوجه ، وبالتالي في القانون والقضاء يمكن تفسير البيت بأكثر من تفسير ، وهو ما قد يعفيه من المسؤولية القانونية ، على بعض الإشارات و التلميحات ، التي قد يتضمنها الشعر العربي ، ومن ضمن الأبيات التي تحدث فيها عن كول وألمح فيها على مسؤوليته إذ قال :

وإخوانكم في الشرق شدوا سروجهم  
شددت والنجائب ضمّر  
وكابول

رفاقكم من بعدكم لم تلتن لهم  
سيف ولا لان خنجر  
قناة ولا

يخوضون بحر الموت لا يرهبونه ومن لا  
 يخاف الموت لاشيء يحذر

كانت كاميرتان تابعتان للقسم الإعلامي لتنظيم القاعدة  
 أمام أسامة بن لادن تصور الحفل كله ، لكن بكل تأكيد  
 تحاشت تصوير المشاركين الذين كانوا حذرين من التقاط  
 أي صورة لهم ، رغم أن جماعتهم هم الذين يصورون ،  
 ولكن الكاميرا كانت تركز فقط على ابن لادن ،  
 والشخصيات المعروفة ، بالإضافة إلى الخلفية التي كان  
 ابن لادن يجلس أمامها وهي خريطة العالم .

لعل أهم ما في الحفل بالنسبة إلي كصحافي هي هذه  
 القصيدة التي سجلها قسم الإعلام التابع للقاعدة مع  
 لقطات لي مع ابن لادن والعرس ، وذلك كإثبات على  
 حضوري الحفل ، ولكن اللافت الذي استوقفني لاحقاً هو  
 دخول ابن لادن إلى الغرفة التي كنت فيها مع بعض أركان  
 القسم الإعلامي في تنظيم القاعدة ، وقوله لنا : " أعتقد  
 أنه من المناسب أن نسجل القصيدة مرة أخرى في صباح  
 اليوم التالي وفي نفس المكان فلعلها تكون أفضل " ، فقد  
 بدا لي كم أسامة يحب نفسه ، وكم يحب أن يظهر في  
 صورة يراها مناسبة ، فتكرار التصوير لا يفعله إلا القلة من

الناس الذين يفهمون ويدركون أهمية العلاقات العامة ، والاتصال مع العالم الخارجي ، من خلال هذه الوسيلة الإعلامية ، وهو ما يعطي انطباعاً واضحاً على الاهتمام الذي يوليه ابن لادن إلى الإعلام واستعداده لإعادة تسجيل القصيدة ، بل وجمع بعض العناصر أمامه ليعيدوا التكبير الذي تخلل إلقاء القصيدة ذاتها في العرس ، وذلك حتى لا تتغير الأجواء و بالتالي يظهر التسجيل الثاني وكأنه هو الأول نفسه ، ولكن رغم أنه سجل القصيدة ثانية وسط أجواء تمثيلية توحى للمشاهد أو السامع على أنها أقيمت أمام حشد كبير إلا أن قسم الإعلام فضل التسجيل الأول ، وهو ما وافق عليه ابن لادن أيضاً ، وكان القسم الإعلامي قد سجل لي بضع دقائق على شريط فيديو ، وسلمني الشريط كونهم لم يسمحوا لي بالتصوير بنفسني .

أما الواقعة الأخرى التي أثبتت لي كم أن أسامة يحب أن يظهر في صور معينة ، ويكره صوراً أخرى ، وهي أنني حين صورته على كاميرا ديجيتل بقرص كومبيوتر وبدت رقبتة مائلة قليلاً إذ أن رقبتة ربما تظهر في الصورة أنحف من المطلوب ، نظر إلي بابتسامة وهو يقول : " هل يمكن أن نصلح الرقبة وأقف مستقيماً وليس مائلاً؟ " فأعدنا



الصورة على الكاميرا وحين أظهرت له الصورة وافق عليها وقال : " هذه أفضل من تلك . "

ومع انتهاء إلقائه لقصيدته بدأ نجله الأصغر حمزة بإلقاء قصيدة كانت مؤثرة ، شرح فيها حالة الغربة التي يقضيها والده ، والعائلة مع بعض الأبيات التي نالت من السودان ، والتي تخلت عنه كما تقول ، حين كان فيها وعقب القصيدة الثانية أذن لصلاة العصر فصلى الحاضرون جماعة وإمامهم ابن لادن .

ما أن فرغت الصلاة حتى بدأ فرش السفرة من أجل تناول الوليمة التي تضمنت الأرز مع اللحم وعصير البندورة وهو طعام خليجي أو ربما يماني ، إذ تناول الجميع الطعام بينما كان بعض من الأفغان العرب واقفين على رؤوس الضيوف من أجل خدمة كل من يطلب مزيداً من الأرز أو اللحم أو الماء ونحوه ، تبع ذلك توزيع بعض الفواكه مثل البرتقال والتفاح ثم الشاي ، لتختتم الحفلة بتوزيع السكاكر من الحلويات ، فالعراضة مع العريس حيث تجمع حوله العشرات من الشباب ، وهم يحملونه وتتقاذفه الأيادي ، وهي تردد الأهازيج اليمينية التي لم أفهم منها سوى النذر اليسير ، وصاحب ذلك كله الدبكة ، إذ التفوا على شكل دائرة

ليرقصوا مع العريس ، وظلت الأصوات تهتف بالعريس وتهنئه وتبارك له في زواجه ، حتى دخل السيارة التي أقلته إلى بيت الوالد ، وركبنا نحن أيضاً في سيارة " بيك آب " إلى بيت قريب من بيت ابن لادن الذي نزلت فيه والدته لنؤدي بعدها صلاة المغرب ويجلس بيننا لبعض الوقت .

كان البيت القريب من مدينة قندهار وإن كان في ضواحيها من الشرق واسعاً جداً ويضم أيضاً بيت أسامة الخاص الذي لا يرى منه سوى السور الطيني ، بينما خارجه غرف للضيوف ، وكذلك مسجد يصلي فيه مع حراسه ، وبعض الموظفين التابعين له من العرب ، وبعد أن تدخل من السور الخارجي تصادفك بركة ماء كبيرة بسبب الأمطار والسيول التي اجتاحت بعض مناطق قندهار في تلك الفترة ، وأمام هذه البركة الكبيرة أربع غرف للضيوف ، وأمام الغرف على الجهة الأخرى من البركة الحمام ، بينما قبع في آخر الغرف سخان الماء الذي يعد أحد النعم الكبيرة في أفغانستان ، يعرف ذلك كل من زار تلك المنطقة ، خصوصاً وأن المنطقة معروفة عنها طقسها البارد والجاف و

القارس جداً ، إذ غالباً ما تصل فيها درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر في الشتاء .

### جولة في فكر أسامة بن لادن :

ما أن جلسنا في إحدى غرف الضيوف مع أبي عثمان وبعض الأفغان العرب ، عقب صلاة المغرب ، حتى دخل أسامة بن لادن إلى الغرفة ، وبالفعل لم أكن أتوقع أنه سيأتي أبداً إذ أنه في مثل هذه الأوقات يكون الوالد و الوالدة مشغولين في العرس وما بعده ، فالمثل العربي ينطبق على أم العروس وليس على أم العريس ، ولكن مع هذا جلس معنا قرابة الساعة ، تحدث في أمور عامة مع جماعته سائلاً عن أحوالهم وأوضاعهم ، ومتطرقاً إلى أمور ربما تكون في غاية الأهمية لفهم واستكناه عقلية وأفكار ابن لادن ، والتي أسعى هنا إلى عصر ما في مخي وذاكرتي لتذكر تلك الأيام من لقائنا معه ، إذ أنه تطرق إلى أمور عدة ، وقد تبدو غير مترابطة ، ولكنها تبقى مهمة في فهم عقليته والطريقة التي يتحرك بها في تلك المناطق

النائية والقصية عن عالم القرن الحادي و العشرين ، لكن كل أحاديثه معك لا يشعرك أنه يعيش خارج المكان والزمان ، فهو قريب منهما جداً ، وكأنه يتابع أحداث العالم لحظة بلحظة من خلال جهاز إعلامي يرصد كثيراً من القنوات الفضائية و الإذاعات والصحف ، ومواقع الإنترنت .

### الحل بالتخلي عن الحدود المرسومة :

حانت من أسامة نظرة إلى خريطة ضمن جملة خرائط للعالم العربي والإسلامي ، وبعضها خرائط لدول معينة قابعة في زاوية من زوايا الغرفة ، وكأنها معدة لمحاضرة أو درس ما يتم التحضير له ، وذلك لعقد سلسلة محاضرات يستعد ابن لادن على ما يبدو لإلقائها على أتباعه في المخيمات التي يجري استقبال المتطوعين فيها ، والتي تنقسم أيضاً إلى درجات للمبتدئين ، والمقربين ، والمقربين جداً الموثوق بهم حسبما فهمت من المقاتلين العرب في تلك الديار ، والمقربون جداً يمكن وصفهم بأنهم

أصبحوا أعضاء عاملين في القاعدة ، التي يظهر لي أنها عملت على خطين متوازيين ، تدريب لكل المسلمين الذين قدموا إلى أفغانستان ، وربما عاد البعض منهم إلى بلاده ، وهو على أمل أن يشجع الآخرين من أبناء جلدته على القدوم إلى أفغانستان ، أملاً كما يقول أفرادها : على إحياء " الفريضة الغائبة ، وهي الجهاد في نفوس الأمة الإسلامية " ، وهناك تدريب للخوادم الذين تلمس منهم القاعدة قناعة في أفكارها ومبادئها ، وطريقة عملها ، ويمكن الركون والاعتماد عليهم .

أعود إلى خريطة المملكة الأردنية الهاشمية ، والتي بدأ أنها مرسومة من قبل القاعدة ، اقترب منها أسامة ، وحاول تثبيتها في مكان يتمكن من خلاله شرح أمر ما يقلقه ويستولي على أفكاره ، وبدأ يشير إلى موقع الأردن وبعض التوضيحات المكتوبة على الخريطة منها ، كمية المياه التي تسقط على المملكة سنوياً ، وقال : " يعتقد الكثيرون أنه برحيل شخص أو زعيم ما ، والمجيء بزعيم آخر ، أن الأمور ستتغير إلى الأحسن ، أو إلى الأسوأ ، ويتجاهل أو يتناسى هؤلاء الأوضاع الطبيعية و الجيوستراتيجية التي تحيط بهذه الدولة أو تلك ، فالموارد

الطبيعية المتوفرة لأية دولة تجعلك تفهم قوة وقدرة هذه الدولة على مقاومة الضغوط الخارجية ، وبالتالي تكون نظرة هذا النوع من الناس التحليلية للأمور قاصرة وغير مكتملة ، فقبل التوقع من أحد أن يفعل شيئاً لشعبه ولأمتة ، لا بد من دراسة الأوضاع الجغرافية لبلده ، وموارد الدولة التي يحكمها ، وكذلك قدرتها على الاعتماد على النفس ، فضلاً عن الظروف الدولية التي تحيط بهذه الدولة أو تلك ، " وعاد أسامة إلى الأردن الذي كان مثاله وزاد : " وصول شخص مثل الملك عبد الله إلى سدة الحكم لن يغير من الأمور ، ما دامت الأردن كأردن ، ليس لديها تلك الموارد التي تمكنه من الوقوف على رجليه ، وهذا ينطبق على كل البلاد العربية والإسلامية التي لا تستطيع لوحدها أن تقوم كدول مستقلة ، مهما سعت إلى ذلك ، فلا الواقع ، ولا التاريخ ، ولا الجغرافيا ، يساعدها في ذلك ، والحل الوحيد هو بالعودة إلى وحدة الدول العربية ، و الإسلامية ، وهو ما كانت عليه قبل سقوط الخلافة العثمانية ، فقد عشنا سوية مع بعضنا لقرون ، بينما هذه الدول المفروضة الحدود عليها ، لم يتعدى عمرها العشرات من السنين ، وبذلك

يمكن تكوين منظومة متكاملة بعيداً عن الهيمنة الغربية ،  
 وقادرة على وقف ذلك الانحدار في حياتنا ومستقبلنا ."  
 ويستكمل أسامة الشرح فيقول : " الطريق الوحيد لذلك هو  
 الجهاد ضد القوى الغربية التي سعت إلى فرض هذا الواقع  
 المر على الأمة العربية والإسلامية منذ سقوط الخلافة  
 العثمانية في 1924 ، دون أن يظهر منها سوى الإصرار  
 على مزيد من الهيمنة و التسلط ، وعدم منحنا حريتنا  
 وحقنا في العيش " .

ابن لادن ... الانتفاضة ينبغي أن تتواصل :

الموضوع الآخر الذي ناله كثير من الشرح والتحليل ،  
 كان الموضوع الحي حينها ، وهو الانتفاضة الفلسطينية  
 الثانية ، والتي انطلقت في العام 2000 ، وكان ابن لادن  
 يتحدث بفخر لا يوصف عن أطفال الحجارة الذين - بنظره -  
 " أخرجوا الأنظمة العربية التي سعت إلى وأد الانتفاضة  
 قبل أن تنتقل عدواها إلى البعض من دولهم " وتذكرت  
 حينها كلام مسؤول باكستاني رفيع سابق نقل لي ما دار

بينه وبين الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ، إذ أبلغه الأخير بأنه بينما كان في إحدى الدول العربية خلال أيام الانتفاضة الأولى التي بدأت في العام 1987 لم يشاهد على تلفزيون تلك الدولة أي مشاهد للانتفاضة ، وفي الصباح حين التقى زعيم تلك الدولة سأله عن سبب عدم بث مشاهد أطفال الحجارة وهم يقذفون القوات اليهودية بالحجارة ، فأجابه ذلك الزعيم بجواب ربما لم يفاجأ ياسر عرفات كونه خبر الكثير من السياسات العربية ودهاليزها بالقول : " هل تريدني أن أعلم شعبي كيف يضرب هذا القصر بالحجارة . "

كان أسامة يريد أن يبقى على زخم الانتفاضة الشعبية الفلسطينية ، ويدعو إلى مزيد من الضربات ، والعمل على إبقاء وهجها مهما كانت الظروف ، وعدم التفريط بها ، وإضاعتها كما حصل خلال الانتفاضة الأولى ، ولا يخفي تحسره على عجزه مع أفراد القاعدة عن المشاركة بالقتال في أرض مسرى الرسول " صلى الله عليه وسلم " كما قال لي .

سعى أسامة بعدها بأشهر من خلال رسالة إلى مؤتمر ديوبند الذي عقدته المدرسة الديوبندية في باكستان إلى



مناشدة الباكستانيين لدعم الانتفاضة بكل السبل ، ووزع أنصاره خلال المؤتمر شريط فيديو يطالب بالبيعة لنظام الإمارة الإسلامية الطالبانية بزعامة الملا محمد عمر ، كونها الحكومة الشرعية في الأرض ، ومما قاله في بيان مكتوب حينها : " ... وأنتم تعلمون أنه قد قيض الله لهذه الأمة في هذه الأيام العصيبة قيام دولة إسلامية تطبق شريعة الله ، وترفع راية التوحيد ، هي إمارة أفغانستان الإسلامية بقيادة أمير المؤمنين ملا محمد عمر حفظه الله . فواجبكم دعوة الناس إلى لزوم هذه الإمارة ، ونصرتها بالنفس والنفيس ، والوقوف معها في مواجهة هذا التيار الجارف من الكفر العالمي ، وتحقيقاً لذلك نرجو أن تضمنوا توجيهات المؤتمر ، الدعوة إلى نصره الإمارة الإسلامية في أفغانستان ، بكل الوسائل الممكنة ، وبالنفس ، وذلك بتحريض الشباب على الجهاد ، والإعداد في أفغانستان ، فالجهاد في مثل حال الأمة اليوم أكد فروض الأعيان ، وبالمال ، وذلك بدعوة الأغنياء إلى إنفاق أموالهم لهذه الإمارة ، ودفع زكواتهم إليها ، واستثمار تجاراتهم فيها ، وباللسان بإصدار الفتاوى في شرعية هذه الإمارة ، ووجوب نصرتها . وبهذه المناسبة فإني أؤكد لكم وللمسلمين في العالم ، أنني أدين الله

بوجوب مبايعة أمير المؤمنين الملا محمد عمر ، وإنني قد بايعته بالفعل عملاً بالنصوص الشرعية الكثيرة ومنها حديث حذيفة ."

لكن المؤتمر الذي أداره زعيم جمعية علماء الإسلام الباكستانية مولانا فضل الرحمن ، لم يتم بشكل رسمي بتوزيع الشريط أو قراءة الرسالة ، حتى لا يخرج نفسه أمام الحكومة ، وغير الحكومة ، خصوصاً وأن فضل الرحمن شخصية سياسية ، ودينية ، معروفة عالمياً ، ولديه ارتباطات دولية ، وبالتالي مثل هذا الأمر ، قد يسبب له إحراجات كثيرة ، غير أن هذا لم يحل دون توزيع الشريط و البيان داخل المؤتمر الذي غص بمئات الآلاف من المناصرين وسط حضور من دول عربية والهند وغيرها من الدول الآسيوية .

### تكريس الكراهية للأميركيين :

لحظت أن أسامة يود استغلال أي معطى دولي ، أو ظرف أو حدث ما لتثبيت الكراهية ، و الحقد على

الأميركيين بشكل خاص ، و الغربيين بشكل عام ، مشدداً على أن مسألة كره الأميركيين لا تأتي بين عشية وضحاها ، وإنما هي عبارة " عن عملية تراكمية لا تأتي بيوم وليلة ، ولا بد أن تتوافر ظروف وقوة دفع إعلامية وإقناعية للمواطنين بالخطر الأميركي المحقق بالأمة الإسلامية المسلمة ، ضد التوجهات الغربية و الأميركية في بلاد شعبي ، وعلى رأسها الانحياز للمسلمين " حسب قوله ، مدللاً على ذلك بضرب الأمثلة التي لن يعدمها في مثل هذا الحال ، وعلى رأسها الانحياز الأميركي للكيان الصهيوني الغاصب ، وكذلك الوضع في العراق وكشمير وغيرها من بقاع الأرض ، ولعل هذا ما تطلعت إليه بعض الأوساط الغربية في فترة متأخرة ، حين كتبت الـ *وول ستريت جورنال* في نيسان من العام 2001 نقلاً عن مصادر أميركية بأنها تعتزم التقليل من شأن ابن لادن ، وعدم الاكتراث به ، لأن الحديث عنه سيزيد من شعبيته في العالمين العربي ، و الإسلامي ، وعززت ذلك واشنطن بسياسة تهدف إلى احتواء حركة طالبان عبر زيارة ثلاثة من مسؤوليها إلى قيادة الحركة في قندهار في 12- 4 - 2001 ، بينما التقى وزير خارجية الحركة مولوي وكيل وأحمد

متوكل في الدوحة مع عضو الكونغرس الأميركي المعروف روار بكر أملاً في أن تتم عملية الاحتواء ، وخشية من إطلاق الحركة ليد أسامة بن لادن بعد الضغوطات الأميركية المتزايدة عليها ، إذ أسمعني أحد مسئولي طالبان أن أحد القادة من الحركة التقى أحد كبار الاستخبارات المركزية الأميركية المتخصصين في منطقة الخليج العربي ، وهدده بإطلاق يد أسامة بن لادن في حال وجهت أميركا أي ضربة إلى الحركة ، خصوصاً و أن احتمالات توجيه ضربة أميركية لأفغانستان إثر عملية كول تزايدت .

وتذكرت حينها ما قاله لي المصور النصراني الباكستاني أونيل عدنان حين كان يقوم بتصوير مقابلة لأسامة بن لادن قبل سنوات في قندهار ، بأن أسامة حين عرف بأني نصراني أكرمني كثيراً ، رغم أنه كان يوم رمضان لدى المسلمين ، لكن لم يمنعه ذلك من إعداد بعض الطعام والفواكه لي ، وهو أمر أقدره كثيراً كونه يحصل في شهر الصيام لدى المسلمين ، فأنا نصراني ، ولكنني تربيت في بيئة مسلمة هي باكستان ، ومازلت أتذكر ما قاله لي أسامة حينها بأنه " لست ضد النصارى ، وإنما ضد الأميركيين

الذين يفرضون نظرتهم ونسختهم على العالم برمته مسلمه وكافره " .

تحدث ابن لادن بزهو وفخر عن هبة الشارع العربي والإسلامي لصالح الانتفاضة الفلسطينية ، وضد الانحياز الأميركي السافر إلى جانب يهود ، وكأن لسان الحال يقول : بأن ما قمت به طوال السنوات الماضية من تحريض " الأمة على الجهاد و العداة ضد أميركا أسفر عن نتائج إيجابية . " فقد عاصرت أنا شخصياً الجهاد الأفغاني خلال الثمانينيات وما زلت أتذكر دعوته إلى مقاطعة البضائع الأميركية في وقت مبكر جداً ، بينما كان المجاهدون الأفغان يتلقون الدعم من الاستخبارات المركزية الأميركية في قتالهم ضد الاتحاد السوفيتي .

وقدر أسامة الدعم الشعبي العربي إلى أفغانستان حسب ما نقل عنه الدكتور أيمن الظواهري في كتابه " فرسان تحت راية النبي " أن الدعم الشعبي العربي لتسليح المجاهدين خلال السنوات العشر من الجهاد الأفغاني وصل إلى 200 مليون دولار أميركي ، عدا عن دعم المنظمات الإغاثية العربية التي كانت تنفق بلا حساب على مجالات

الخدمات الاجتماعية للمحتاجين والمهاجرين والأيتام ،  
وكذلك أقسام التعليم والصحة وغيرهما .

كشفت أسامة في تلك الجلسة معي عن أمر مهم  
باعترافي ، وهو أن الصحافيين الأميركيين أرسلوا عدة  
أسئلة عن طريق السفارة الأفغانية في إسلام آباد إليه  
وبدا لنا والكلام لأسامة ، أن الأميركيين يريدونني أن أتكلم  
في هذا الظرف بالذات لكن الطالبان رفضوا ذلك ،  
مشددين على أنني ما زلت ممنوعاً من الحديث ، ومن ضمن  
الأسئلة التي وجهت إلى أسامة عبر السفارة الأفغانية  
مشيراً إلى أنها أسئلة غير بريئة ، وهي أسئلة من  
السلطات الرسمية الأميركية ، ولم تكن من الصحافة ، من  
بينها ما هو موقفك لو انسحبت القوات الأميركية الآن من  
الخليج ؟ وماذا كانت سياستك لو انسحبت القوات الأميركية  
من الخليج حال إرغام الرئيس العراقي صدام حسين على  
الانسحاب من الكويت ؟ وبالتأكيد فإنه لم يتمكن من سماع  
وجهة نظر أسامة في هذين السؤالين المهمين ، إذ أنه  
سريعاً ما انتقل إلى أسئلة ومواضيع أخرى .

## ابن لادن والإعلام الفضائي العربي :

أما الموضوع الآخر البارز في حديث ابن لادن خلال تلك الجلسة القصيرة ، فقد تركز على الإعلام العربي ، وتحديدأ الفضائي منه ، الذي لعب بنظره دوراً هاماً في عكس ما يجري لأطفال الانتفاضة داخل فلسطين ، الأمر الذي سيثجع على تفاعل الشعوب العربية والإسلامية مع أحداث الانتفاضة بشكل خاص ، و الأحداث الإسلامية بشكل عام ، وبدت إشارات من أسامة في الجلسة تشير إلى رغبته بالانفتاح على الفضائيات العربية ، وتحديدأ إم بي سي وتلفزيون أبو ظبي ، بعد أن كانت أشرطته تتناقلها قناة الجزيرة ، وإن كان بنظر مساعديه أن سبب اختيار الجزيرة هو نشرها وبثها كل ما يرسل بعكس المحطات الأخرى التي تتوقف عن نقل بعض اللقطات ، كما حصل حين أرسل إليها شريط خطابه إلى مؤتمر ديوبند فلم ينشر لا في إم بي سي ولا في تلفزيون أبو ظبي حسب مصادر عدة علمت بها لاحقاً ، وكذلك حادثة عدم بث إحدى الفضائيات العربية كل شريط اعترافات الجواسيس العرب

الذين تم إلقاء القبض عليهم من قبل طالبان والقاعدة في العام 2000 .

طوال الجلسة القصيرة هذه كان أسامة هادئاً للغاية ، يتوقف أحياناً عن الحديث ليطلب شربة ماء في غرفة بسيطة ، تفتقد إلى أبسط الأثاث الذي يليق بشخص عاش حياته في أسرة معروفة ، وميسورة ، ولم يظهر لي في تلك الجلسة أن أسامة تعب أو مريض كما يشاع بين الفينة والأخرى ، إذ جلست بجانبه في العرس لأكثر من أربع ساعات فلم يغير جلسته ، سوى مرات معدودة ، ورغم أنني لست طبيباً إلا أن وجهه وجلسته وحديثه معي طوال تلك الفترة لا يوحي بأنه مريض أو متعب ، وأعتقد أن أمر ملاحظة فلان تعبان أو مريض لا تحتاج طبيب أو نحوه ، بعكس ما حاولت بعض الأجهزة تصوير وضعه الصحي .

وبالعودة إلى الحياة البسيطة المتقشفة التي يعيشها أسامة يقول كل الذين يعرفونه بأنه ربي نفسه وأولاده منذ أن كانوا في السعودية على الخشونة وعدم التكلف ، انتقل أسامة بعد أن تحدث عن الأسئلة ورفض طالبان السماح له بأي حوار صحافي إلى الحديث عن صحافي أميركي ، وبدا لي منتشياً ووثقاً ومبدياً ارتياحاً لما سيرويه لي وقال : "



جاء صحفي أميركي إلى هذا المكان ، وحين بدأ الحديث بيني وبينه ، أطفأ جهاز التسجيل ، وأمر المصور أن يتوقف عن التصوير ، فلعله أخطأ العنوان كما قال ، ثم التفت إلي وقال لي ، هل أنت أسامة بن لادن بالفعل فقلت نعم ، فرد : لا أصدق ... كنت أتخيل أنك عدواني وقاس وشديد اللهجة ، بينما تتحدث بكل هدوء ، وبساطة ، وهو عكس ما كنت أتخيله قبل وصولي إلى هنا ولقائي بك ."

لا أدري ماذا كان يقصد ابن لادن من حديثه لي عن هذه القصة ، لكن ربما كان يسعى إلى إقناع العالم أنه ليس بالشرير الذي حاولت القيادة الأميركية تصويره وإبرازه ، ولا يرث " إمبراطورية الشر " كما كان الرئيس الأميركي رونالد ريغان يطلق على الاتحاد السوفيتي السابق ، ولا علاقة له بمحور الشر الذي أطلقه الرئيس الأميركي الحالي جورج بوش الابن على كل من إيران والعراق وكوريا ، وإنما هو شخص وديع لديه رسالة هي القضاء على أميركا ، وتفتيتها إلى 52 دولة كما يقول مستشهداً ومدلاً على ذلك بقدرات المجاهدين الذين فككوا الاتحاد السوفياتي ، ومضيفاً دليلاً آخر " لقد أبلغنا الأخوة الذين شاركوا في القتال ضد القوات الأميركية في الصومال ، من أن قتال

الجندي الأميركي أسهل بكثير من قتال الجندي السوفييتي ، فالأخير أشجع بكثير من الجندي الأميركي ، ولذا نحن نعتقد أن هزيمة أميركا أسهل من هزيمة الاتحاد السوفييتي ."

كان الجو لا يسمح لي بطرح أي سؤال على الشيخ أبو عبد الله كما يدعو أتباعه ، فقد التزمت بذلك حتى لا أخرج أحداً ، وإن كانت الحاسة السادسة الصحافية تدفعني إلى قلب الطاولة وتغيير قواعد اللعبة ، لكن سريعاً ما كنت أعود إلى قواعد اللعبة الاجتماعية ، التي وافقت عليها قبل بدء الرحلة و اللقاء مع رفيقي أبي عثمان ، وإلاّ قد أفسد حينها كل شيء ، ولا أحصل حتى على بضع دقائق من شريط العرس كي أظهرها للعالم ، وأبين أنني حضرت هذه المناسبة التي يحلم بها أي صحافي يطمع بالسبق والشهرة .

قبل مغادرته روى لي قصة طريفة عن أحد أشقائه ، مفادها كيف أن وفداً كورياً جاء إلى المملكة ، ليتفاوض مع شركة شقيقه من أجل أعمال تجارية ، فسأل أحد أعضاء الوفد على الطاولة أحد إخواني عن ماهية صلة القرابة التي تربطك مع أسامة بن لادن فسكتوا جميعاً خشية أن

تفسد عليهم الصفقة التجارية ، ثم تشجعوا وقالوا لهم بأنه شقيقنا ، فوقفوا على أرجلهم ليؤدوا التحية ، وحينها ازدادت ثقة إخواني بأن الوفد ليس من الغاضبين علي ، أو أنني لن أفسد عليهم صفقتهم التجارية التي يعتزمون التوصل إليها مع الكوريين ."

### تلميحات عن امتلاك أسلحة غير تقليدية :

يعي أسامة بن لادن كل كلمة يتفوه بها ، وخصوصاً إن كان أمام صحافي مثلي سينقل عنه كلمات ولمحات وجهه ، وحركات يديه ، فكيف بكلامه؟! ولكن ما شعرت من خلال الحوار معه أن الرجل ربما يملك سلاحاً غير تقليدي ، ولو سعيت إلى تجميع ما قاله لي في هذا الصدد لن أفجح في إثبات ذلك ، ولكن هذا هو الانطباع الذي ساد خلال تلك الزيارة ، فالظاهر أن أسامة يريد أن يرهب أعدائه من الأميركيين ، وربما غيرهم ، من خلال هذه الرسائل ، بالإضافة إلى كسب ثقة مناصريه ، والمسلمين المؤيدين له بشكل عام ، وذلك في قدرته على منازلة الأميركيين ، ما

دام التفوق بين الطرفين يكمن في الأسلحة غير التقليدية .

كان المسؤول العسكري في القاعدة أبو حفص المصري قد قال لي متسائلاً قبل لقائي أسامة : " هل من الصعب الحصول على مثل هذه الأسئلة؟! فنحن نقيم في منطقة محاطة بكل أنواع أسلحة الدمار الشامل ، وبنظرة سريعة إلى خريطة المنطقة يتبين ذلك بوضوح ، فدول وسط آسيا مليئة بذلك ، وتمتلك كل أنواع السلاح غير التقليدي ، وكله معروض في السوق السوداء ، ولمعان الدولار يدفع أي شخص هناك إلى بيع ما لديه من هذا السلاح ، والهند كذلك ، وهناك باكستان ، وكذلك الصين ، وإيران ، وأغلب هذه الدول لديها عداوات معينة ونسبية مع أميركا - الأمر الذي يسهل على التعاون معها ، والاستفادة من هذه العداوات والتناقضات فيما بينها ، وحتى لو نسينا موضوع الدول وعداواتها لأميركا ، فهناك جهات حكومية أو غير حكومية نافذة في هذه الدول لا ترغب بالهيمنة الأميركية على المنطقة ، وليس من مصلحتها لا القريبة ولا البعيدة ذلك أيضاً ، وبالتالي فليس من الصعب على أمثالنا الحصول على هذه الأسئلة ."

احتوت القاعدة في صفوفها كثيراً من مقاتلي الأوزبك ممثلين بحركة النهضة الإسلامية الأوزبكية بزعامة جمعة منجاني ، ومحمد طاهر وغيرهما ، وكذلك الطاجيك والشيشان والتتار الذين ما تزال روسيا تحكمهم حتى الآن ، كذلك التركستانيين الذين ما يزالون تحت حكم الصين ، وغيرهم ، ومثل هؤلاء يفهمون تماماً بلادهم وتحديداً مناطق وسط آسيا بيئة وسياسة وجغرافية ، ولذا فتحركهم هناك سهل جداً ، والحصول على ما يريدونه من سلاح عبر التعاون مع المافيا أو مع الأجهزة الحكومية النافذة مقابل حفنة من الدولارات ليس مستحيلاً ، كما يعرف كل من زار المنطقة ، فقد لحظت خلال زيارتي إلى عشق آباد عاصمة تركمانستان في العام 1995 لهت الناس العامة وراء الدولار وبريقه ، وحدثني في هذا السياق دبلوماسي عربي كبير نقلاً عن صديق له رجل أعمال مشهور ، يقول الأخير بأنه زار إحدى دول وسط آسيا والتقى رئيسها ، وحين جلس معه في القصر الرئاسي ، لمح بعض الطائرات المروحية المعطوبة ، فقال التاجر للرئيس : لماذا لا تصلحون مثل هذه الطائرات؟! فذهل لرد الرئيس عليه حين قال له : " إنني أفكر أن أبيعها لأصلح القصر ، وقد

عرضت الطائرة الواحدة بخمسة آلاف دولار أميركي . " فاستغرب التاجر العربي لهذا الجواب ، وحرر له شيكاً بأضعاف المبلغ ، فإن كان الرئيس يتحدث عن مشكلة خمسة آلاف دولار ، فماذا عمن دونه في المسؤولية والرتبة الذي قد يبيع الكثير من الأسرار والمعلومات والمواد مقابل إغراء الدولار.

لعل من أهم الميزات التي اكتسبتها القاعدة خلال الحرب الأفغانية ، هي إقامة علاقات وربط الناس الذين قدموا إلى الجهاد في أفغانستان ، فقد كان مثل هذا التجمع ربما الأهم في حياة المسلمين ، والأكبر بعد تجمع الحجيج في مكة المكرمة ، إذ أفاد هذا التجمع والذي ضم عشرات الجنسيات تعرف الكثير على مشاكل بلاد الغير ، وتقديم خبرات لبعضهم البعض ، ثم الاستفادة من إمكانيات كل جهة في بلادها ، ولعل القاعدة أدركت منذ البداية أن الحملة عليها عالمية ودولية ، وهو ما أكده أحد المقربين من أسامة بن لادن خلال تلك الجلسة لي بقوله : " إن التحرك عالمي ضد الإسلام ، فهناك العولمة الأمنية في مطاردة الحركات الجهادية ، ولا بد من مواجهة ذلك من خلال تكاتف جهود الحركات العاملة للإسلام كلها في أرجاء

الأرض ، من أجل إلحاق الهزيمة بهذا الحلف الشرير من القوى المناهضة للمد الإسلامي الجهادي ."

ويظهر أن المشروع الذي كان يسير عليه أسامة بن لادن هو الحصول على أسلحة الفقراء للدمار ، والممثلة بالأسلحة الكيماوية ، نظراً لتكلفتها البسيطة ، وقدرتها التدميرية الهائلة ، فأسامة الذي بدت عملياته التي نفذها - وأعود فأقول إن صحت نسبتها إليه - بدءاً من تفجير الخبر ، إلى العليا ، ثم السفارتين الأميركيتين ، فالمدمرة كول ، ثم إلى تفجيرات نيويورك وواشنطن ، يشير إلى أن خسائر عملياته في تصاعد ، وليس في تنازل ، ولذا من الصعب عليه أن ينفذ عمليات أصغر من العمليات التي نسبت إليه ، بحيث لا تلحق خسائر كبيرة في الطرف الآخر ، وعلى هذا لا يستبعد البعض أن يكون قد لجأ بالفعل إلى الحصول على مثل هذا النوع من السلاح ، لإيقاع الخسائر بالطرف الآخر، ويثبت أنه يتجه إلى الأمام أو إلى أعلى ، وبذلك لم تتراجع وتيرة عملياته العسكرية .

ولكن مع هذا لا يمنع ذلك من بدء حرب عصابات تكلف الجيش الأميركي والقوات الدولية بضعة أفراد ، فهذه

العمليات تختلف عن تلك العمليات المدبرة والمخطط لها بعيداً عن حرب العصابات .

ولذلك يعتقد البعض أن الذي وصل إلى ضرب معقل الهيئة الأميركية في نيويورك وواشنطن - أعود فأقول إن صحت نسبتها إليه - فإن مثل هذه الجهة باعتقادي كانت تفكر بحجم الرد وتداعيات ذلك ، وبالتالي بكل تأكيد قادرة على تطوير ذلك الصراع ، ولعل ما صرح به وزير العدل الأميركي أشكوكرفت مؤخراً بأن القاعدة التي دربت عشرة آلاف مقاتل لم يكونوا لتنفيذ هجوم واحد هو هجوم الحادي عشر من أيلول .

كان تقرير للأمم المتحدة حصلت عليه بعد سقوط طالبان ، تحدث عن قدرات أسامة بن لادن ، وطالبان ، في امتلاك مثل هذا النوع من الأسلحة غير التقليدية ، ويقول التقرير بأنه عشية سقوط حركة طالبان الأفغانية اختفى حوالي مائة صاروخ من طراز سكود الروسي ، مع عدة منصات صواريخ لإطلاقه ، وحتى ساعة إعداد التقرير الذي تم في أواخر يناير " كانون ثاني " من عام 2002 من قبل بعض الخبراء الدوليين الذين أرسلهم الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان إلى أفغانستان ، فإن القاعدة و طالبان حسب



معلومات التقرير ، تملكان أسلحة دمار شامل ، وقادرة على ضرب أهداف محددة في داخل أفغانستان ، وفي أي وقت تشاء ، وهو ما يضع السلم الأفغاني ، و المنطقي ، في دائرة الخطر ، خصوصاً و أن سيطرة الحكومة الحالية على كامل التراب الأفغاني محل تساؤل واختبار حقيقي ، في ظل تجدد المعارك بين قوات وزير الدفاع الأفغاني الجنرال محمد قاسم فهم ونائبه الجنرال الأوزبكي عبد الرشيد دوستم في مزار الشريف شمالي أفغانستان ، بالإضافة إلى المعارك التي اندلعت في خوست وبكتيا شرقي أفغانستان بعد أن رفض قادة محليون معروفون ونافذون قرار الحكومة الأفغانية المركزية بزعامه حامد كارزي تنصيب باتشا خان زادران حاكماً على الولاية ، وأدت المواجهات بين الطرفين إلى وقوع أكثر من خمسين قتيلاً وعشرات الجرحى ، وبدء الحديث عن حرب عرقية في أفغانستان بعد تدفق قوات وزارة الدفاع الأفغانية والتي يغلب عليها الطاجيكي والأوزبكي وكذلك الشيعة للقتال في مناطق البشتون ، حيث تتواجد قوات طالبان والقاعدة ، وهو ما قد يحول المعركة إلى مواجهة عرقية في ظل شعور البشتون بأن أميركا والقوات الدولية لا تثق

بهم ، وبالتالي فهي تعتمد على القوات الطاجيكية والأوزبكية .

وجاء التوتر بين أميركا وإيران على خلفية دعم إيران للقائد إسماعيل خان حاكم ولاية هيرات وكذلك دعمها للزعيم الأوزبكي عبد الرشيد دوستم ، بالإضافة إلى خلفيات دعم طهران لجماعة القاعدة حسب الواجهة الأميركية ، ووصلت القضية ذروتها بعد أن كشفت صحيفة لوس أنجليس تايمز يوم الثامن من مارس " أذار " من العام 2002 عن اعتقال 12 إيراني من بينهم ضابط برتبة جنرال من الحرس الثوري الإيراني كانوا يقومون بشراء ولاء بعض القادة الميدانيين المحليين لصالح الحكومة الإيرانية ، ومثل هذه التقارير ستزيد من مصاعب الحكومة الأفغانية المركزية في توتير علاقاتها مع جار لها مهم مثل إيران ، خصوصاً و أن علاقاتها متوترة أصلاً مع دولة جارة مثل باكستان ، وهو ما يضاعف من متاعب الحكومة المركزية في القدرة على بسط السيطرة على كامل التراب الأفغاني ، في ظل امتدادات عرقية وإثنية لأفغانستان في كل الدول المجاورة ، وهو ما يجعل أمر

التدخل وحتى بدافع المصلحة طبيعياً للدول المجاورة في الشأن الأفغاني الداخلي .

كانت الأجهزة الغربية تحدث ، وكتبت حتى وسائل الإعلام الغربية الكثير عن امتلاك أسامة بن لادن للأسلحة غير التقليدية ، خصوصاً بعد أن ثبت لقاء لأسامة بن لادن مع عالم ذرة باكستاني يدعى سلطان بشير الدين محمود ، كان زار أفغانستان خلال فترة حكم حركة طالبان الأفغانية ، وهو الذي أنشأ مؤسسة إغاثية تدعم أفغانستان ، والمحتاجين في باكستان ، واعترف بلقائه أسامة بن لادن ، لكن نفى بالمقابل أن يكون حصل بينهما أي تعاون بشأن تقديم أي معلومات أو تسهيلات فيما يخص تصنيع أسلحة نووية أو غير تقليدية ، وإن كان مثل هذا لم يقنع – على ما يبدو - المسؤولين الأميركيين .

وإظهار بعض العبوات على شاشات المحطات الفضائية الأميركية و التي تحتوي المواد المستخدمة في تصنيع أسلحة كيماوية وجرثومية في معقل القاعدة في كابول وقندهار و جلال آباد عكس المخاوف في واشنطن وغيرها من العواصم الغربية من القدرات التي تمتلكها القاعدة على تصنيع مثل هذا السلاح الخطير ، بالإضافة إلى

تداعيات ذلك على الأمن القومي الأميركي ، خصوصاً بعد أن تسربت معلومات عن حصول القاعدة على تقرير سري للكونغرس الأميركي يخص النواقص والقصور في المنشآت النووية و الحساسة الأميركية ، وذلك في كومبيوتر " لاب توب " عثرت عليه القوات الأميركية في أحد معاقل القاعدة داخل أفغانستان .

مثل هذا الأمر الذي سيضع تساؤلات جديّة عن إمكان اختراق القاعدة للحياة السياسية الأميركية ، خصوصاً بعد تفجيرات الحادي عشر من أيلول ، فمثل هذه العمليات في حال ثبت أن القاعدة ورائها تشير إلى أنها وصلت إلى فهم تعقيدات الحياة السياسية الخاصة ، فضلاً عن العامة الأميركية ، مكنتها من ضرب أهداف تجسد الهيئة الأميركية المالية و العسكرية وهي " مركز التجارة العالمي " ، والبنّتاغون وسعيها الذي لم ينجح في ضرب الهيئة السياسية ممثلة بالكابيتول هول " أي مقر مجلس الشيوخ الأميركي ، بعد أن أسقطت الطائرة التي كانت في طريقها إلى المبنى ، وهو ما عبر عن قصور خطير في الأجهزة الأمنية الأميركية ، التي تمثل ميزانيتها ميزانية دول ، ومع هذا لم تنجح في توقع مثل هذه الضربات ، فضلاً عن

إحباطها ، ومن هنا يدعو البعض في أميركا إلى محاسبة هذه الأجهزة على القصور الذي بدر منها لعدم توقعها مثل هذا الهجوم ، وبالتالي أين كانت هذه الأجهزة قبل وعشية الضربة في الوقت الذي كانت فيه وسائل إعلام عربية وأجنبية تتحدث وتتوقع قريباً من هذه الضربة كما تبين في المقدمة من التقرير الذي نشرته صحيفة الدستور الأردنية قبل الضربة بثلاثة أشهر .

### الصمت إزاء إيران :

ما لفت انتباهي في اللقاء مع أسامة هو صمته إزاء إيران ، رغم مساعي مني بطريقة أو بأخرى معرفة ما يفكر فيه تجاه إيران والسياسية الإيرانية ، لكنه حرص على عدم مهاجمتها ، رغم تباين مدرسته الفكرية التي ينتمي إليها مع المدرسة الإيرانية ، وهو ما يعد أمراً غير مفهوم للكثير من خريجي المدرسة السلفية السعودية ، ولكن يبدو أنه يمشي في هذا الموضوع بالذات على حبل مشدود بقوة ، فهو في الوقت الذي لم تصدر عنه أي تصريحات مشيدة

بإيران لم ينتقدها أبداً ، وأبقى الباب مفتوحاً وربما غامضاً نوعاً ما ، فإن كان لا يستطيع القدح بها ، نظراً للحاجة التي ربما يعوزها ، أو لحسابات لم تظهر لي حتى تلك الفترة ، ولا هو يستطيع أن يمدحها كون ذلك سيفقده بعض الشعبية في الخليج الذي ليس على ود مع المدرسة الشيعية والخمينية تحديداً .

ويتردد في أوساط مؤيديه ومناصريه ، أنه لعب دوراً لافتاً في تخفيف حدة التوتر بين طالبان وإيران ، إبان سقوط مزار الشريف عاصمة الشمال الأفغاني بأيدي حركة طالبان في العام 1997 ، وطرد مقاتلي الأوزبك والطاجيك منها حلفاء الحكومة الإيرانية ، وهو ما أعقبه حينها مقتل تسعة دبلوماسيين إيرانيين على أيدي قوات حركة طالبان ، ما دفع طهران إلى حشد قواتها على طول الحدود مع أفغانستان ، ووصول المواجهة إلى أشدها بين البلدين ، وكادت تقع المواجهة بينهما لكن تم تفاديها بجهود صامته قام بها على ما يبدو أسامة .

كانت الساعة قد بدأت تؤشر إلى العاشرة ليلاً ، فاعتذر أسامة بهدوء ، وجمع رداءه الأفغاني الذي كان يلقيه على عاتقيه ، ونهض بعد أن استأذن ، فالعادة كما قال أتباعه ،

أنه لا يتأخر في نومه استعداداً لصلاة الفجر ، التي عادة يظل مستيقظاً بعدها ، ولا ينام إثرها ، خرج أسامة من الغرفة وتبعه بعض حراسه ومرافقيه ليؤذن ذلك بأن وقت النوم قد بدأ .

فقندهار بعد العشاء كل شيء فيها هادئ ، بل أشبه ما تكون بمدينة الموتى كمثل المدن الأفغانية الأخرى ، حيث لا حركة ولا تسوق في ظل حظر الحركة للسير بعد الساعة العاشرة ، وهو ما اعتاد عليه الأفغان لأكثر من عقود ثلاثة خلت منذ وصول الشيوعيين إلى السلطة ، وأواخر السبعينيات ، وبالتالي اعتاد الأفغان طوال العقود الثلاث الماضية على أن يفيئوا إلى فراشهم وبيوتهم قبل موعد حظر التجوال .

كان أحد الأفغان العرب قد سارع بعد مغادرة أسامة إلى فرش فراشاً لي ، داعياً إياي إلى النوم ، وبالفعل نمت إلى صباح كانت بدايته بصلاة الفجر التي أم المصلين فيها أسامة نفسه ، ليتوجه بعدها إلى توديع والدته وشقيقه وشقيقته ، الذين قدموا لحضور عرس ابنه محمد ، وبعد أن ودعهم جمعياً إلى باكستان ، ليتوجهوا منها إلى المملكة العربية السعودية ، حضر إلينا صباحاً لتناول طعام الفطور ،

لنبداً جولة حوار أخرى مفروضة علي كالعادة ، دون أن  
 أتمكن من طرح أي سؤال من كل الأسئلة التي تدور في  
 ذهني منذ فترة طويلة ، وهي نفس الأسئلة التي تدور في  
 أذهان مئات الملايين ، وربما أكثر من البشر على هذه  
 الأرض الذين يمسون ويصبحون على أخبار أسامة بن لادن  
 في محطات التلفزة العالمية ، وبكافة اللغات واللهجات ، إذ  
 كان أسامة يستحضر مرة أنه خلال مؤتمره الصحافي الذي  
 عقده في خوست بمناسبة إعلان الجبهة الإسلامية العالمية  
 لقتال اليهود و النصارى ، حضر صحافي صيني وكان  
 حريصاً جداً على توجيه سؤال لي ، وحين سمحت له وجدته  
 يسأل عن بعض المسلمين التركستانيين الموجودين كما  
 يقول في صفوف القاعدة ، فقد ظهر أن أسامة منتشي  
 من أنه حتى الصحافة الصينية غدت مهتمة به وبقضيته .

**فطور ... غسل وزيتون وزيت وزعتر :**

جلس ابن لادن وهو يشعر بقليل من البرد ، لكنه كان  
 يحاول معالجة ذلك بإصلاح الجاكيت " الفيلت " الأميركي



المبرقع الذي كان يرتديه ، أملاً في دفع برد قندهار الصحراوي الجاف ، سلم علينا ، وافتتح حديثه عن توديعه لأمه وشقيقه ، وشقيقته ، قائلاً كم تمنيت أن أتمكن من استئجار طائرة خاصة بها لأرسلها إلى المملكة ، ولا أجعلها تتعب بالانتقال إلى باكستان ، ومن هناك إلى السعودية فأم في مثل هذا السن لا يصلح لها أن تواجه كل هذه المصاعب ، ولكن الظروف صعبة ، واستئجار طائرة خاصة في ظل الحظر المفروض على طالبان أصعب ، صمت برهة أسامة ليعالج حرقه ودمعة طفت من عينيه وكأنه يستسمح والدته لهذه المصاعب التي تكابدها من أجله ، وبسببه ليغلق هذا الملف ، ويسعى إلى السؤال عن الفطور للضيوف ، وبالفعل ، وخلال دقائق كان الفطور الأشبه بالفطور الشامي بين أيدينا في تلك الصحراء القاحلة الجرداء ، فأسامة والدته من سورية وكذلك زوجته الأولى ، ولذا حرص على التأكيد لي لكوني سوري أن ما تأكله طعام من سورية ، خصوصاً الزيت والزعتر ، وكذلك الزيتون ، فهو كله من سوريا ، وبالإضافة إلى ذلك كان العسل الذي بدا لي أحد الأطباق المفضلة لديه ومعه الزبدة و اللبن والجبن والبيض وغيره ، كان فطوراً شهياً في الأوقات

والظروف العادية ، فكيف في صحراء قندهار الجرداء التي تفتقد إلى أبسط مقومات الحياة الطبيعية ، فضلاً عن الحياة الكمالية .

جلس ابن لادن على ركة ونصف ، وهي الجلسة التي يفضلها أثناء الطعام على أساس أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجلسها كما قال لي أحد مرافقيه ، مع إلقاء الرداء أو الجاكت من الكتفين ، لأنه يعيق أثناء الطعام ، فقد بدا لي أنه يحب أن يكون متحللاً من أي ثياب ثقيلة خلال الطعام ، مذكراً إياي بأبائنا وأجدادنا ، الذين يحسبون للطعام حسابه ، ويودون أن يستمتعوا بكل لقمة يضعونها في أفواههم ، لا مثل جيل الماكدونالدر الذين يأكلون وجبات سريعة دون أي استمتاع ، وبعد أن يهيئ الجلسة بدءاً كما ذكرت من إلقاء الثياب الثقيلة ، التي تعيق حركة اليد ليتفرغ تماماً إلى الاستمتاع بالطعام ، مع حركة فم تدير الطعام ربما لا يحس بها حتى أقرب الجالسين إليه ، مع الحرص على عدم إسقاط أي ذرة ، أو حبة ، من طعام من فيه ، أو من بين يديه .

الطعام في حضرة أسامة بن لادن له طقوسه بين الأتباع ، الذين يرمقون كل نظرة يلقيها ، لتستجيب له ، ولكن

تلمس الألفة والمودة ، وعدم التكلف بينه وبين أتباعه ، مع الحرص على الاحترام ، والتقدير ، وعدم التصنع في الحركة أو خلال الحديث ، فنهوض ابن لادن عن المائدة ، لا يعني أبداً أن الطعام قد انتهى كعادة الملوك والحكام ، وإنما من أراد المزيد يستطيع أن يواصل ، دون أي حرج ، وإن كان أسامة يحرص على البقاء على المائدة أطول فترة – حتى يرى أن الجميع قد فرغ ، وذلك دفعاً للإحراج في حال قيامه قبل أتباعه ، وضيوفه من باب أولى .

تحدث ابن لادن بعد الفطور عن هيمانه بالخيول العربية الأصيلة ، وقد لحظت في مكان العرس بعض الخيول العربية التي قيل إنها له ، ولتعليم أتباعه على ركوبها ، وهو ما حُصِّنا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله المشهور " علموا أولادكم السباحة و الرماية وركوب الخيل . " كما ذكر أحد الجالسين إلى جانبه ، وربما نفس الخيول التي رأيتها في ذلك المكان ، هي التي شاهدتها بعد سقوط حركة طالبان الأفغانية ، وعرضها من قبل محطة السي إن إن الأميركية والتي كانت في قندهار ، وقد بدا عليها التعب والنصب ، وعدم الرعاية والاهتمام بسبب القصف الأميركي المتواصل لأكثر من شهر ونصف الشهر

على مكان طالما توقعت القوات الأميركية أن يحتوي ابن لادن وأتباعه .

استأذت ابن لادن بعد الطعام في التقاط بعض الصور له وأولاده ، وهو ما سمح به على الفور دون أي حرج ، وطلبت شريط الفيديو الذي كان القسم الإعلامي يعده لنا ، من أجل عرضه على شاشة قناة الجزيرة ، وبالفعل وبعد حوالي الساعة أو أكثر جاء أحدهم ليلقي الشريط بين يدي ، مؤكداً على أن صورتي قد بدت في الشريط للتدليل على حضوري ، وما أن أمسكت بالشريط حتى اطمأنت على نجاح المهمة ، ولم يتبق أمامي الآن إلا العودة إلى باكستان ، لنقل ما جرى ، فالعالم كان مشغولاً بأحداث الانتفاضة الفلسطينية ، التي هزت الإعلام العالمي ، وتركت له وجبة دسمة ، يعيش عليها في زمن قحط الأحداث العالمية ، ولكن لعل مثل هذا الشريط سيلقي حجراً في المياه الإعلامية الراكدة ، وحانت مني نظرة إلى الذي سلمني الشريط الذي أدركت لاحقاً بعد نشر صورته في أعقاب الحادي عشر من أيلول بأنه خالد الشيخ والذي وصف نفسه مسؤول اللجنة العسكرية في القاعدة خصوصاً بعد رحيل مسؤولها السابق أبو حفص المصري وعرفت من بعض المصادر أن خالد الشيخ كان يقوم بمثابة رئيس اللجنة الإعلامية ومسؤول شركة سحاب التي أصدرت عدة أشرطة فيديو لاحقاً ظهر فيها أسامة بن لادن وذلك في أعقاب سقوط حركة طالبان الأفغانية ، وكان أول منتوجاتها شريط الوصية الأولى لمنفذ هجمات نيويورك وواشنطن أحمد الحزنوي وبثته قناة الجزيرة الفضائية ، وحسب المعلومات المتوفرة لدي فإن الشركة بدأ العمل فيها منذ عام 1999 ، واتخذت من مدينة قندهار مقراً لنشاطاتها عمدت إلى رصد كل ما تبثه القنوات الفضائية العربية والغربية والاستفادة من موادها في الشريط الذي صدر مطلع العام 2001 باسم تدمير المدمرة والذي احتوى على لقطات لتدريبات عناصر القاعدة وكذلك لدروس دينية ونحوها، كما أصدرت لاحقاً على ما يبدو دون أن تعلن أن ذلك من إصداراتها عدداً من الأشرطة ومنها أشرطة خطب عامة لزعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن .

ويقول من عرفوا خالد الشيخ بأنه أحد المتابعين للشأن الإعلامي منذ أيام القاعدة في أفغانستان ، وحرص على شراء كل المعدات المتطورة لتحسين أداء القاعدة في الجانب الإعلامي من ناحية نوعية الكاميرات وأدوات الإنتاج وحتى أجهزة الكمبيوتر، ولعلي كنت أحد الشهود على تصويرهم لعرس نجل أسامة بن لادن في قندهار يوم التاسع والعشرين من يناير " كانون ثاني " من العام 2001 م ، حيث شوهد شخص يشبه من نشرت صورته لاحقاً على أنه خالد الشيخ وهو يجلب شريط فيديو العرس ويقدمه لي ويحتوي على بضع دقائق من أجل أن أقوم بإعداد تقرير عن العرس والذي كانت مدته ثلاث دقائق ونصف الدقيقة فقط .

ولاحظ فنيون وتقنيون خبراء في شؤون الإنتاج التلفزيوني أن اللمسات الفنية التي استخدمت في شريط المدمرة أظهر براعة القائمين على الشركة واحترافيتهم وحتى استخدامهم لأجهزة الكمبيوتر في الإنتاج التلفزيوني ، ومع إصدار شريط الوصيتين الأولى والثانية تبين أن شركة السحاب أو الجهاز الإعلامي التابع للقاعدة ما يزال فاعلاً ونشطاً رغم كل الضربات التي تعرض إليها التنظيم والذي خسر الأرض الذي كان يقيم عليها .

ويبدو أن القاعدة تعتمد بنسبة كبيرة على الجانب الإعلامي والدعائي من أجل تحريض " المؤمنين على قتال اليهود والنصارى " حسب تعبير زعيم تنظيم أسامة بن لادن، وباعتبار أن العصر الحالي هو عصر الفيديولوجيا بامتياز وعصر سيلان الصور المرئية وعصر العبادة للمرئي أي التلفزيون فإن القاعدة ركزت كل جهودها على ضخ الصور والتصريحات إلى القنوات الفضائية التي تستهدف بشكل رئيسي الطبقة المتوسطة المتعلمة وكذلك الدنيا في حين يصعب إقناع الطبقة العليا المتعلمة والتي هي حكراً على الطبقة العلمانية المتغربة ، التي تعد بعيدة عن التلفزيون والفيديولوجيا وربما هذا أحد الأسباب المهمة التي جعلت تنظيم القاعدة يتعد عن التعاطي والتعامل مع الإعلام المكتوب أو حتى المسموع .

نظر إلي مرافقي أبو عثمان ليقول لي : وماذا الآن ؟ هل تريد المغادرة ؟ فأومأت إليه بنعم ، وتحركنا باتجاه محطة الحافلات في مدينة قندهار لنطلب سيارة أجرة - كان مرافقي أبو عثمان يسعى إلى شراء بعض الفواكه لتتسلى بها في الطريق فابتاع من البائع ، ودفع له ما يريد دون أن يساومه ، ويبدو أنه قرأ استغراب وجهي على دفع ما طلبه البائع دون أي سؤال في مكان يتطلب المساومة والمفاصلة مع البائعين الذين يستغلون الأجانب ، فأزال أبو عثمان التساؤل عن وجهي حين قال : " إنها وصية الشيخ أبو عبد الله " أسامة بن لادن " لكل أتباعه في أفغانستان ألا يقوموا بالمساومة مع الأفغان ، ويعطوهم ما يطلبونه ، فهم في أوضاع صعبة ونحن ضيوف ، وليس من اللائق أن تتم المساومة على بضعة دريهمات هم في أمس الحاجة إليها ، وتذكرت حينها قصة قصة قصها علي صحافي أفغاني رافق صحافي أميركي قبل أكثر من سنة إلى قندهار ، وحين توجهنا إلى أحد المطاعم لتناول الغداء وسط مدينة قندهار معقل طالبان والقاعدة آنذاك ، اعتذر صاحب المطعم من الصحافي الأميركي طالباً منه المغادرة ، لأن ضيوفه من العرب سيأتون الآن ، وبالتالي سينزعجون من

حضوره ، وهو ما يفسد عليه رزق دائم عليه ، بينما وجود الأميركي مؤقت وغير دائم ، فكم السياسة مرتبطة بالمال والتجارة .

كانت السيارة تتحرك باتجاه سبين بولداك مجدداً ، ثم إلى الحدود إذ عبرناها بسهولة ، ومنها إلى كويته حيث أقمت ليلة هناك في أحد فنادقها ، لأستقل الطائرة إلى إسلام آباد ، وأسرع بتحضير التقرير وأرسله إلى الجزيرة ، وكذلك إلى صحيفة الحياة اللندنية ، لتتوالى ردود الفعل الأميركية عليه .

### السفير الأميركي على الخط ؟

فرغت من إرسال الشريط إلى الجزيرة مساءً لأرى في الصباح تعليق الناطق باسم الخارجية الأميركية على تلميحات ابن لادن بحادث المدمرة الأميركية يو إس كول ، والذي اعتبر أنه أمر مشير للتقزز ، أن يؤيد أحد مثل هذه الأحداث التي توقع ضحايا ، و في اليوم الثاني لإرسال الشريط كنت أستعد للتوجه إلى الحج ، وعلمت بعد عودتي

من مكثبي في إسلام آباد أن السفارة الأميركية في إسلام آباد ، طلبت أن ألتقي السفير الأميركي حينها ويليام ميلام ، وبالطبع كان الموضوع الحاضر هو زيارتي إلى أفغانستان ولقائي بابن لادن ، إذ أنه كان قد صمت لفترة ليست قصيرة ، ولم يتكلم أبداً ، وبالتالي فإن واشنطن تريد أن تعرف أي شيء عن أوضاعه ، وربما تفكيره وخططه المستقبلية ، والظروف التي يعيشها في ظل ما يعلن عن حصار وقيود طالبانية مفروضة عليه ، فقد كانت التقارير التي تحدثت عن عملية غسل الكلى التي يقوم بها بشكل دوري محل اهتمام أميركي ، وغير أميركي ، خصوصاً وأن بعض التقارير تحدثت عن توجه فريق طبي عراقي إلى أفغانستان من أجل معالجته ، وتحدثت أخبار أخرى عن شرائه لمعدات خاصة ، من أجل غسل كليتيه بينما كانت تقول بعض المصادر الأفغانية أنه كان يستخدم جهازاً في مستشفى " جار ساد بيستر " أي مستشفى الأربعمائة سرير ، والذي كان عدوه محمد نجيب الله آخر رئيس شيوعي لأفغانستان اشتراه واستخدمه لنفسه ، وأودعه في نفس المستشفى ليقوم ابن لادن باستخدامه من



بعده ، فهل توقع أو تخيل نجيب أن يحصل ذلك ولكن هي الأيام دول .

سعت بعد العودة من الحج إلى الاتصال بالسفارة الأميركية في إسلام آباد للرد على مكالمة السفير الأميركي ، وبعد أن رد علي الملحق الصحافي الذي أبدى استعداداً لترتيب اللقاء ، رغم أن الموضوع كان قد مضى عليه زهاء الأسبوعين ، إلا أنه تبين أن اللقاء بعد هذه الفترة سيكون مع الملحق الصحافي الذي اعتذر للموعد الذي كنا اتفقنا عليه سوية بسبب مشاغل خاصة وقعت له ، ولم نضرب بعدها موعداً آخر .

# الفصل الثالث

القاعدة وطلابان،  
توقعات مستقبلية

أعتقد أن الكتاب لن تكتمل دورته ما لم نتحدث عن حركة طالبان الأفغانية ، و التي أصبحت على شفاه كل شخص في هذا العالم ، بغض النظر عن لونه ولغته التي ينطق بها ، خصوصاً بعد أحداث الحادي من عشر من أيلول ، و صار الكل يتساءل ، من هذه الحركة التي بمقدورها أن تقول : لا للولايات المتحدة الأميركية ، والتي خضعت لها رقاب كل الحكومات و الدول والزعماء ؟!! وما هي الأهداف والخلفيات العقدية و الفكرية التي تحرك ذلك المارد الطالباني ، و الذي سعى إلى المشاغبة على قوة يسعى الكل إلى خطب ودها فضلاً عن إغضابها والمس بها ؟!! ولم تكف هذه الحركة بالمشاغبة وإصدار التصريحات فحسب ، وإنما تطورت الأمور إلى أن تؤوي هذه الحركة أكثر الأشخاص مطلوبين لأميركا في العالم ، بل وتحتضن حركته ومساعديه ، وتسمح لهم بأن يصلوا ويجولوا في طول البلاد الأفغانية وعرضها ، دون رقيب أو عتيد ، حتى أن البعض ذهب إلى القول بأن ابن لادن وجماعته خطفوا حركة طالبان .

كل هذه الأسئلة مشروعة ، وستبقى بدون إجابة لفترة ليست قصيرة في ظل انطلاق الكتب ، والمقالات ، والأحاديث ، من قواعد ، وبنى فكرية مسبقة ، ولعل ما يزيد من غموض الحركة ، هو بعدها عن الجانب الدعائي والإعلامي ، وفقر المكتبة العالمية ، بكتابات القوم التي تعكس ما كان يدور في رؤوسهم ، وما الذي جعلهم يتمردون على قواعد دولية وضعتها أميركا ، وما على هذا العالم إلا أن يرد بـ : سمعاً وطاعة في عصر تحكمه البي 52 و صواريخ كروز وتوماهوك ونحوها.

وكالعادة اختلف الناس في حركة طالبان الأفغانية ، هل هي ظالمة أم مظلومة ؟ بمعنى هل ظلمت الشعب الأفغاني حين كلفته فوق ما يطيق بإيوائها لأكثر الناس مظلومية في العالم ؟ أم أنها مظلومة ، وضحية لعدوان أميركي وهي التي قدمت الكثير من الاقتراحات والرؤى ، لحل قضية أسامة بن لادن ، تفادياً للوقوع في مصيدة وشراك الضربة الأميركية ، والدليل على ذلك ما كشفت عنه تحقيقات وتصريحات مسؤولين غربيين في أن أميركا كانت مبيتة للضربة على أفغانستان حتى قبل أحداث الحادي عشر من أيلول ، وكان القرار اتخذ في حزيران من

العام 2001 ، وذلك من أجل الوصول إلى أسواق الغاز والنفط ، حيث محل اللعبة الكبرى التي عادت من جديد إلى المنطقة ؟ أم أن الأمر لا هذا ولا ذاك ، وأن طالبان وما خلفها تعمل على نشدان حياة جديدة للعالم الإسلامي ، وتمثل ذلك منذ إعلان نفسها كإمارة ، ورفضها للتقسيمات الجغرافية والعرقية والإثنية ، فاحتوت كل المعارضين المسلمين من جاكرتا إلى طنجة ، أملاً في تشكيل قطب إسلامي معارض لقوى الهيمنة الأميركية والمتحالفين معها ؟

وبالتالي يذهب البعض من المفكرين إلى القول بأن كل ما تدّعيه الإدارة الأميركية من حرب ضد ما يوصف بالإرهاب ما هو إلاّ غلاف لأمر جوهري ، هو الصراع الاقتصادي والتكالب على نفط آسيا الوسطى ، والتخفيف من الاعتماد على النفط العربي ، ويرى الدكتور حسن حنفي في هذا المجال بأن صراع الحضارات المطروح غربياً ما هو إلاّ صراع اقتصادي بغلاف ثقافي . ويشرح ذلك الدكتور حنفي في مقابلة له على موقع إيلاف على الإنترنت يوم العاشر من مارس " أذار " من العام 2002 بقوله : " هي محاولة أميركا القفز عبر أوروبا إلى آسيا ، والسيطرة علي وسط

آسيا لحصار الصين من الجنوب ، والعراق من الشرق ،  
والعالم العربي من كل الحائط الشرقي ، وضرب النووي  
الباكستاني ، وتفتت إندونيسيا ، وحصار النهضة الصناعية  
في ماليزيا ، وبالتالي تصبح أميركا في وسط آسيا ، كما  
هي في وسط أوروبا عن طريق الأطلنطي ، وكما هي في  
وسط أفريقيا عن طريق الاستيلاء على المواد الأولية  
والشركات ، وكما هي وسط أميركا اللاتينية عن طريق  
الجيوش ، والتعامل مع الحكومات التي تشبه حكوماتنا  
العربية ، وبالتالي يتم لأميركا السيطرة على العالم . فهي  
مرحلة أخرى من مراحل العولمة ؛ فالعولمة سيطرة  
اقتصادية ، وهذه السيطرة سياسية واقتصادية وثقافية  
وتاريخية ، وبالتالي الكل يدخل بيت الطاعة .

لم أسع في هذا الفصل إلى أن أبحث عن أجوبة شافية  
على كل الأسئلة التي طرحتها عن طالبان ، والتي هي  
بحاجة إلى بحوث ، ودراسات معمقة ، وربما وقتاً ليس  
قصيراً لفك ألغاز وأحاجي طالبان وأفغانستان ، ولكن ما  
أنوي عمله هنا هو تسجيل ملاحظات ومشاهدات وانطباعات  
صحافي زار مناطق طالبان ، وطالما زار أفغانستان وتعرف  
إلى قادتها عن قرب ، بعين تحليلية أحياناً وتقريرية أخرى ،

كما التقى معظم قادتها ، وعلى رأسهم زعيم الحركة الملا محمد عمر ، حيث كنت من الصحافيين القلائل الذين التقوا الملا عمر ، ولعل ضواغط العمل والشغل ستجعل هذا الفصل مبتسراً أملاً أن تسمح الظروف في تسجيل تلك الفترة من تاريخ أفغانستان ، والتي رأى الدكتور حسن الترابي في أحد مقالاته في صحيفة " الحياة اللندنية " أن تجربة طالبان " أثرت كثير من الحركات الإسلامية على وأدها لا على تصويبها وتقويمها " .

معظم ما سأكتبه هنا كان من وحي زيارتي تلك التي لم أكتب عنها يوماً ، فقد حرصت خلالها على لقاء بعض قادة حركة طالبان ، وتوجيه أسئلة إليهم فيما يخص الأفغان العرب ، والقاعدة ، لعلني أحتاجها يوماً ما ، وإن كنت لم أستخدمها لظروف خارجة عني بسبب حظر طالبان نشر لقاءات ابن لادن وتحاشيت ذلك ، حتى لا أكون ضمن القائمة السوداء الطالبانية التي ربما تمنع دخولي الأراضي الأفغانية مستقبلاً ، وفوق هذا قمت بالحديث إلى الناس العاديين الذين أبدوا ارتياحاً للوضع الأمني ، إذ قارنوه مع ما سبق من حكم أمراء الحرب الأفغان الذين حولوا بلادهم إلى مزارع لهم ولأقاربهم ، وركزت على عدة قضايا وهي

التي تشغل بال الجميع ، مثل من طالبان ؟ من هي ؟ وماذا تريد ؟ إلى الحديث عن الواقع الاقليمي والدولي وتأثيره على أفغانستان و الحركة ، وطالبان كضحية لشركات النفط والغاز العالمية ، والامتدادات العرقية واللغوية الأفغانية في الدول المجاورة ، ومخاطر بلقنة المنطقة ، والمخدرات ، بالإضافة إلى الحديث السريع عن أسباب انهيار حركة طالبان وواقع الأفغان العرب ، ومستقبلهم بعد غوانتانامو والوجود الأميركي في أفغانستان :

### 1- طالبان من هي ؟ وماذا تريد !!؟

في البداية أود نقل رواية زعيم الحركة الملا محمد عمر عن تأسيسها والظروف التي صاحبت ذلك ، فهي ستكون مهمة في هذا المجال ، خصوصاً و أن الملا عمر معروف أنه مقل في الحديث خصوصاً في القضايا التاريخية ، ومن هنا قد تكون وثيقة مهمة جداً ، يقول الملا عمر في كلمة له بثها راديو الشريعة حين كانت طالبان ما تزال في



السلطة : " كنت أدرس في مدرسة ببلدة سنج سار بقندهار مع حوالي 20 من زملائي الطلاب ، فسيطر الفساد على الأرض ، واستشرى القتل والنهب والسلب ، وكان الأمر بيد الفسقة والفجرة ، ولم يكن أحد يتصور أنه من الممكن تغيير هذا الوضع وإصلاح الحال ، ولو فكرت أنا أيضًا وقلت في نفسي (( لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها )) لكفتني هذه الآية ، ولتركت الأمر ، لأنه لم يكن في وسعي شيء ، لكنني توكلت على الله التوكل المحض ، ومن يتوكل على الله هذا النوع من التوكل لا يخيب أمله أبدًا .. لعل الناس يتساءلون : متى بدأت الحركة ؟ ومن كان وراءها ؟ ومن يمولها ؟ ومن يوجهها ويديرها ؟

وأقول : بداية الحركة أنني طويت الكتب في المدرسة في سنج سار ، وأخذت معي شخصًا آخر وذهبنا مشيًا على الأقدام إلى منطقة زنجاوات ، واستعرت من هناك دراجة نارية من شخص اسمه سرور ، ثم ذهبنا إلى تلوكان .. هذه هي بداية الحركة ، وأخرجوا كل تصور غير هذا من أذهانكم .

بدأنا نزور الطلاب في المدارس وحلقات الدرس في صباح ذلك اليوم ، وذهبنا إلى حلقة درس يدرس فيها حوالي 14

شخصًا ، فجمعتهم في دائرة حولي وقلت لهم : إن دين الله يidas تحت الأقدام ، والناس يجاهرون بالفسق ، وأهل الدين يخفون دينهم ، وقد استولى الفسقة على المنطقة كلها ، يسلبون أموال الناس ، ويتعرضون لأعراضهم على الطرق العامة .. يقتلون الإنسان ثم يسندونه إلى حجر على قارعة الطريق ، وتمر به السيارات ، ويرى الناس الميت ملقى على قارعة الطريق ولا يجرؤ أحد على أن يواريه

التراب .

قلت لهم : لا يمكن الاستمرار في الدراسة في هذه الظروف ، ولن تحل هذه المشكلات بالشعارات المجردة ، نريد أن نقوم نحن الطلبة ضد هذا الفساد ، إن أردتم العمل لدين الله حقيقة فلنترك الدراسة ، وأصارحكم القول بأنه ما وعدنا أحد أن يساعدنا بروبية واحدة ، حتى لا تظنوا أننا سنوفر لكم الطعام ، بل سنطلب الطعام والمساعدة من الشعب .

قلت : إن هذا ليس عمل يوم ولا أسبوع ولا شهر ولا سنة ، بل سيأخذ وقتًا طويلًا .. هل تستطيعون القيام بذلك أم لا ؟

وكنث أشجعهم وأقول لهم : إن هذا الفاسق الجالس في مركزه مثل القدر الأسود لشدة الحر ( وكانت تلك الأيام

في فصل الصيف شديدة الحرارة ) يحارب دين الله علانية ،  
ونحن ندعي أننا من أهل دين الله ولا نستطيع أن نقوم  
بعمل شيء لنصرة شرعه .

قلت لهم : إننا إن فتحنا منطقة سندافع عنها ، ثم لا  
تعرضوا لعدم وجود دراسة أو لعدم توافر المال والسلاح ،  
فهل تستطيعون القيام بهذا العمل .. أم لا ؟  
فلم يوافق أحد من هؤلاء الـ 14 على القيام بهذا العمل ،  
وقالوا : يمكن أن نقوم ببعض الأعمال أيام الجمعة ، فقلت  
لهم : ومن سيقوم به في الأيام الأخرى ؟  
أشهد الله على أن الحقيقة هي هذه ، وأني سأشهد بذلك  
أمام الله عز وجل يوم الحشر ..  
هذه الحركة نتيجة التوكل المحض ، لأنني لو قست على  
هذه الحلقة باقي المدارس والحلقات لعدت إلى مدرستي ،  
لكنني وفيت بالعهد الذي كنت قطعته على نفسي لله  
تعالى ، فعاملني بما ترون ، فذهبت إلى حلقة درس أخرى  
وكان فيها حوالي 7 طلاب ، فعرضت الأمر عليهم كما  
عرضت على طلاب حلقة الدرس الأولى فاستعد الجميع  
للعمل .

هؤلاء كلهم أمة واحدة ، لم تكن بينهم فروق الشباب والشيخوخة أو الطفولة والشباب أو الذكورة والأنوثة ، لكن هذا العمل كان مبنياً على حكمة من الله تعالى ، فأوقعني منذ بدايته في الامتحان ، فتجولنا على هذه الدراجة إلى صلاة العصر على المدارس وحلقات الدرس ، حتى استعد 53 شخصاً من أهل التوكل المحض ، فعدت إلى مدرستي وقلت لهم : تأتون غداً الصباح ، لكنهم جاءوا في الساعة الواحدة ليلاً إلى سنج سار ، فكانت هذه هي البداية .. إن العمل بدأ قبل أن تمضي على الفكرة 24 ساعة ، وكان أحد أصدقائي يصلي بالناس ، فلما صلى بهم صلاة الفجر قال أحد المأمومين إنني رأيت الليلة في المنام أن الملائكة دخلت إل سنج سار ، وكانت أيديهم ناعمة ، فطلبت منهم أن يمسحوني بأيديهم ( للتبرك ) .

وطلبنا في صباح الغد الساعة العاشرة سيارتين من الحاج بشر ، أحد تجار المنطقة ، فأعطانا سيارتين ، سيارة صغيرة ، وسيارة شحن كبيرة ، فنقلنا هؤلاء الطلاب إلى منطقة " كشك نخود " وانضم إلنا آخرون ، ولما كثر العدد استعرنا الأسلحة من الناس ، فكانت هذه بداية الحركة حتى استمرت (( ا.هـ الزائر إلى أفغانستان في العادة ، لا يجد

كثير تغيير على الأرض الأفغانية ، رغم أن المنتقل من باكستان إلى أفغانستان ، يرى النقلة وكأنها بين زمنين ، لا مكانين فقط ، فالنزيف البشري يتواصل هناك منذ وقت طويل ، و الحرب ما تزال سيدة الموقف ، رغم انحسارها في 5% فقط من الأرض أفغانستان ، التي تسيطر عليها قوات المعارضة الأفغانية ، لكن هذه الزيارة لها دلالات مهمة ، سيما و أنها ترافقت مع الهجوم الانتحاري الذي استهدف المدمرة الأميركية " يو إس كول " في ميناء عدن اليمني ، إضافة إلى التهديدات الأميركية بضرب أفغانستان ، و قبلها تهديدات روسية بقصف مواقع يشتهبها في أنها تابعة للمقاتلين الشيشانيين ، و هناك الحديث الهندي عن وجود معسكرات تدريب للمقاتلين الكشميريين في أفغانستان .

كل هذه العوامل تجعل من زيارة أفغانستان مسائل مثيرة ، إلا أنه و قبل الولوج إلى العامل المنطوقوي ، والدولي ، و تأثيره على ما يجري داخلياً في أفغانستان و خارجها ، يحسن أن نركز الحديث عن ماهية طالبان ؛ فما هي حقيقتها ؟ و ماذا أنجزت ؟ و ماذا تريد ؟ و كيف أضرت العقوبات الاقتصادية بالشعب الأفغاني خلال حكم هذه

الحركة ؟ لقد ظلت أسئلة في غاية الأهمية ، دون إجابة ، كذلك السؤال عن الدور الأميركي والغربي في صنع حركة طالبان بعد أن اتهمها الكثيرون من المجاهدين السابقين من أمثال زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار ، وكذلك رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية الجنرال حميد جول بالعمالة لأميركا وبريطانيا ، وأن السفير البريطاني السابق هو الذي كان وراء صنع هذه الحركة ، من أجل ضرب الحزب الإسلامي الخصم العنيد للأميركيين ومسعود ، ولكن نفس حكمتيار وحميد جول عادا وتعاوننا ، أو أبديا استعدادهما للتعاون مع الحركة ، ولعل مفتاح ذلك هو المثل الأفغاني القائل : " بإمكانك استئجار الأفغاني ولكن ليس بإمكانك شراؤه " وهو ما حصل ربما مع طالبان ، والظاهر أنه حصل افتراق مصالح بينها وبين الأميركيين بعد أن وصلت إلى السلطة في كابول عام 1996 م وهو ما سعت إلى شرحه لاحقاً .

حركة طالبان حتى الآن تخص طلبة المدارس الدينية ، الذين تلقوا تعليمهم في مخيمات المهاجرين الأفغان في باكستان ، و على أيدي علماء باكستانيين ، من أمثال جمعية علماء الإسلام ، بشقيها مجموعة فضل الرحمن ، و سميع

الحق ، و الجامعة البنورية برئاسة مفتي نظام الدين تشامزي ، و يدرك البعض من الطلبة الذين التقيناهم دون ذكر هوياتهم نقطة الضعف هذه ، وهي أن القاعدة الاجتماعية للحركة ما تزال ضمن إطار طلبة المدارس الدينية ، وبالتالي فإن الحركة لم تسع حتى الآن إلى توسيع قاعدتها الاجتماعية ، لتشمل شرائح أخرى لديها المفاعيل والقدرة والآليات على الدفاع أكثر من طلبة المدارس الدينية الذين تعوزهم التجربة والرؤية لكثير من الأمور التي لم يكونوا على تماس معها ، وأدوات التحرك ونحو ذلك ، بالإضافة إلى تقديم نفسها كممثلة لكل شرائح المجتمع الأفغاني ، فما تزال تصر على اسمها ، والذي يحصرها ضمن قالب معين ، وطبقة اجتماعية محددة ، بينما هي في السلطة وهرمها ، وبالتالي عليها استيعاب الآخرين في صفوفها ، إلا أن هؤلاء الطلبة يعززون ذلك كله إلى استمرارية المعارك ، وعدم توقفها ، وهو ما جعلهم منهمكين صباح مساء في الكر والفر ، وأجواء الحرب بحاجة إلى قوة متماسكة و متجانسة ، بخلاف ما سيكون عليه الحال وقت السلم بعد أن تبسط الحركة سيطرتها على كامل التراب الأفغاني ، الأمر الذي سيدفعها حين ذاك إلى

توسيع المشاركة ، وإن كان ذلك تفسير غير مقنع للكثيرين ، على أساس أن المشاركة السياسية وتوسيعها ما الذي سيضمنها لعرقيات وإثنيات متعددة و متضاربة المصالح في وقت السلم ، بعد أن تكون تلك العرقيات والأقليات قد جردت من السلاح ، الذي هو الورقة الوحيدة التي يتم الضغط بها في أفغانستان ؟ وبالتالي أفضل سلاح لوقف الحرب كما يرى الكثيرون هو تضمين مصالح هذه العرقيات والأقليات ، وهو ما سيعني تجريدتها من سلاحها المتمثل باتهام طالبان في منعها من المشاركة السياسية ، الأمر الذي سينزع بدوره المبرر للقوى المنطقوية في أن تواصل تدخلاتها في أفغانستان بحجة الامتداد العرقي والواقع الجيواستراتيجي ونحوه .

يقود الحركة " أمير المؤمنين " الملا محمد عمر صاحب عين واحدة ، فقد الأخرى في الجهاد ، ولعل وصف حكومة الطالبان بأنها " حكومة المعوقين " ربما يكون دقيقاً كما رأيت ، إذ لاحظت أن أغلب أقطاب الحركة فقدوا أعينهم ، أو أرجلهم في الجهاد ضد القوات السوفيتية لأفغانستان ، فحاكم ولاية قندهار ملا حسن ، فاقد لساقه و أحد أصابعه ، أما وزير العدل نور الدين الترابي و وزير الخارجية السابق



ملا غوث فكلهما فقدت عيناً واحدة ، و هناك رئيس بلدية كابول عبد المجيد فقد أيضاً عينه و ساقه ، و نفس الأمر ينطبق على العديد من القادة الميدانيين الطالبانيين .

و رغم أن كلمة " أمير المؤمنين " الملا محمد عمر هي الفيصل في أي قرار ، إلا أن للحركة مجلسي شوري مصغر للجانب السياسي ، و يضم حوالي العشرة أشخاص ، و هناك مجلس آخر عسكري و يضم القادة العسكريين الميدانيين المناط بهم المعارك و العمليات العسكرية .

أما المجلس الأول فيعنى بالقرارات السياسية ، و الداخلية للبلد ، و المجلس الثاني يتعاطى مع القرارات العسكرية ، و تجهيز الجبهات ، و مشاكل القادة المحليين و الإشراف على العمليات و الدعم اللوجستي و نحوه .

لعل طالبان ستعتبر تاريخياً من أكثر إن لم أقل أكثر الحركات السياسية أو الدينية غموضاً ، فليس هناك أي شيء من الأدبيات الفكرية أو الدينية و السياسية التي توضح نشأة الحركة و ظهورها و آلية اتخاذ القرار فيها سوى ما كتبه الآخرون تحليلاً و استنتاجاً وليس كشفاً واقعياً

وحقيقياً عما يدور في دهاليز كرملين قندهار حاضرة الحركة الروحية .

يحدثنا محمد رسول " 35 " عاماً الذي عرف الملا عمر منذ عشرين عاماً في إحدى المدارس بقندهار فيقول : " لا أستطيع أن أصفه فهو من الأوفياء لأصدقائه و زملائه ، فلم يتغير علينا قبل و بعد الإمارة أبداً ، و معروف بشجاعته ، و ورعه ، و تواضعه ، و ثباته على الحق . "

و ينقل إلي أحد المسؤولين الطالبانيين : " في أحد الاجتماعات مع بعض المسؤولين الباكستانيين ، طلبوا منه إغلاق ملف المجاهدين العرب تفادياً لضغوط دولية متفاقمة على باكستان لا تستطيع تحملها " ، وفوجئ المسؤولون الباكستانيون برده الذي قال لهم : " نحن نقدر تعاونكم وندرك حجم الضغوط التي تتعرضون إليها ، و بإمكانكم إغلاق حدودكم مع بلادنا ، تفادياً لهذه الضغوط ، و اتركونا نعالج الموضوع بأنفسنا ، فمسألة استضافة المجاهدين العرب الذين قاتلوا إلى جانبنا أيام الغزو السوفييتي لأفغانستان مسألة شرعية ، و نتعامل فيها مع الله لا نستطيع المساومة عليها . "

ينقل المبعوث الدولي الخاص إلى أفغانستان الأخضر الإبراهيمي أنه في أحد المناسبات كان هناك لقاء له مع الملا محمد عمر في مبنى القنصلية الباكستانية في قندهار ، ولكن فوجئ في أن الملا عمر يشترط لدخول الغرفة التي ستحتضن اللقاء نزع صورة مؤسس دولة باكستان محمد علي جناح ، وهو الرمز الوطني للباكستانيين ، وأصر الباكستانيون على إبقائها إذ أن ذلك سيمس بكرامتهم وعزتهم ، ولم تحل المسألة إلا بعد أن تدخل الإبراهيمي عارضاً إبقائها على الجدار مقابل تغطيتها بالقماش وقبل الطرفين الفكرة .

و ما يزال البعض ينظر إلى الحركة على أنها أحجية غير مفهومة ، و لغزاً محيراً ، وهو حقهم ، وتضاعف هذا اللغز مرتين ، مرة على صعودها المفاجئ ، و أخرى على انهيارها السريع الذي لم يتوقعه الكثيرون .

فالظاهر أن الحركة لم تتعرض إلى الضغوط الأميركية إلا بعد سيطرتها على كابول في أيلول من عام 1996 ، وهو مثل انقلاب في التفكير الأميركي تجاه الحركة ، ويبرر سر هذا الانقلاب الأميركي على الحركة أحد أساتذة جامعة كابول في لقاءه معنا : " لقد نجحت الحركة بشكل باهر

في إيهام و تضليل الأميركيين و الغرب بشكل عام ، على أنها حركة من أجل إعادة السلام والاستقرار فقط ، و لا مصلحة لها في الحكم ، الأمر الذي وُلد اعتقاداً لدى الغرب بأن الحركة ستسلم السلطة للملك الأفغاني السابق ظاهر شاه الذي تسعى واشنطن إلى إعادته من روما ، وتوقعت أميركا على أن النزاع و الشقاق و الاقتتال الداخلي سيصيبها كما أصاب أحزاب المجاهدين الأخرى حال وصولها إلى السلطة ، إن هي رفضت تسليم الحكم للملك الأفغاني السابق المقيم في روما منذ الانقلاب عليه في العام 1973 على يد ابن عمه السردار محمد داود " ، و كلا الاحتمالان كذبتهما وقائع الأحداث التي تلت السيطرة على كابول .

في هذه الأثناء ظهر مدى التخطيط الأميركي بين مؤيد لسيطرة طالبان على كابول ، و بين معارض لها . ولعل ما عزز القناعة الأميركية أن كل التحركات التي صدرت من قبل الملالي والعلماء في التاريخي الأفغاني ، كانت عبارة عن تحركات ضد ممارسات أخلاقية وسلوكيات لهذا الحاكم أو ذاك ، وليس ضد سياسات دولية أو تابعة عن فكر وسياسة ، وهو ما يعني أن الحركة المولوية هذه ستسلم السلطة ، وتتعاون مع الملك والملكيين ، فقد بنت

واشنطن هذه التحليلات على الخبرات السابقة في سياسة وسلوكيات الملاي الأفغان الذين لم يكونوا حريصين على الوصول إلى السلطة بقدر ما يسعون إلى معارضة سلوكيات اجتماعية للحكومات التي ينقلبوا عليها ، وعادة ما يكتفون بتغيير الحكومات ، و يدفعون بحكام آخرين إلى العرش الكابولي كما حصل مع الأمير عبد الرحمن خان في العام 1888 ، و كذلك مع حبيب الله الذي انقلب على أمان الله خان في العام 1928 بدعم العلماء ، لكن يبدو أن العصر تغير كثيراً ، وهو ما عجزت القيادة الأميركية على فهمه وإدراك حجم التغيرات التي حدثت في أفغانستان ، والمياه الكثيرة التي جرت بسبب التحولات العالمية التي أحدثها انهيار الاتحاد السوفيتي ومشاركة المقاتلين العرب إلى جانب المجاهدين الأفغان في الحرب ، وانفتاح الأفغان على العالم الإسلامي بشكل لم يسبق له مثيل .

ما فتئ المحللون الأمريكيون يصرون حتى بعد سيطرة طالبان على السلطة بأنها " ضد العصرية ، و ليست ضد الغرب " . لكن الحقيقة أن الحركة أشبه ما تكون بالشبكة العنكبوتية التي تصل خيوطها كلها إلى " أمير المؤمنين " ، وهو لقب له دلالاته لدى طلبة المدارس الدينية ، و لا يدع

أي مجال لمخالفة رأيه و حكمه ، سيما و هو يوقع خطابه  
 بخادم الإسلام ، وقد أبدى خلال زيارتي تلك الكثير من  
 الشعب الأفغاني العادي ارتياحه لحكم حركة طالبان ،  
 خصوصاً في مجال توفير الأمن والاستقرار ، ولكن كانوا  
 يشكون من البطالة وقلة ذات اليد ، فرسول أمان التاجر  
 في داخل غزني الواقعة وسط الطريق الرابط قندهار مع  
 كابول ، يقول : " الوضع كان خطيراً قبل ظهورهم ، من  
 قطع الطرق ، و اغتصاب الأطفال ، و النساء ، و المجاهرة  
 بالمعاصي ، و حين دخلوا قندهار و غزني وغيرهما ، شعرنا  
 أننا ولدنا من جديد ، فالأمن غدا شائعاً ، و الوضع  
 الاقتصادي تحسن رغم تضرره بسبب العقوبات الأميركية  
 على أفغانستان ، نحن مع طالبان و سنبقى معهم ، فهم  
 الأمل الذي حفظ لنا جهاد عشرين عاماً كادت الأحزاب  
 الأفغانية أن تضيع ثمرته . "

و حين تسأل بائع متجول في قندهار معقل الحركة عن  
 رأيه فيما يجري يرد بسرعة : " كل شيء متوفر ، الأمن و  
 الاستقرار ، فماذا نريد غير هذا ، أما البضائع فهي أرخص  
 حتى من باكستان ، وإن كنا نريد عملاً ؛ فالبطالة مشكلة  
 المشاكل في بلادنا ، إضافة إلى عدم توفر الخدمات المدنية

و الاجتماعية التي تحول حتى لعودة المهاجرين الأفغان إلى أوطانهم . " و الغريب أن أسعار المواد في أفغانستان أرخص من باكستان ، ولكن المشكلة مشكلة السيولة النقدية في ظل فقدان فرص العمل ، وهذه حقيقة لمسناها بأنفسنا فمثلاً سعر لتر البنزين لا يتجاوز السبعة عشر روبية باكستانية ، أي ما يعادل الخمسة و عشرين سنتاً أمريكياً ، بينما في باكستان يصل إلى الواحدة و الثلاثين روبية . " ورغم كل هذا الرخص مقارنة مع باكستان ، تبقى مسألة السيولة النقدية غير متوفرة في أفغانستان ، و في طريق عودتنا من سبين بولداك بأفغانستان إلى كويته الباكستانية وجدنا السائق الباكستاني و هو يحشو بعض علب حبات الدواء في أحد جيوب السيارة ، و حين سألناه عن السبب قال : " إننا نأخذها من أفغانستان إلى باكستان ، فهنا أرخص ، وبالتالي لعنا نبيعها ونستفيد بعض الروبيات " .

لا يظهر للزائر أن العقوبات الدولية أضرت بالشعب الأفغاني الذي يعاني من أزمة سيولة نقدية ، وكل ما يأكله من صنع أفغاني ، وليس لديه مجال للكماليات ، ولعل الضرر الرئيسي الذي أحدثته هذه العقوبات يتمثل بحركة

المسافرين التي شملت 90 ألف أفغاني ، يعملون في دولة الإمارات العربية المتحدة ، فبعد أن كان بمقدورهم المجيء مباشرة من دبي إلى أفغانستان ، تحتم عليهم المرور من خلال باكستان ، غير أن السماح لإحدى الشركات الإماراتية بتسيير رحلة أسبوعية إلى قندهار بعد زيارتنا كون قرار الأمم المتحدة يحظر الطيران على الخطوط الأفغانية فقط ، ربما سهل حركة الشعب الأفغاني من و إلى أفغانستان إلى أن انهارت طالبان ، وعادت الخطوط الأفغانية تستأنف رحلاتها من جديد .

و قد تمكنت الحركة من تحصيل هذه الشعبية الكبيرة و المصدقية وسط الشارع الأفغاني ، من خلال عدم التمييز بين مسئول و خفير و مواطن ، فالكل سواسية ، فالرئيس و المرؤوس يأكلان من إناء واحد ، لا تمييز و لا تفضيل لرئيس على مرؤوسيه .

و العجيب أن الأمور تسير بكل سهولة و يسر ، فكل مواطن يستطيع أن يقابل أي مسئول دون عرائض ، أو وساطات ، و تطبيق الحدود الشرعية ردع قطاع الطرق ، و اللصوص من تعكير صفو الأمن ، وهو ما لم يكلف طالبان سوى إعدام لبعض القتلة ، فحين انتقلنا من قندهار إلى



سبين بولداك لم نصادف سوى نقطتين للتفتيش ، بينما حين نتقل من تشمن الباكستانية إلى كويته و هي نفس المسافة نعر على العشرات من نقاط التفتيش ، الأمر الذي أزعج سائقي الذي التفت إلي قائلاً : " نريد حكومة طالبان في باكستان ، فالكل هنا يرتشي و مفسد بخلاف طالبان " .

و يبدو أن واشنطن توقعت من وراء فرض العقوبات هذه ، أن تضعف الحركة ، و بالتالي تنهار داخلياً ، لكن هذه العقوبات أظهرت الحركة بمظهر التحدي أمام واشنطن ، و هو ما يتناغم مع الشخصية الأفغانية ، وتحديداً القندهارية و يلامس مشاعرها الحقيقة . و على هذا فإن واشنطن تبرمت كثيراً من صمود الحركة أمام هذه العقوبات ، بل و تبرمت أكثر حين تمكنت الحركة من اقتحام معقل المعارضة في بدخشان في صيف 2001 ، و حصرت المعارضة في جيب ضئيل ، رغم خسارتها حسب المصادر الغربية لحوالي 1500 مقاتل الذي عُد حينها أعنف قتال من نوعه منذ ظهور الحركة قبل ست سنوات ، بينما فقدت المعارضة المئات من مقاتليها .

و الظاهر أن مسألة القتل في صفوف طالبان لا يمكن المراهنة عليها في تفجير الحركة داخلياً ، وهي التي كانت قد فقدت أكثر من ستة آلاف قتيل في معارك الشمال الأفغاني في العام 1997 أمام قوات الميليشيات الأوزبكية وحزب الوحدة الشيوعي الموالي لطهران ، إلا أنها صمدت ، ما دام أفرادها يعتقدون أنهم يقومون بواجب إسلامي " ذروة سنام الإسلام و هو الجهاد " حسب قول أحد الطالبانيين .

و على صعيد الإنجازات فقد تمكنت الحركة من تصليح بعض الطرق، وحين وجودنا في تلك المنطقة كانت في صدد تصليح طريق قندهار - كابول الذي سيكلفها حوالي 15 مليون دولار ، بعد أن رفضت عرضاً صينياً يقضي بطرد بعض الناشطين من تركستان الشرقية الذين لجئوا إلى الحركة مقابل تعهد صيني بتصليح كل طرق أفغانستان ، و على المقاسات العالمية .

و عرضت الحركة على أثرياء مدينة خوست تصليح مطارها ، و بناءه ليكون مطاراً دولياً ، مقابل الاستفادة من مردوداته لسنوات مقبلة ، وظل الأمر بين أخذ ورد بين الحكومة

والقبائل المحلية ، حتى انهارت ووصلت الحكومة الانتقالية برئاسة حامد كارزي .

أما على صعيد الكهرباء فقد تمكنت الحركة من إعادتها إلى معظم المدن الأفغانية و بأسعار رخيصة جداً ، بعد أن كان قطع التيار الكهربائي السمة الأساسية أيام الحروب الداخلية بين أحزاب المجاهدين .

واللافت هناك حركة بيع السيارات القادمة من دبي ، والتي تتواصل و بأسعار لا تضاهي ، كون الحركة لا تجيز أخذ الضرائب و المكوث من الناحية الشرعية ، وهو الأمر الذي سهل على التجار الأفغان وشجعهم على التجارة في بلدهم ، و جعل الاقتصاد الأفغاني أكثر ميولاً إلى الخصخصة ، و يفسر ذلك أحدهم بالقول : " إن فلسفة الاقتصاد في الإسلام تقوم على ثراء الفرد و حرته في العمل و التصرف ، و الدولة ليست بحاجة إلى تكديس الثروة إلا ما تحتاجه من المصروفات ، فتكديس الثروة لديها ينشر الفساد المالي بين مسئوليتها ، و لذا فالمعمول به أنه حين تتعرض الدولة الإسلامية لخطر داهم خارجي أو داخلي يتبرع كل رعاياها لدرء هذا الخطر ، فمنهم من يتبرع بكل ماله ، و منهم من يتبرع بجزئه . "

و يبدو أن الحركة تعتمد بشكل كبير في دخلها على حق المرور للسيارات و الشاحنات ، التي تعبر منها إلى وسط آسيا ، و كذلك إلى باكستان ، سيما مع فتح معابر الحدود مؤخراً مع أوزبكستان ، وهناك معابر الحدود مع تركمانستان وإيران أيضاً .

أما على صعيد الهواتف ، فقد كانت الحركة حسب حديث الناطق الإعلامي باسمها آنذاك محمد طيب أغا قد " وقعت اتفاقاً مع شركة أميركية يقضي بتركيب ألفي خط في قندهار ، و ثمانين خطاً في كابول ، و تبلغ تكلفة تركيب الخط الواحد مائتي دولار ، لكن الآن وقعنا عقداً مع شركة صينية بالمساهمة مع الإمارة الإسلامية الأفغانية ، و الذي يمكن أن يبدأ تنفيذه خلال ثلاثة أشهر ، و يقضي بتركيب آلاف الخطوط في معظم المدن الأفغانية ، الأمر الذي سيخفض من قيمة تركيب الخطوط الجديدة للمواطنين " .

و بذلت الحركة جهوداً مضنية من أجل استعادة مفتاح أفغانستان الدولي الذي كان الرئيس الأفغاني المخلوع برهان الدين رباني قد باعه ، وحين نسأل محمد طيب عن سبب اختيار الصين لتركيب خطوط الهاتف قال : " لقد عرضنا على شركات ألمانية وغيرها العمل في هذا الحقل ،

و لكن الكل يتذرع بعدم الاستقرار، وبالتالي لم يقبل بالعمل في هذه الظروف إلا الطرف الصيني ."

و في كابول ولدى وصولنا إليها علمنا بأنه تم إعادة فتح مصنع ماركوبولو لصناعة الأحذية والذي ينتج يومياً 1200 زوج من الأحذية ، و بكافة المقاسات بعد أن توقف طوال حروب المجاهدين .

و لا يخفي المسئولون الطالبانيون من خيبتهم حيال علماء المسلمين ، و كبار قادة الحركات الإسلامية ، الذين لم يشاءوا التعرف على هذه الحركة ، و حين نسأل أحد المسئولين الطالبانيين الكبار، و بالطبع أصر على حجب هويته عن سّر ذلك يقول بعد أن أشاد بتصريحات للشيخ يوسف القرضاوي التي أثنى فيها على الحركة : " لا ندري .. فنحن في حيرة من أمرنا ، لم يأتنا أحد من أولئك الذين كانوا يأتون للجهاد حين كانت أميركا راضية عليه ، فهل تغير موقفهم بعد تغير الموقف الأميركي ؟!! " "

و يرى بعض المحللين أن عجز الحركات الإسلامية العربية على فهم طالبان عائد إلى تأثيرها برؤية بعض أحزاب المجاهدين ومن بينهم زعيم الاتحاد الإسلامي عبد رب

الرسول سياف ، إلى جانب ترسبات قديمة رسخت في ذاكرة الحركات الإسلامية العربية بأن المولويين التقليديين مرتبطين و عملاء ، إما للأنظمة في الداخل أو للخارج ، و ذلك بحكم ما يقولون إنه تجاربهم في مناطقهم " ولذا كنا نسمع أو نقرأ الكثير من قادة الحركات الإسلامية العربية عن عمالة طالبان لباكستان .

و يشدد كل من التقيناه من قادة الحركة و أتباعها ، أن مهمتهم تتركز الآن على إقرار الوضع الأفغاني ، و التعريف بحقيقة الحركة التي بدأت بإطلاق مجلتين باللغتين العربية و الإنجليزية باسم " الإمارة الإسلامية " ، و كذلك بث إذاعي من إذاعة الشريعة باللغة العربية لمدة نصف ساعة ، وهناك بعض المواقع على الإنترنت ، أملاً في أن يوضح ذلك كله أهداف ومبادئ الحركة كما قال لنا المسئول الإعلامي في مكتب قندهار مولوي أحمد جان . ولكن ذلك كله لم يفد الحركة حين لحظة الانقضاض الأميركي عليها ، فجيش أميركا الجيوش من أجل اقتلاع جذورها .

تقوم الحركة أيضاً ببناء "جامعة عمر" الضخمة في وسط قندهار ، تصل تكلفتها إلى العشرين مليون دولار بتبرع من أحد التجار الباكستانيين ، و ملحق بها مسجد و قاعة

للمحاضرات ، و دكاكين لتغطية نفقاتها في المستقبل ، و هي ستكون من أولى الجامعات في تلك المنطقة الأفغانية التي أهملت تاريخياً .

و حين أسأل أحد المثقفين الأفغان المتعاطفين مع طالبان والمقيمين في قندهار عن حقيقة معاملة الطلبة للمرأة ، و تعاطيهم مع المخدرات ، و هما ملفان أعاقا كثيراً فهم الحركة سيما على المستوى الدولي ، و جعل منهما عنواناً لفهم الحركة فيجب : " أكثر من 90% من النساء الأفغانيات يتحدّرن من الريف ، و القرى ، و هن يرين عزتهن و كرامتهن بالبرقع الأفغاني الذي يصوره البعض للأسف كالخيمة ، و هذه النظرة تتماهى مع نظرة الأفغاني إلى أن عزته هو أيضاً في حمل السلاح ، و لقد أثبتت تقارير منظمات الأمم المتحدة زيادة تعليم المرأة في عهد طالبان عن العهود السابقة ، و لكن ضيق ذات اليد ، و إصرار منظمات حقوقية دولية على أن تكون حقوق المرأة على المقاسات الغربية ، أمر غير مقبول لأي دولة فضلاً عن أفغانستان ، فهناك تباينات دينية وثقافية و تقليدية بين الدول . أما بشأن المخدرات فزعيم الحركة حرّم المخدرات رغم أن شريحة واسعة من الشعب الأفغاني

تعيش على زراعة المخدرات ، فكيف سيواصل الشعب الأفغاني تجاوبه مع هذا القرار في ظل تقليص الدعم الدولي عنه ."

و كان برنامج الغذاء العالم حذر في حال عدم تلقيه 54 مليون دولار عام 2001 فإن أكثر من مليون أفغاني معرضون للموت جوعاً . و يأتي ذلك مع زيادة الجفاف في البلاد ، و احتباس المطر في ذلك ، إضافة إلى تدفق المهاجرين الأفغان مجدداً إلى باكستان بنسبة 28 ألف مهاجر شهرياً ، بسبب الجفاف و القحط و البطالة التي تضرب البلاد .

## 2- أفغانستان وطالبان في عين العاصفة الإقليمية والدولية :

الموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي تحظى به أفغانستان دفعت ثمنه غالياً جداً ، سيما في ظل وجود حكومات ضعيفة ، و هزيلة في كابول ، لا تقوى على الصمود أمام ضغوط و مصالح القوى المتنافسة في المنطقة ، والتي أطلق عليها



الخبراء و الاستراتيجيون بأرض اللعبة العظمى قديماً ، و رغم انتقال السياسة من الجيوسياسية إلى الجغرافاقتصادية ، وأخيراً إلى الجغراإرهابية ، إلا أن أفغانستان ظلت محل اهتمام العالم برمته ، سيما دول المنطقة بسبب تحكمها بطريق الحرير العالمي الشهير ، ترافق ذلك مع تشكيل ست دول على حدودها بعد أن كانت تتعامل مع دولة واحدة قوية مثل الاتحاد السوفيتي .

و يعزو العديد من خبراء الجغرافيا السياسية عزوف أفغانستان تاريخياً عن استخراج مدفونات أرضها مثل الفحم الحجري ، و الذهب ، و الأحجار الكريمة إلى تفادي سيلان لعاب الدول المجاورة في أن تقفز إليها ، و تستولي عليها بالقوة للتنعم بهذه الخيرات ، و هي الفترة التي يحددها الشعب الأفغاني بحكم الملك الأفغاني المخلوع ظاهر شاه الواقعة بين 1933 - 1973 ، والتي أعقبتها مرحلة جديدة دخلتها تميزت بالموجة العنيفة ، وهي الموجة الخامسة ، إذا حق لنا أن نستعير تعريف ألفين توفلر ، وتتمثل بعنف مع الداخل ، و عنف مع الخارج ، ولعل ما ميز أفغانستان طوال حقبتها التاريخية كونها أسيرة الصراعات

و الحروب مع الآخرين أو مع الذات ، ولذا فإن التاريخ الأفغاني هو تاريخ عسكري بامتياز .

و حين الحديث عن العامل المنطقي ، و الدولي ، و تشعباته ، و أهميته على المسرح الأفغاني ، لا بد من تحديد تلك المحددات التي تلعب أهمية في صوغ سياسات إقليمية ، و دولية تجاه هذا البلد الممزق ، و لعل على رأس تلك الانشغالات التي تحكم سياسات الكثير من الدول قضية ما أطلق عليها بـ " الإرهاب الإسلامي " ، فالدول المجاورة على تباين مواقفها ، و اختلاف مصالحها ، تكاد تجمع على أنها تتعرض إلى تهديدات جدية بسبب وصول حركة طالبان إلى السلطة ، و احتوائها للمقاتلين العرب ، أو ما تصر الحركة على تسميتهم بـ " المجاهدين العرب " ، فالتهديد بنظر قوى على رأسها أمريكا ، و روسيا ، و بعض دول وسط آسيا ، مزدوج ، أوله تهديد من " المجاهدين العرب " على أساس أنهم يديرون شبكة قوية لخلخلة موازين المنطقة و العالم بحسب توصيف " الدول الشاعرة بالخطر " ، و تهديد من حركة طالبان ذاتها التي تطرح شرعية و مفاهيم دولية جديدة عابرة للقوميات ، و العرقيات ، وهي التي أصرت منذ البداية على تجاوز مفهوم الدولة القومية

الذي ظهر في أوائل القرن الماضي ، و غدا سمة النظام العالمي ، و تصنفه طالبان بأنه مفهوم غربي ، و لا يستند إلى أي مبرر شرعي ، فضلاً عن مصادماته لروح الدين الإسلامي كون الأخوة الإسلامية هي الجامعة ، و ليس الأرض أو العرق ، أو اللغة ، كما تحدث إلينا العديد من الطلبة خلال تلك الزيارة ، و لعل هذا ما يفسر حفر مصطلح " الإمارة الإسلامية " فهو تعبير له دلالاته الشرعية و التاريخية ، باعتباره يعني بتعريفهم أن أفغانستان و إمارتها جزء من الخلافة الإسلامية الموعودة التي تنتظرها ، وربما تسعى إليها طالبان وإمارتها.

جاء طرح منصب أمير المؤمنين ليعزز من هذه النظرة الجديدة إلى السياسة والعلاقات الدولية ، فهو منصب له أبعاده دلالاته الشرعية و التاريخية ، و لعل مساهمة الشعب الأفغاني في الحضارة الإسلامية دافع ومحفز لهم في لعب مثل هذا الدور مجدداً ، وذلك على غرار ما لعبه حكام السلاجقة و الغزنويين و الغوريين وغيرهم ، و ليسوا سلبين في قضية المساهمة مع هذه الحضارة كما هو الحال مع بعض الشعوب غير العربية التي تفاوتت مساهمتها في التاريخ الإسلامي .

ففي العشرين من مارس " آذار " من العام 1996 وفي طقس ربيعي وصل أكثر من 1200 عالم أفغاني إلى مدينة قندهار لمبايعة الملا عمر كأمر للمؤمنين ، ولعله كان أضخم تجمع من نوعه في التاريخ الأفغاني المعاصر .

و لا تخفي القوى الشاعرة بما تصفه بالخطر الطالباني ، أو خطر المقاتلين العرب أن المنطقة في حالة تملل خطيرة على مصالحتها ، و حين قابلت أحد الكتاب الأمريكيين مؤخراً قدم إلى المنطقة لإعداد كتاب عن " الإرهاب الإسلامي " وهي الموضة التي غدت رائجة في العالم الغربي هذه الأيام ، بادرنى بالسؤال ألا ترى أن المنطقة في وضع خطير من حيث تنامي ظاهرة الإسلاميين في الجيش الباكستاني ، إلى تمدد المجموعات الإسلامية المسلحة في كشمير ، و كذلك طالبان و احتوائها لابن لادن و زملائه ، الأمر الذي يشي بحجم الخطر الذي كانت تستشعره القوى الغربية من المنطقة ، خصوصاً و أن تقارير غربية عدة تحدثت عن انتقال ما يوصف بـ " الإرهاب " من منطقة الشرق الأوسط ، إلى جنوب آسيا ، وهو ما دفع أحد الكتاب الغربيين إلى وصف الحدود الأفغانية بأنها " حدود الفوضى " .

الظاهر أن طالبان كانت تعوّل على تصدير نموذجها فكرياً أكثر مما تلتفت إلى ذلك عملياً ، نظراً لأسباب متشابكة ، و معقدة ، أولها مسألة العوز المادي الذي تفتقده ، و مصالح العالم المعقد ، و قتالها المتواصل مع المعارضة ، فضلاً عن مسألة تاريخانية ، تمثلت بدور المدارس الدينية التي تنتمي إليها طالبان في التمدد الفكري والشرعي في الدول المجاورة .

و على رأس معالم الفكر ، و الأصح الممارسات و السلوكيات الطالبانية التي بدأت تنتشر في المنطقة ، و تحديداً باكستان كونها دولة نووية ، قضية الإعجاب بالنموذج الطالباني ، في قدرته على ضبط وضع البلاد الأمني ، رغم أنها كانت وما زالت في حالة حروب ، إضافة إلى إشاعة الأمن و الاستقرار ، و توفير الفرص للجميع بعيداً عن الوساطات و المحسوبيات ، و معلوم أن الدولة الأولى المرشحة لذلك باكستان كونها تتشاطر مع أفغانستان أموراً كثيرة مثل الدين ، واللغة ، و العرق ، و التقاليد ، و نحوها ، إضافة إلى أن المدارس الدينية الباكستانية كانت ، و ما تزال الحاضنة الأساسية والرئيسية للطلبة الأفغان .

وقد ألقى النموذج الطالباني ببصماته على باكستان ،  
وتجسد من خلال التذمر الشعبي إزاء مئات الآلاف من  
القضايا المعلقة منذ عشرات السنين في المحاكم ، بينما  
يلمس الباكستانيون المقيمون على الأراضي الأفغانية  
سرعة تسوية النزاعات والخلافات بسرعة في القضاء  
الطالباني ، وذلك في غضون ساعات أو أيام على الأكثر ، و  
الغريب أن هذا الواقع دفع بعض الباكستانيين القاطنين  
على الحدود إلى الاحتكام للطالبان ، و ليس إلى الحكومة  
الباكستانية ، وعمد تنظيم سباه الصحابة " جيش الصحابة "  
في بعض المناطق الباكستانية إلى تشكيل محاكم موازية  
للمحاكم الباكستانية ، محلها في المساجد ، و بدأ العامة  
يلتفتون إليها لنيل حقوقهم بالسرعة ، تحاشياً  
ليروقراطية المحاكم الحكومية ، طبعاً كل هذا قبل  
الإجراءات المتشددة التي اتخذها الرئيس الباكستاني برويز  
مشرف في أعقاب الضربات الأميركية على أفغانستان .

و عكس مخاوف انتقال النموذج الطالباني إلى باكستان  
مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية سابقاً كارل أندرفورث  
حين حذر من انزلاق باكستان نحو " الطلبنة حسب قوله ،  
فالظاهر أن معظم الحركات الإسلامية الباكستانية ، و حتى

غير الإسلامية ، تتوحد إلى الحركة الطالبانية، و هو تقليد متوارث لدى الأحزاب الباكستانية إزاء كل من يصل إلى السلطة في كابول ، كون الأفغان هم الذين نشروا الإسلام في هذه المنطقة ، و دافعوا عنه من خلال معاركهم الشهيرة مع الهندوس .

تدرك القوى الدولية والإقليمية بأن أفغانستان هي من أعرق الدول في المنطقة ، ولذا فإن مرضها سبب في مرض المنطقة برمتها ، كما قال الشاعر الإسلامي محمد إقبال ، والذي اعتبرها بمثابة قلب آسيا ، فإن مرض مرضت آسيا ، وإن شفي شفيت آسيا ، ووصفها أيضاً اللورد كيرزون البريطاني آخر نائب للملكة في أفغانستان أوائل القرن العشرين بأنها " كابينة قيادة آسيا " ، ولكن ثمة مفارقة كبيرة في الحرب الأميركية الآن على ما يوصف بالإرهاب في أفغانستان عن حرب الخليج الثانية ، ففي الأولى كان على أميركا أن تدفع من جيبتها ، أو من جيب دافع الضرائب الأميركي ، الذي لن يتحمل لفترة طويلة عملية الدفع ، بينما في حرب الخليج الثانية ، كانت أميركا تقبض من دول الخليج وغير الخليج وهو فارق كبير في الحضارة المادية التي تقوم عليها أميركا وحلفائها في هذه

الحرب والذين يحسبون كل شيء في ميزان المادة ، و كذلك في صناديق الاقتراع وقياسات الرأي .

### 3- طالبان ضحية صراع الشركات الكبرى على أنابيب الغاز :

مع ظهور حركة طالبان الأفغانية على المسرح السياسي ، التفتت الشركة الأرجنتينية بريداس إلى أفغانستان ، من أجل مدّ أنابيب الغاز إلى باكستان ، و منها إلى الهند ، و اليابان ، و هو ما سيوفر على أفغانستان بحدود مائة مليون دولار سنوياً ، كحق مرور أنابيب الغاز من مناطقها ، إضافة إلى تزويد المناطق التي تمر بها هذه الأنابيب بالغاز ، مع توفير عشرات الآلاف من فرص العمل للشعب الأفغاني العاطل عن العمل .

و يبدو أن الشركة الأرجنتينية حظيت بقبول لدى الحركة ، على أساس أن شركة يونوكول الأمريكية تشترط شروطاً قاسية للإقلاع بالمشروع النفطي و الغازي ، و على رأسه ، تحسين طالبان لسجلها في مجالي حقوق الإنسان ، و حقوق المرأة ، و هي مسائل حساسة لدى الحركة ، إضافة



إلى كسب الاعتراف الدولي و نحو ذلك من المسائل التي لا  
تعنى بها بريداس الأرجنتينية .

و بعد أن أمضت رئيسة الوزراء الباكستانية حينها بي نظير  
بوتو على الاتفاق، ثارت ثائرة واشنطن ، و دفع ذلك  
ديبلوماسي أمريكي في جلسة له مع بوتو إلى إساءة قواعد  
البروتوكول حين وجه لها كلمات قاسية ، لتفضيلها الشركة  
الأرجنتينية على الأميركية ، وهو الأمر الذي لم ترض بوتو  
بأقل من اعتذار من الديبلوماسي الأمريكي ، لكن بعد أيام  
من هذا اللقاء العاصف بينهما ، و إصرار بوتو على منح  
الحق للشركة الأرجنتينية ، تم الإطاحة بها .

وعزت بوتو حينها الأسباب في لقاء مطول أجرته معها  
في ذلك الوقت سبب الإطاحة إلى : " تفضيلها الشركة  
الأرجنتينية على الأميركية ، لقد أسقطتني شركة يونوكول  
الأمريكية " هكذا قالت بوتو . ويبدو أن بوتو لم تدرك أن  
معظم السياسيين الأميركيين كانوا أو سيصبحوا بعد  
تقاعدهم سياسياً مسؤولين في هذه الشركات كمستشارين  
للاستفادة من علاقاتهم العامة ، وكان من بينهم وزير  
الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر ، نائب الرئيس  
الأميركي الحالي ، وديك تشيني ومستشارة الأمن القومي

الأميركي الحالي كونداليزا رايس ، والمستشار الأميركي للشؤون الأفغانية زالماي خليل زاده الأفغاني الأصل ، وحتى مساعدي المبعوثين الأميين السابقين عملوا كمستشارين لشركات النفط والغاز هذه ، وهو ما يعزز ارتباط السياسة بالنفط والغاز .

و مع سقوط بوتو وافقت باكستان مع تركمانستان ، و أخيراً طالبان ، على منح الحق ليونوكول الأمريكية ، و هو ما أزعج بريداس التي كانت وقعت أصلاً العقد مع الرئيس التركماني صابر مراد نيازوف ، الذي سرعان ما تخلى عنه بعد أن رأى ما حل ببوتو ، بالإضافة إلى قدرة الأميركيين على خلق متاعب عدة لنظامه الشمولي ، فتوجهت بريداس إلى المحاكم رافعة دعوى قضائية ضد الرئيس التركماني ، ويونوكول ، و في أيلول من العام 1997 خطت بريداس خطوة ذكية حين باعت 60% من أسهمها إلى شركة أمكو الأمريكية ، و نقلت بذلك المعركة إلى معركة بين شركتين أمريكيتين في عصر لا يقوى البعض على الصمود أمام القوة الأميركية ، فكيف إذا كانت المسألة متشابكة ويتداخل فيها السياسة أو النفط .

و بقيت الضحية الأساسية لهذا الصراع تركمانستان ، التي ما تزال تعاني من عدم الاستفادة من نفعها و غازها ، إذ أنها المتضرر الأول من تأخير المشروع ، وهي التي أطلق عليها " كويت جديدة " ، بسبب مخزونها من النفط ، لكنها لا تقدر على تصديره ، والتنعم به رغم توالي السنين ، و يقدر الخبراء استخراج دول وسط آسيا من النفط يومياً بمليون برميل لا تصدر منه سوى 300 ألف برميل .

و الصراع المنطقي ليس بعيداً عن مصالح الشركات العالمية ، فروسيا لا ترغب بأن تذهب الأنابيب بعيدة عن أراضيها ، أملاً في كسب مردود حق المرور ، لكن ذلك يأتي على حساب تركمانستان ، لعوامل عدة على رأسها بعد المسافة إلى جانب حالة الاضطراب التي تسود روسيا ، وكذلك بعدها عن الأسواق العالمية .

أما إيران فهي أيضاً لا ترغب أن تذهب الأنابيب بعيدة عنها ، و لذلك سعت إلى مد خط أنابيب الحديد إلى سرخس التركمانية لربطها تجارياً معها ، على أمل أن يساعد ذلك على ربط الجمهوريات الأخرى بإيران .

ولإيران انشغالاتها الخاصة ، فالحركة تلوح بإشهار سلاح السنة و البلوش الإيرانيين المتواجدين على الأرض الأفغانية ، و هم قادرون على إضرام النار في الساحة الإيرانية الداخلية ، خاصة و أن البلوش و السنة بشكل عام يجاورون أفغانستان بينما تنحصر الشيعة في وسط إيران ، و هو ما قد يوفر أرضية خصبة للتحرك الطالباني ، هذا في حال تدهورت الأوضاع . و يسود اعتقاد أن التحول في السياسة الإيرانية إزاء أفغانستان جاء بعد حسابات إيرانية طويلة و معقدة إزاء هذه التضاريس المتشابكة، وإن كان الوجود الأميركي هذه الأيام قد يسبب تقلباً في السياسة الإيرانية ، و التي كانت مؤيدة للأقليات ، ومعارضة بشكل عام للأغلبية البشتونية التي ترى فيها تهديداً لعرقية الهزارة الشيعة الأفغان .

**4- الامتدادات العرقية و اللغوية الأفغانية إلى الدول المجاورة :**

لعل أكثر ما يهدد المنطقة هو انتقال شرارة الصراع العرقي الأفغاني إلى الدول المجاورة ، سيما و أن وجود امتدادات للعرقيات الأفغانية في الدول المجاورة ، سيثجع تلك العرقيات و الإثنيات على الانضمام لبعضها البعض ، و هو ما قد يحول المنطقة إلى حالة من الانفجار ، سيما وهي التي تختزن في أحشائها برميل بارود ، فالبلوش الأفغان لهم امتداداتهم في إيران و باكستان ، و كذلك الطاجيك و الأوزبك في طاجيكستان و أوزباكستان ، و هناك البشتون الأفغان في باكستان ، و التركمان في تركمانستان ، ولذا يرى بعض المحللين أن هذا الواقع السوداني القادر على بلقنة المنطقة ، دفع دول الجوار إلى التعامل مع ظاهرة حركة طالبان الأفغانية في البداية التي رأت فيها الكثير من دول المنطقة بأنها ظاهرة مستقرة و ليست عابرة ، سيما مع تمكن الحركة من السيطرة على بدخشان معقل الرئيس الأفغاني برهان الدين رباني ، و ثبوت أن المعارضة هزيلة ، فاقدة الشعبية ، لا تقوى على مقاومة فضلاً عن هزيمة الطالبان ، و لذا فإن التعامل معها أفضل من مقاومتها و عدائها .

لكن دخول أميركا على الخط بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ، وإن كانت النية مبيتة من قبل ذلك بقدر ما أراح بعض الدول ، بقدر ما أقلقهم على مصيرهم ومصير المنطقة التي يقلقها التواجد الأميركي في حدائقها الخلفية . وما تزال القوات الأميركية غير واثقة من تعاون الأغلبية البشتونية معها في حربها ضد ما يوصف بالإرهاب ، إذ أن تجربة طوره بورة أثبتت أن الذي تعاون معها هو القائد حضرت علي من أقلية البشائي ، وهي المقربة من الطاجيك ، وهو قائد موال لأحمد شاه مسعود ، بينما شعرت القوات الأميركية أن القائد البشتوني المعروف في جلال آباد زمان خان لم يتعاون معها بشكل كامل ، ولعل هذا الدرس هو الذي استفادته من طوره بوره ، حيث لم تثق بالقيادة البشتون المحليين ، فعمدت إلى جلب قوات طاجيكية من الشمال ، وتحت إشراف وزارة الدفاع الأفغانية ، الأمر الذي سبب حساسيات بين القادمين الطاجيك وبين البشتون المحليين ، إذ أنها كانت المرة الأولى في التاريخ الأفغاني المعاصر تدخل فيها قوات طاجيكية إلى مناطق البشتون خصوصاً مناطق بكتيا وبكتيكا .

#### 4 - المخدرات :

تعد المخدرات من المسائل التي تقلق الغرب بشكل خطير ، و لذا فهو كان كثير التأكيد على ضرورة أن توقف طالبان زراعة هذه الآفة ، خصوصاً وهي التي تفتك سنوياً بعشرات الآلاف من الشباب الغربي ، فالإحصائيات الغربية تقول بأن ثلاثة أرباع من المخدرات العالمية مصدرها أفغانستان ، و لكن كما قال لنا أحد كبار الأفغان الذي يزرع هذه النبتة : " إن كان الغرب قلق بالفعل على شبابه فليتوقف عن شرائها و استخدامها ، و ليحفظ حدوده ، ويشدد الرقابة عليها . "

و يأخذ الأفغان على المؤسسات الدولية للإغاثة ، و كذلك على الدول عدم مساعدتها في المجال الزراعي ، في الوقت الذي يحذر برنامج الغذاء العالمي من مخاطر تعرض مليون أفغاني للموت جوعاً إن لم يدعم بـ 54 مليون دولار خلال مثلاً في العام 2001 .

فحالة الجفاف الأفغاني التي شاهدها خلال زيارتنا تلك ، لاسيما في ولايات مثل بادغيث و غزني و هيلمند ، وصلت إلى درجة خطيرة في ظل موجة الجفاف و القحط التي تضرب المنطقة برمتها ، و طاولت حتى الحيوانات .

مع سقوط حركة طالبان ووصول حكومة حامد كارزي إلى السلطة عادت من جديد المخاوف الغربية من زراعة هذه الآفة إذ توقعت صحيفة الغارديان في عددها الصادر في 21-2-2002 بأن ترتفع نسبة محصول المخدرات إلى ما يوازي الثلاث سنوات الماضية ، وقدرت الجريدة الكمية بـ 4600 طن ومعلوم أن أفغانستان تقدم 75% من الاستهلاك العالمي للهروئين ، وحذرت الأجهزة الأمنية الغربية من مغبة وخطورة هذا الأمر في حال عدم معالجته قبل بدء المحصول ، إذ أنه سيشكل كارثة للغرب ، وبريطانيا تحديداً ، كون نسبة 90% من المخدرات الواصلة إلى بريطانيا إنما قادمة من السوق الأفغاني .

ويتحدث من دعا نفسه بهشام المكي في كتابه الذي نشره على حلقات على موقع المحروسة فيقول : " وأن هذه الحرب يجب أن تبدأ وتنتهي قبل موسم زراعة الأفيون، أي في حدود شهري أكتوبر ونوفمبر، وبحيث تتيح أمريكا الفرصة كاملة للمزارعين الأفغان لزراعة كافة الأراضي الممكنة بالأفيون. وهذا لا يتأتى إلا بإسقاط حركة طالبان الحاكمة أو إضعافها إلى الحد الذي تعجز فيه عن فرض



حظر شامل كالذي فرضته في موسم عام 2000/2001م. وهو الحظر الذي أفقد الاقتصاد الأمريكي مبلغ 400 مليار دولار كانت تصب فيه من عائدات الهيروين المنتج من الأفيون الأفغاني. وعبارة جورج بوش التي أطلقها مع إندلاع شرارة هذه الحرب والتي قال فيها (من أجل أن نحسن اقتصاد أمريكا علينا أن نحارب). هذه العبارة تعطي مصداقية أكبر للتقدير المذكور والذي أطلق على هذه الحرب حتى قبل أن تنشب لقب (حرب الأفيون الثالثة).

ولكن الخطاب الرئاسي لبوش بعد وصول حكومة كارزي المعينة في مؤتمر بون من قبل الأمم المتحدة ومن خلف ستار الولايات المتحدة الأميركية خفف اللهجة إزاء المخدرات على أساس أن من الصعب أن تعالج حكومة غير مؤيدة شعبياً لهذه القضية الحساسة ، و التي يعيش عليها الملايين من الأفغان ، وهو ما قد يعزز ما ذكره مكي من قبل ، وجاء هطول الثلوج في الشرق الأفغاني لأول مرة منذ ثلاثين عاماً لينعش موسم المخدرات هذا العام في أفغانستان ، خصوصاً وأن أمراء الحرب الأفغانية سيعمدون إلى تسهيل حركة المخدرات إلى دول وسط آسيا ، ومنها إلى الدول الغربية ما داموا سيحصلون على نسبتهم وحصتهم من وراء هذه التسهيلات .

ومازلت أتذكر ما قاله أحد الأفغان الكبار في السن بأنه إذا كان لدى الغربيين والأميركيين تحديداً " القبلة

الهيدروجينية فنحن لدينا القنبلة الهيرونية " نسبة إلى الهيروين الذي يستخرج من المخدرات ، وحسب تقرير الأمم المتحدة الذي صدر من فينا يوم 25-10-2002 فإن أفغانستان عادت بعد سقوط حركة طالبان الأفغانية كأكبر منتج للمخدرات في العالم وقال التقرير بأن مسحاً دولياً أظهر أن محصول المخدرات ارتفع في العام 2001 إلى 3300 طن بعد أن كان قد تراجع في أيام طالبان عام 2000 إلى 185 طن فقط بعد الفتوى الشهيرة التي حرم فيها زعيم الحركة الملا محمد عمر زراعة المخدرات والاتجار بها ، بينما كان منتج المخدرات قبل أن منعتها طالبان 4600 طن .

##### 5- طالبان لماذا الانهيار السريع؟!

تساءل الكثيرون عن سرعة ظهور حركة طالبان ، والتي ابتلعت حيتان أفغانية كثيرة ، كان وما زال لها سمعتها ، وصخبها ، في الساحة الأفغانية ، وما يزال هذا السؤال يحير الكثير من المحللين ، والمختصين بالشأن

الأفغاني ولكن التساؤل الذي سيظل محل اهتمام الكثيرين من الباحثين بالشأن الأفغاني هو : لماذا انهارت طالبان بهذه السرعة ، وهي التي كانت تهدد ، وتتوعد القوات الأميركية؟! !!

وتفاوتت النظرة التحليلية لهذا الموضوع الحساس الذي يحتاج إلى وقت حتى تخرج وثائق تشرح ماذا حصل ؟ ولماذا حصل ؟ وبالتالي يندفع صناع القرار في كابول وقندهار وغيرهما من المدن المجاورة ، إلى الحديث عن ذلك اللغز . وربما نسعى في عجالة إلى تحديد بعض الأسباب والعوامل التي أدت إلى سقوط الحركة بهذا الشكل المريع والسريع ، وإن كان من الصعب الجزم بهذه الأسباب لوحدها على أنها التي تقف خلف هذا الانهيار :

1. الثابت والذي أعتقد أنه وراء الانهيار السريع للحركة ، هو عدم تمتعها بتنظيم قوي ، وترابط فيما بينها وبين عناصرها ، فهي حركة وليدة ولم يسمح لها الوقت في ترسيخ تنظيمها ، وترابطها ، وهو ما تحتاجه التنظيمات

والأحزاب في العادة ، وكما يقول الأفغان بشكل عام : " جاءت طالبان سريعاً وخرجت من المسرح سريعاً . "

2. لم تفهم الحركة أبعاد التحرك الأميركي ضدها في أعقاب الحادي عشر من أيلول ، وفشلت في تعزيز الجبهة الداخلية للحوول دون تسلل القوات الأميركية من خلالها ، واستغلال قوى داخلية في إسقاط الحركة ، كما حصل حين تحالفت واشنطن مع التحالف الشمالي ، ورغم مناداة زعيم الحزب الإسلامي الأفغاني قلب الدين حكمتيار إلى تشكيل جبهة موحدة ، إلا أن الحركة ظلت تتعامل مع الوضع ، وكأنها تتعاطى مع التحالف الشمالي ، ولا تريد أحداً أن يشاركها في شرف النصر ، كما كانت تتوهم ، وإن كانت الدول تتجه في لحظة تعرضها لأي عدوان خارجي إلى توحيد جبهتها الداخلية ، فإن طالبان تصرفت ، وكأنها غير مبالية بكل ما يجري من حولها ، وتهدد وتتوعد دون الارتكان إلى أرضية صلبة ، وقوية و متماسكة . وغدا مصطلح كارزي عالمياً إذ كلما فكرت أميركا بضرب دولة وتأديبها يتم طرح نموذج التحالف الشمالي وشخصية مثل كارزي لتقوم بالدور المنوط بها أميركياً .

3. الاعتماد الكبير على السلطات الباكستانية ، و التي ظلت الحركة تعول عليها رغم التعاون الوثيق والقوي بين إسلام آباد وواشنطن ضد ما سمي بالحرب على الإرهاب ، ومازلت أذكر ما قاله لي أحد الطالبانيين بعد لقائه مع قادة عسكريين باكستانيين كبار في إسلام آباد خلال الضربات الجوية الأميركية ، بأن المسؤولين الباكستانيين طلبوا منهم الصمود لشهر واحد والبقية عليهم ، أي على الباكستانيين ، ولكن ظهر أن باكستان ربما ورطت طالبان التي كانت على ما ظهر تستشيرها في كل شيء ، حتى يقال أن الانسحابات السريعة من الشمال وكابول ، وحتى الجهات التي سلمت طالبان المدن إليها كان بالاتفاق مع الأجهزة الأمنية الباكستانية ، أو على الأقل مع شريحة منها ، إذ أن التقارير ما تزال تتحدث عن تعاطف أو تعاون بعض الشرائح من الأجهزة الأمنية مع طالبان .

وتتحدث المصادر العربية والأفغانية المطلعة التي كانت في جلال آباد والمقربة من صنع القرار الطالباني بأن عملية انهيار طالبان طبخت بين حاكم جلال آباد الطالباني السابق ملا عبد الكبير والقائد عبد الحق الذي قتل على أيدي طالبان قبل انهيارها ، واعترف بذلك عبد الحق قبل مقتله

أمام حاكم ولاية لوجر ، والذي حقق معه وكتب اعترافاته ، وسجلها كاملة ، وما تزال بعض المصادر الطالبانية تحتفظ بهذه التسجيلات لديها ، وحتى أنها تحتفظ بها مكتوبة كما علمت ، وقد روى الكثير من الباكستانيين المتعاطفين الذين توجهوا إلى أفغانستان لمساعدة طالبان كيف أن بعض القادة الميدانيين الطالبانيين متواطئون مع الشماليين ، وحين تحدث الطلبة الباكستانيين مع بعض القادة الطالبانيين عن هذه المسألة جوبهوا بالبرود وعدم التفاعل مع هكذا قضية حساسة و مهمة .

4. التعارض والتناقض ، وعدم التنسيق ، والمكاشفة ، والمصارحة ، بين تنظيم القاعدة ، وحركة طالبان ، إذ بدا أن كل واحد لديه استراتيجيته في قتال الأميركيين ، وإن كان باعتقادي لم يكن للطالبان استراتيجية في الحرب ضد الأميركيين ، وكانوا يعولون على خطط القاعدة والمقاتلين العرب ، ولكن الانسحاب الطالباني المفاجئ من كابول ، أذهل الكثيرين ، إذ أوقع شباباً عرباً في الأسر ، وهم ما يزالون نياماً دون أن يخبرهم أحد عن الانسحاب ، ولعل الضحية الحقيقية كانت الشباب الباكستاني المتطوع حديثاً ، والذي يصل عدده إلى عشرة آلاف مقاتل ، وهم شباب لا

يعرفون اللغة ، و لا التقاليد الأفغانية ، فضلاً عن الطرق والجغرافيا ، وهو ما جعلهم فريسة سهلة لقوات التحالف الشمالي وقد عرضتهم في المزاد العلني من أجل ابتزاز عائلاتهم وأهلهم ، وفرضوا عليهم دفع ثلاثة آلاف دولار أميركي للإفراج عن الشخص الواحد ، وتحدث الكثير منهم بعد الإفراج عنهم عن المعاملة القاسية و السيئة التي عوملوا بها خلال فترة الاحتجاز خصوصاً لدى قوات شورى نظار بزعامة القائد السابق أحمد شاه مسعود .

5. لعل من أسوء القرارات التي اتخذتها طالبان وتحديداً زعيم الحركة الملا محمد عمر في يوليو " حزيران " من العام 2000 ، هو منع زراعة المخدرات في أفغانستان ، دون توفير أي بديل رغم أن أفغانستان تصدر إلى العالم 75% من هذه الآفة ، ويعيش الشعب الأفغاني بنسبة عالية جداً على هذه الآفة ، وفي ظل عدم تقديم طالبان أو المجتمع الدولي ، البديل لهذا المحصول ، فقد نفر الكثير من الشعب الأفغاني من الحركة وقراراتها وإن كانوا بقوا صامتين ولكن غير مرتاحين لهذا القرار الذي لن يكون بالتأكيد قراراً شعبياً ، فالشارع الأفغاني لم يخف امتعاضه واستيائه من قرار الحركة التي سحبت منه قوت يومه الذي

يعيش عليه في ظل قحط وجفاف لم تعشه على البلاد من قبل .

6. فشلت الحركة في حشد الرأي العام العربي والإسلامي ، وتوظيفه بشكل أفضل ، وذلك في إرسال الوفود إلى الدول العربية والإسلامية ، ففي الوقت الذي كانت تقول جهاد وعلى الأمة الإسلامية المشاركة فيه ، لم تكن تضع العالم الإسلامي الذي كانت تطلب النصر منه في صورة الأوضاع الحقيقية ، بل رفضت حتى في جعل القتال ضد القوات الأميركية وهي التي رفضت التعاون مع زعيم الحزب الإسلامي الأفغاني ، وكذلك مع قادة أفغان آخرين وكان الحرب مع أميركا نزهة .

7. كالعادة لعب المال الدور الأساسي في تغيير ولاء القيادات الطالبانية ، وما زلت أتذكر قول أحدهم بأن هؤلاء القادة الميدانيين من الأفغان ليسوا تابعين للملا عمر، بقدر ما هم تابعين للسلطات الباكستانية ، وبشكل أدق لبريق الدولار والأموال ، فقد اشترتهم السلطات الباكستانية من الأحزاب الأفغانية الأخرى خلال الحروب الداخلية الأفغانية ، وذلك قبل سقوط كابول بأيدي طالبان ، ولذا تواترت الروايات عن شراء التحالف الشمالي لدمم



قائدين في جبهة شمال كابول ، وهو ما سهل لها اختراق الجبهة ، ودخول المدينة والناس في بيوتهم وفراشهم .

8. الظاهر أن الحركة استخفت كثيراً بقوة الولايات المتحدة الأميركية وإمكانياتها ، وبكل تأكيد لم تقرأ الكثير ، أو حتى النذر القليل عن تلك القوة ، وإليك القصة التي رواها لي مندوب الحزب الإسلامي في باكستان الدكتور غيرت بهير يقول الأخير : " حين توجهت إلى كابول خلال القصف الأميركي والتقيت وزير الدفاع الطالباني ، وجاء الحديث عن الرئيس الليبي معمر القذافي فالتفت الوزير إلى الذي كان بجانبه وسأله من هذا القذافي " ؟!

#### 6- هل تنبأ ابن لادن بسقوط طالبان ؟

طريقة انسحاب القاعدة ، والفشل الأميركي في القبض على أحد من رموزها ، أو قتله ، باستثناء ما حصل بطريق الصدفة المحضة لأبي حفص المصري في قندهار ، يشير إلى العجز الأميركي وفشله في تحقيق أي انتصار حقيقي حتى الآن ، فالقيادة الأميركية التي أعلنت أنها

قتلت أبا حفص المصري في كابول ، تبين لاحقاً أنه قتل في قندهار ، الأمر الذي يشي بضعف المعلومات الأميركية عن القاعدة وقادتها ، وإذا أضيف هذا الكلام مع تصريحات ابن لادن المتكررة ، أو من خلال حواريه بشأن إعجابه بالتجربة الصومالية في جر الأميركيين ، وإيقاع الخسائر بهم ، وهو الأمر الذي سيسهل على خروجهم من أفغانستان ، نستطيع أن نقرأ من خلال ذلك كله أن ابن لادن كان يدرك إمكان سقوط طالبان ، ولذا استعد لهذا اليوم ، ولعل ما ضاعف من إمكان استعداد أسامة بن لادن لهذا المصير هو الطريقة التي اختفى فيها ، دون أن يعلم به أحد ، وهو ما عنى أنه كان يستعد لهذه اللحظة ، خصوصاً وأنه اختفى معه المئات من الأتباع ، وهو ما يشكل هزيمة أمنية للقوات الأميركية والتحالف الدولي ، وانتكاسة للهدف المعلن من وراء الحملة الأميركية على أفغانستان ، والمتمثلة في القضاء على ما يوصف بالإرهاب ، وتفكيك شبكة القاعدة ، و القبض على أسامة بن لادن .

وحتى ما حصل من وقوع بعض الأفغان العرب في شرك القوات الأميركية ، وبالتالي تم نقلهم إلى غوانتانامو ، كان ذلك كله بمحض الخطأ الذي ارتكبه أحد القادة المحليين

العرب ، وهو ابن الشيخ الموريتاني ، وهو ما سيأتي مفصلاً مدعماً بروايات بعض الأفغان العرب وبعض الأفغان الطالبانيين الذين التقيتهم .

## 7- كيف وصل الأفغان العرب إلى غوانتانامو؟

ما يزال لغز وصول الأفغان العرب إلى غوانتانامو يحير الكثيرين ، فهل كان يصدق من خرج من الصعيد ، أو من الخليج ، أو من الشام ، بهدف الجهاد في أفغانستان ، أن يجد نفسه فجأة في غوانتانامو أسيراً بين يدي القوات الأميركية ، ربما تصلح قصص هؤلاء إلى فيلم ، ربما يضاهاه أفلام جيمس بوند ، ولكن الذي بدأ يتسرب من مصادر الأفغان العرب ، ومصادر طالبان ، أن قائداً عربياً محلياً، يدعى ابن الشيخ الموريتاني ، والذي أقام الفترة التي سبقت وصوله إلى أفغانستان في ليبيا خالف أوامر بعض مرؤوسيه ، حين سلك مع حوالي مائتين من المحاصرين في طوره بوره الطريق إلى باكستان ، بينما كان المفروض أن يلجأ إلى بعض القبائل الأفغانية التي تم

الترتيب معها مسبقاً ، وبعد أن وثق المقاتلين العرب الذين كانوا متعبين من معارك طوره بوره ، إذ يتردد أن خروجهم كان بمساعدة القائد زمان خان البشتوني ، وهو ما أغضب القائد حضرت علي من أقلية البشائي ، وهي أقرب ما تكون إلى العرقية الطاجيكية والمحسوب على جماعة شوري نظار الذي كان يقودهم أحمد شاه مسعود ، والمتحالف بقوة مع القوات الأميركية في المنطقة ، وبعد أن تمكن المقاتلون العرب من الخروج من أفغانستان باتجاه الأراضي الباكستانية ، طلبت القبائل التي كانت أقسمت على القرآن الكريم ، وهو قسم عظيم لدى تلك القبائل ، بالأّ تسلمهم ، وأنها ستحميهم من كل سوء ، وبعد أن استقروا في بيوتها ، طلبت منهم بطريقة خداعية، تسليم الأسلحة ، وسلموها بالفعل ، ثم استدعت قوات الأمن الباكستانية التي كانت حكومة باكستان نشرت أكثر من ستين ألف جندي من قواتها على طول الحدود مع أفغانستان ، فاعتقلت المقاتلين العرب ، وشككت مصادر أفغانية قبلية عدة تحدثت إليها عن الرواية الحكومية في حصول مصادمات بين قوات الأمن الباكستانية وقوات الأفغان العرب خلال عملية نقلهم من سجن كوهات إلى

بيشاور ، وشددت المصادر على أن ثمة عملية مدبرة كانت تهدف إلى التخلص منهم ، وهو ما أرادت القوات الأميركية على غرار قلعة جنكي ، لكن العملية لم تسفر سوى عن قتل حوالي عشرة من الأفغان العرب ، والذين دفنوا بشكل لائق من قبل أهالي المنطقة الذين يزورون قبورهم وحولوها إلى أضرحة يضعون عليها أكاليل الزهور .

لكن مصادر الأفغان العرب يؤكدون أن بعض المقاتلين الأسرى حاولوا المقاومة ، وهرب بعضهم وتمكن من الإفلات من قوات الأمن الباكستانية ، ولجأت القبائل الباكستانية لاحقاً إلى اتخاذ قرار جماعي بإضرام النار في بيوت قبيلة منجل ، والتي سلمت الشباب العربي إلى السلطات الباكستانية ، وكانت سبباً في وجودهم الآن في غوانتانامو .

وما تزال المحكمة الباكستانية العليا في إقليم بيشاور تواصل الاستماع إلى المحامي جاويد براتشا ، والذي رفع قضية ضد الحكومة الباكستانية لاحتفاظها بالعشرات من الأفغان العرب حتى الآن في سجونها دون وجه حق كما يقول ، بالإضافة إلى قتلها عشرة منهم في طريقهم إلى السجن ، وكنت تحدث إلى المحامي براتشا ، والذي أكد لي

بأن الحكومة الباكستانية ردت على اعتراضى بقتل الشباب العرب بالقول : إن قتلهم حصل فى حادث مرورى بينما ، الكل يعرف ، وتم نقل ذلك فى وسائل الإعلام الدولية ، بأن القتل حصل فيما وصف باكستانياً بأنه تبادل نار بين الطرفين ، وهو غير دقيق ، وإنما تم تصفية هؤلاء العرب دون إبداء أية مقاومة .

ومن الغرائب فى هذه القضية أن وزير الداخلية الباكستانية معين الدين حيدر بعد أن نقلت عنه صحيفة عكاظ السعودية عن احتجاج السلطات الباكستانية لأكثر من 240 سعودي ، عاد ونفى ذلك ، موضحاً أنهم أعادوهم إلى الأراضى الأفغانىة ولم يسمحوا لهم بدخول الأراضى الباكستانية ، وعلى هذا فحتى الآن تنفى باكستان أن يكون الذين فى غوانتانامو انطلقوا من أراضىها ، مع العلم أن أهالى كوهات من الشهود العيان فى تلك المنطقة أكدوا أن القوات الأمريكية هى التى نقلت الأفغان العرب وهم يلبسون الشورت فى شتاء تلك المنطقة القارس .

وكنت قد توجهت إلى منطقة كوهات على الحدود مع أفغانستان من طرف طوره بوره ، واتصلت مع عدد من المصادر الباكستانية النافذة لاستيضاح المسألة ، فتبين لي

أن الخديعة كانت من قبل إحدى القبائل التي عمدت القبائل بشكل عام في المنطقة إلى إضرام النار في بيوتها كثمن لفعلتهم تلك ، وإن كانت القبيلة أكدت أنها لم يكن في صورتها أن يصار إلى تسليمهم إلى الولايات المتحدة الأميركية ، وأن الأمر ليس سوى تسليمهم إلى السلطات الباكستانية ، ويبدو أن الأخيرة لم تكن تتوقع حتى نقلهم إلى أميركا التي أكدت الأخيرة للباكستانيين على أنه سيصار إلى نقلهم إلى قاعدة قندهار لمزيد من التحقيق .

والذي ظهر لي خلال تلك الرحلة أن القبيلة التي سلمت الأفغان العرب هي من الشيعة الذين يعارضون طالبان ، خصوصاً وهم الذين يرون أنهم مع الأفغان العرب كانوا سبباً في قتل واضطهاد الشيعة الأفغان ، وقد كانت هذه القبيلة تسبب مشاكل لمرور حتى قوافل المجاهدين الأفغان خلال حربهم ضد القوات السوفيتية .

ونقل لي شهود عيان عن حالة الأسرى العرب المائة والسبعة والخمسين الذين تم إبعادهم إلى أميركا ، أن كلهم كانوا يحملون القرآن ، وحين رأى أحد الأميركيين أسيراً عربياً يقرأ في القرآن خلال صعوده إلى الطائرة ، التقط

منه المصحف ، وطرحه أرضاً ، فما كان من الضابط  
الباكستاني إلا أن صفع الأميركي على وجهه قائلاً له : " إن  
كنت تريد شيئاً منهم فأخبرونا ، فهذا القرآن ولا يمكن  
التصرف معه بهذه الطريقة . " ، ونقل أحد الضباط  
الباكستانيين الذين كانوا موجودين في المطار عن الأفغان  
العرب قبل تسليمهم إلى أميركا قولهم : " اقتلونا في  
باكستان ، ولكن لا تسلمونا إلى أميركا . "

ولحظت خلال زيارتي إلى كوهات وبنو ، وتلك المناطق ،  
حجم التعاطف مع العرب بعد تلك الحادثة ، حيث روى لي  
أحدهم أن عمته بقيت يومين لم تذوق الطعام وهي تبكي  
على الأفغان العرب ، وكم أحسست بالذنب الذي يستشعره  
أهالي تلك المنطقة من جراء فعلتهم تلك ، وإن كنت  
لحظت أيضاً أنهم بدؤوا أكثر صمتاً إزاء أي عربي في  
المنطقة حتى لا يكونوا سبباً في سجنه وتسليمه إلى  
أميركا .

## 8- قوائم المقاتلون العرب المعتقلون :



كشفت قائمة بأسماء الأفغان العرب الذين اعتقلوا في باكستان ، أو تم ترحيلهم ، حصلت عليها في إسلام آباد ، بأن عدد الذين تم نقلهم من سجون كوهات وبيشاور الباكستانيتين إلى قاعدة غوانتانامو في كوبا ، وصل إلى 54 شخصاً ، إذ يتصدر اليمنيون القائمة ، وقد وصل عددهم إلى 17 شخصاً ، وخلفهم السعوديون الذين وصل عددهم إلى 15 شخصاً ، بينما كان أهل المغرب سبعة أشخاص فقط ، والكويتيون أربعة ، و الجزائريون اثنان ، وكذلك الفرنسيون والبحرينيون ، أما كل من إسبانيا والعراق والسودان والصومال وبنغلاديش فكان من نصيب كل دولة واحد فقط ، وعلمت أن عدد الأفغان العرب الذين كانوا يتواجدون في أفغانستان خلال حكومة طالبان الأفغانية و حتى سقوطها إثر الغارات الأميركية على أفغانستان بلغ 4742 شخصاً حسب بعض المصادر ، وإن كنت لا أجزم بصحة هذه الأرقام نظراً لصعوبة الحصول على مثل هذه الأرقام في الأوضاع الطبيعية ، فكيف في أوضاع مثل التي تعيشها أفغانستان ، وهذه الأرقام التي حصلت عليها تبين أنها تنتمي إلى 15 دولة ، موزعون على الشكل التالي :

كان من نصيب دول المغرب العربي 1100 شخص تقريباً ،

والسعوديون 680 شخصاً ، بينما بلغ عدد الجزائريين 560 شخصاً ، واليمنيون 480 ، والفلسطينيون 430 شخصاً ، أما المصريون فبلغوا 270 شخص ، والسودانيون 520 ، والعراقيون 80 ، والأتراك 35 ، والفلبينيون 180 ، والأميركيون 30 والبريطانيون 62 ، والفرنسيون 8 .

وكانت وزارة الإعلام الأفغانية الطالبانية قد تحدثت عن نفس الأرقام تقريباً ، وحسب المعلومات المتوفرة لدي من مصادر استقت معلوماتها من وزير الدفاع الطالباني مولوي عبيد الله المسجون حالياً في كوبا كما يتردد ، فإن المقاتلين العرب توزعوا على الشكل التالي خلال حكومة طالبان 260 عربياً في قندهار وعلى أربعة مراكز منها مركز نيمروز ، و الذي ضم 80 شخصاً ، و مركز هلمند ، واحتوى على 60 عضواً ، أما في أورزكان فكان هناك مركزان ، واحتويا على 145 شخصاً ، وفي كابول سبعة مراكز ، واحتوت على 1870 شخصاً ، و في مزار الشريف شمالي أفغانستان مركزين ، وضما 440 ، وقندوز على الحدود مع طاجيكستان ثلاثة مراكز احتوت على 400 مقاتل ، وكذلك في لغمان مركزين وضما 300 ، و في نجرهار إلى الشرق الأفغاني على الحدود مع باكستان 12 مركزاً ،

واحتوت على 1700 شخص ، و في كونر ثلاثة مراكز ضمت 160 ، أما في خوست فكان هناك أربعة مراكز واحتوت على 600 شخص ، واحتضنت ولاية بكتيا ثلاثة مراكز ، والتي استوعب 740 شخصاً .

وتقول المصادر الأفغانية التي كانت في جلال آباد خلال معارك طوره بوره بأن عدد الأفغان العرب الذين تم القبض عليهم خلال تلك المعارك وصل إلى الخمسين شخصاً بعضهم جرحى ، وتوزعوا الآن على السجون الأفغانية في كابول وكابيسا .

### 9- الأفغان العرب في المزارد الأفغاني :

تحدثت مع الكثير من المصادر العربية والمطلعة على ملف المختفين العرب ، ورشحت بعض المعلومات عن تعرض سيدة إلى حالة اغتصاب ، وهو ما أكدته سيدة يمنية كانت عادت من أفغانستان إلى باكستان ثم توجهت إلى اليمن لاحقاً في عز الأحداث ، وإن كنت لا أستطيع الجزم بهذه الرواية ، خصوصاً وأن مصادر المقاتلين العرب تنفي

ذلك نفيًا قاطعاً ، وتؤكد أنهم أخرجوا العائلات والأطفال قبل كل شيء ، وأن ما يشاع مثل هذه التقارير والأخبار إنما تهدف إلى زعزعة ثقة المسلمين في القاعدة ، والتي تخلت عن نسائها كما يحلو للبعض أن يصوروه ، وذكرت تقارير عدة عن تعرض العناصر العربية المعتقلة في أفغانستان للبيع ، مقابل بضعة آلاف من الدولارات يطالب بها السجانون الأفغان أو المسؤولون الأفغان ، وقد غدوا سلعة يتاجر بها ، ويأتي سعرهم أعلى من السعر الباكستاني ، حيث تحدثت الكثير من المصادر عن إقامة بعض القادة المحليين لسجون خاصة من أجل الاتجار بالأفغان العرب أو الباكستانيين الذين تم أسرهم .

وكانت مؤسسة القذافي الخيرية التي قامت بتسفير بعض العناصر العربية من باكستان إلى ليبيا تحدثت إلي عن دفعها لمبالغ تراوحت بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف دولار للقادة الميدانيين الأفغان وذلك من أجل الإفراج عن عربي مسجون لديهم ، أما الباكستانيون المعتقلون فتتراوح أعدادهم بالآلاف ، وما يزال وضعهم غامض رغم أن بعض الأهالي الباكستانيين تمكنوا من تخليص بعض أقاربهم ، أو أولادهم من الأسر مقابل ألف دولار أميركي .

## **10- الأفغان العرب بعد سقوط طالبان ، كيف يفكرون ، وما هي استراتيجيتهم؟!**

لا أحد يعرف على وجه الدقة حجم المقاتلين العرب المتبقين في أفغانستان ، والذين ما يزالون على علاقة مع أسامة بن لادن ، ولكن يبدو أن العدد ليس قليلاً ، إضافة إلى أنه ليس دقيقاً ، ما تشيعة الأوساط الأميركية عن تضخم العدد في المعارك مثل جبال عرما وذلك لتبرير تأخير حسم المعركة ، فقد وردت إشارة قوية من فاكس تلقيته باسم القائد سيف العدل ، وهو أحد قادة القاعدة المعروفين والمطلوبين أميركياً من زرمت ، وذلك خلال معارك عرما و زرمت في الشرق الأفغاني في مارس " آذار " من العام 2002 يقول فيه : " وكانت خسائر المجاهدين أربعة من قوات الحركة ، واثنان من تنظيم القاعدة ، ويؤكد المجاهدون أن الخسائر التي يذكرها الإعلام الأميركي وتابعه العربي عن خسائر الحركة والتنظيم تفوق الأعداد

الموجودة أصلاً في المنطقة ، ويتحدى مسؤول في التنظيم وزير الدفاع الأميركي قائلاً : أين جثث هؤلاء القتلى ."

فإن كانت المصادر الأميركية تتحدث عن وجود 500-600 مقاتل عربي فنستطيع أن نستشف من كلام سيف العدل أن قوات المقاتلين العرب أقل من هذا بناءً على هذا الفاكس .

ولكن في حال صحة رواية أن المقاتلين العرب في أفغانستان قبل الهجوم الأميركي حوالي خمسة آلاف مقاتل فإن الموجودين في أفغانستان حالياً سيكونون أكثر مما وضعهم سيف العدل ، خصوصاً إذا علمنا أن المعتقلين العرب لدى الأميركيين والأفغان والباكستانيين ربما لا يتعدون الخمسمائة شخص ، وهذا يعني أن البقية ما تزال على قيد الحياة ، وربما بعضها متخف أو هارب .

والذي بدا لي أن القاعدة بدأت تطالب بعض أتباعها وناشطاتها بمغادرة أفغانستان منذ سقوط كابول والشمال الأفغاني ، وتحسبت لهذه الخطوة ، فالتقاليد الأفغانية تقضي في حال سقوط مدينة ، فإن المدن الأخرى ستتهاوى، وهو ما حصل مع طالبان حين مجيئها إلى

السلطة ، وكذلك حين خروجها منها ، وهو الدرس الذي وعيه الأفغان العرب تماماً ، وحسب المعلومات التي رشحت إلي من مصادر أفغانية وعربية فإن أسامة بن لادن كان في كابول لدى سقوطها ، وغادرها بعد دخول قوات التحالف الشمالي ، ويبدو أن مصير الأفغان العرب سيرتبط لفترة ليست بسيطة بأفغانستان لسبب بسيط ، أن القوات الأميركية أو ما يسمونها بأدبياتهم وفي موقعهم النداء أو مركز البحوث والدراسات على الانترنت بـ " القوات الصليبية " هم الذين كانوا مسؤولين عن جلبها إلى أفغانستان ، وبالتالي فعليهم مسؤولية إخراجها من البلاد حتى يبرؤوا ساحتهم ، وإلا فلماذا حرصتم واستفزيتم أميركا لتأتي إلى أفغانستان ، وأجدي مرة أخرى أؤكد على نقطة مهمة ، وهي : هذا كله في حال صحة ما نسب عن تورط القاعدة في تفجيرات نيويورك وواشنطن .

ويتوقع أن تكون استراتيجيتهم المقبلة ، تتلخص في السعي جاهدين إلى بث الفوضى في البلاد ، فكارزي الذي جاء إلى السلطة بدعم أميركي لم يتمكن من تعيين سوى أربع حكام ولايات من أصل 30 ولاية أفغانية حتى كتابة هذا الكتاب ، وانهمك كارزي منذ تنصيبه وحتى هذه اللحظة

بزيارة الدول الكبرى والصغرى ، بينما لم يتوجه إلى الولايات الأفغانية الأخرى الملتهبة ، في الوقت الذي يعاني البشتون في الشمال الأفغاني من تطهير عرقي ، حيث أرغم الآلاف على ترك منازلهم ، لا لسبب سوى أن الأقليات تريد أن تنتقم من فترة حكم طالبان ، وهذا ما أكده وزراء أفغان في الحكومة زاروا المنطقة ، وكذلك تقارير مفوضة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة ماري روبنسون التي زارت مزار الشريف لهذا الغرض دون أن يقوم رئيس الوزراء الأفغاني نفسه بزيارتها ، وهو ما سيسبب خلخلة الوضع الأمني و العرقي ، الأمر الذي سيكون على المدى المتوسط والبعيد في صالح طالبان و القاعدة ، فرغم مرور الأشهر على وصول كارزي وسقوط طالبان ، إلا أن الوضع الأمني ما يزال متدهوراً ، وتابعه الوضع المعيشي ، إذ أن معظم الموظفين والمسؤولين لم يتلقوا رواتبهم منذ أشهر .

لقد رأى كارزي كيف تم رفض الحاكم الذي عينه في خوست باتشا خان زادران ، بالإضافة إلى مقتل وزير الطيران المدني الدكتور عبد الرحمن ، وعجز كارزي على تشكيل محكمة لمحاكمة المتسببين في مقتله ، رغم



تصريحات كارزي التي حملت عشرين شخصية كبيرة مسؤولية قتل الدكتور عبد الرحمن ، والتي وصفها كارزي بالمؤامرة المدبرة ، الأمر الذي نغاه وزير خارجيته الدكتور عبد الله عبد الله ، وجاء رفض القادة المحليون من البشتون في ولاية خوست وبكتيا ، السماح لقوات وزارة الدفاع الأفغانية من الأقليات الطاجيكية المشاركة في المعارك ضد طالبان والقاعدة في المنطقة ، ليشير إلى الحساسية بين الطرفين ، وضعف تماسك الحكومة وهزالة قوتها .

وإلى جانب السعي إلى إثارة الفوضى سيواصل المقاتلون العرب وبدعم من بقايا طالبان ، إلى شن هجمات على قوات السلام الدولية في كابول وقندهار ، وكذلك المسؤولية عن محاولة اغتيال وزير الدفاع الأفغاني الجنرال محمد قاسم فهم خان ، وذلك في استراتيجية على ما يبدو تهدف إلى استنزافها ، الأمر الذي سيرغمها في حال تكاثرت وتناقلت خسائرها إلى مغادرة أفغانستان ، سيما وأن الرأي العام الغربي لا يتحمل مزيداً من الخسائر .

وينقل المطلعون والمقربون من الأفغان العرب ، بأن سياستهم واستراتيجيتهم الآن وإن كانت الصمت حتى

تتضح الأمور أكثر في أفغانستان ، ولكن لم يعودوا ضيوفاً على أفغانستان بعد أن وطأتها " القوات الصليبية " كما يطلقون عليها ، وبالتالي غداً أمراً محتماً على كل الشعوب الإسلامية للنهوض من اجل إخراجها من أفغانستان ، وبالتالي لا يستبعد أن تلجأ بدعم قوى أفغانية لتشكيل جيش إسلامي أو مليشيات إسلامية لهذا الهدف ، خصوصاً وأن كثيراً من المتضررين الأفغان ظهروا وبانوا على السطح بعد تشكيل حكومة كارزي ، فأغلبية الشعب الأفغاني لم تكن راضية على هذه الطريقة في التشكيل ، وجماعات مسلحة قوية مثل دوستم و إسماعيل خان ، وفوق هذا العرقية البشتونية التي تمثل الأغلبية في أفغانستان ، وحتى الرئيس الأفغاني السابق برهان الدين رباني وحليف سياف ، كل هذا سيشكل تهديداً جدياً لحكومة كارزي ، والقوى الغربية ومشروعها في أفغانستان .

وكانت الزيارة التي قمت بها إلى منطقة ميران شاه على الحدود الباكستانية - الأفغانية خلال معارك عرما فرصة مهمة لي للوقوف على بعض الحقائق إزاء المعارك الدائرة في الشرق الأفغاني ، وكذلك تلمس ملامح الاستراتيجية الطالبانية ، ومعها القاعدة خلال الفترة المقبلة ، فقد

التقيت الكثير من قادة طالبان الأفغان وكذلك مع بعض علماء الباكستانيين الذين يعتقد أنهم مقربون من الحركة والقادرون على معرفة بعض من استراتيجيتها المقبلة ، وقد أجمع الجميع حينها على أن الربيع وذوبان الثلوج سيشهد توسيعاً لحرب العصابات في مناطق الغرب الأفغاني ، وخاصة غزني وقندهار ، تنامياً في الرد على الوجود الأميركي ، سيما وأن معاقل الملا عمر في تلك المنطقة .

لعل رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت ثاتشر التي وصفت في مقال لها نشر في الغارديان البريطانية أفغانستان بأنها بلد غدار ، يمكن قراءة الكثير من بين سطور هذا الكلام ، وهو ما يوحى بالمخاوف التي تعتمل في صدور البريطانيين وغيرهم من جراء انقلاب الأمور ، خصوصاً وأن البريطانيين هم أكثر من خبروا هذه البلاد ، نظراً للحروب الثلاثة التي خاضوها مع الأفغان .

أما على الصعيد الباكستاني فما يزال الكثير ينتظر ردود الفعل إزاء الخطوات القوية التي اتخذها الرئيس الباكستاني برويز مشرف ، والهادفة إلى تقليص نشاطات الجماعات الإسلامية المسلحة ، وحتى تطهير بعض

مؤسسات الدولة من أي نفوذ أو علاقة للإسلاميين ، ومثل هذه الخطوات التطهيرية التي لجأ إليها الرئيس مشرف ضد الإسلاميين في كل الدوائر والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية ، قد يكون لها مفعول عكسي ، وتدفع القوى المسلحة الإسلامية مع الأجهزة الأمنية المتعاطفة مع الإسلاميين من الطالبان والكشميريين إلى إبرام تحالف ثلاثي ، الأمر الذي سيهدد مركز الرئيس مشرف بالإضافة إلى المشروع الأميركي في المنطقة ، فباكستان هي الحجر الأساس في الحرب الأميركية ضد ما يوصف بالإرهاب .

وكانت وسائل الإعلام الأميركية تحدثت عن بدء تجمع تنظيم القاعدة وحركة طالبان في المناطق الباكستانية ، ولكن وزير الخارجية الأميركية كولن باول رأى في وقته أن الحكومة الباكستانية قادرة على معالجة الأمر لوحدها دون مشاركة منا ، كون ذلك سيخلق مشاكل أكثر للقوات الأميركية ، ومعلوم أن المناطق القبلية الباكستانية المجاورة لخوست وبكتيا وبكتيكا موالية لطالبان ومعادية للقوات الأميركية ، بالإضافة إلى التشاطر العرقي واللغوي وقبله الديني والمذهبي ، وهو الأمر الذي سيجعل مهمة

القوات الأميركية في الشرق الأفغاني صعبة إن لم أقل مستحيلة ، وينبغي أن نذكر هنا أن المناطق القبلية الباكستانية تحتوي على كل أصناف الأسلحة إما تصنيعاً محلياً ، أو استيراداً من المافيا الدولية ، وهو ما سيعني أن مشكلة توريد الأسلحة والذخائر إلى المقاتلين من طالبان والقاعدة سهلة جداً ، ويضاف إلى ذلك وجود الآلاف من المعتقلين الباكستانيين ومعظمهم في سجون التحالف الشمالي ، ومعظم هؤلاء متطوعون باكستانيون من هذه المناطق ، وبالتالي ثمة حافز آخر على القتال ، أو على الأقل التعاون مع القوات الطالبانية و القاعدة .

وكانت السلطات الباكستانية اكتشفت خلال معارك زرمت وعرما أكثر من شحنة أسلحة وذخائر ، ومن بينها صواريخ موجهة بالليزر متجهة إلى مواقع القاعدة وطالبان من أجل استخدامها في المعارك التي كانت تدور ضد القوات الأميركية وحليفاتها الأفغانية .

ويظهر أن المخاوف الأميركية من وجود خلايا للقاعدة في باكستان كان صحيحاً بعد الغارات والمداهمات على فيصل آباد واعتقال عدد من أفراد القاعدة بينهم أبو زبيدة التي تعتبره واشنطن المسؤول العسكري للقاعدة .

وبعد أن أجرى الرئيس الباكستاني برويز مشرف تعديلات في الجيش ، وأقال رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية الجنرال محمود أحمد الذي يتردد عن قريبه من طالبان وتنظيم القاعدة ، بدأ الرئيس مشرف باتخاذ خطوة أخرى تمثلت في حظر خمس جماعات كشميرية وباكستانية مسلحة ، ثم بدأ كما أوردت النيويورك تايمز في العشرين من شهر شباط من العام 2002 بحل وحدتين أمنييتين في الاستخبارات العسكرية الباكستانية ، وهما الوجدتان المعنيتان بالشؤون الكشميرية والأفغانية ، الأمر الذي سيحرم أكثر من أربعة آلاف موظف من العمل في الوجدتين ، بحجة أن لديهما علاقات وروابط مع طالبان والمجموعات المسلحة الكشميرية ، ومثل هذه الخطوات الجريئة والقوية ربما تفجر الأوضاع في وجهه كما توقع رئيس الجامعة البنورية المقربة من طالبان نظام الدين تشامزي ، والذي توقع ثورة إسلامية دموية ضد حكم مشرف في تصريحات له بثتها وكالة الأسوشيتد بريس الأميركية في الحادي والعشرين من شباط من العام 2002 .

لكن ما يمكن قوله بعد كل هذا أن منطقة جنوب آسيا ووسطها دخلت مرحلة جديدة ، والتحالف الباكستاني – الأميركي ضد ما يوصف بالإرهاب تحالف خارج السياق المكاني ، ولكن ربما ليس خارج السياق الزمني القصير المدى ، فبكل تأكيد دولة مثل الصين لن تكون راضية على مثل هذا التواجد الأميركي والغربي بشكل عام على حدودها ، وهناك الامتعض الإيراني ، وكذلك الامتعض الروسي ولكن على المدى البعيد وليس القريب ، وبالتالي فإن باكستان وضعت نفسها في مكانة صعبة للغاية ، ويبقى الانتظار سيد الموقف فيما ستسفر عنه هذه المواجهة الفريدة من نوعها في التاريخ البشري !

#### 11- كيف تتواصل طالبان والقاعدة مع العالم الخارجي :

تمكنت حركة طالبان الأفغانية وتنظيم القاعدة من إبداع أساليب جديدة في كسر الحصار الأمني والإعلامي المضروب عليهما عقب هزيمتهما في أفغانستان خصوصاً وأن الحركتين توعدتا بحرب عصابات طويلة الأمد في أفغانستان وهو ما يتطلب حرباً دعائية قوية من أجل كسب المواطنين العاديين ، والظاهر أن الاعتقالات والمطاردات والملاحقات داخل أفغانستان وباكستان لم تحد من نشاط هذه الجماعات في مواصلة نشاطاتها ولعل ما سهل تحركها هو انتظام العديد من الباكستانيين في صفوفها وهو ما يسهل تحركها في بلد مثل باكستان.

ومن خلال تتبع أساليب طالبان و القاعدة في هذه الحرب الإعلامية يظهر أنهما استخدما أساليب و طرق عدة في كسر الطوق الإعلامي المضروب عليهما خصوصاً و أن أكثر

أو كل قادة طالبان والقاعدة متخفين ليس بإمكانهم الظهور أمام وسائل الإعلام ، ويقف على رأس هذه الأساليب حرب مواقع الانترنت التي أشعلتها القاعدة وطالبان ، وحتى أن قائد القوات المركزية في أفغانستان الجنرال تومي فرانكس تحدث مؤخراً عن استخدام الانترنت من قبل مقاتلي طالبان و القاعدة في الشرق الأفغاني خلال عملية أناكوندا ، وتملك طالبان موقعاً على الشبكة العنكبوتية باسم إمارة أفغانستان الإسلامية وباللغة العربية وتنشر عليه رسائل ومنشورات زعيم الحركة الملا محمد عمر وكذلك أخباراً متفرقة عن عمليات تستهدف الأميركيين والقوات الأفغانية الموالية لها ، بالإضافة إلى مقالات لعلماء باكستانيين وأفغان موالون للحركة عن ضرورة جهاد القوات الأميركية ونحو ذلك ، ولهذا الموقع دعايات في كثيرة في المواقع العربية الأخرى ، ولعل الموقع الثاني الأهم هو مركز البحوث والدراسات وباللغة العربية أيضاً أو موقع " النداء " المقرب من القاعدة وإن كان ينطق باسمها على ما يبدو ويحرص الموقع على نشر بيانات القاعدة والتي كان آخرها بعنوان " رسالة من قاعدة الجهاد إلى أمتنا المسلمة وشعبنا البطل في فلسطين . " كما ينشر الموقع بيانات طالبان وكذلك مواضع عن " الحملة الصليبية في أفغانستان ، وكتب تؤيد طالبان وتعزز من رؤية القاعدة وطالبان إلى الأميركيين والغربيين بشكل عام ، بالإضافة إلى أخبار من مصادر الموقع الخاصة وكذلك مقتطفات من مواقع وصحف أخرى عن الضربات التي تتعرض إليها القوات الغربية في أفغانستان .

أما الطريقة الثانية التي تتبعها طالبان والقاعدة في التعريف الإعلامي بأنفسهما فهي المنشورات الليلية أو ما يطلق عليها الأفغان " شب نامه " وهي التسمية التي درجت بعد الغزو السوفياتي لأفغانستان حيث لجأ إليها الأفغان خشية من اكتشاف أمرهما من قبل الشرطة السرية الروسية أو الأفغانية ، ويتم توزيع هذه المنشورات الآن من قبل طالبان و القاعدة باللغات المحلية لتحريض الشعب الأفغاني في المخيمات على مقاتلة ما يصفهم البيان بـ " الصليبيين " بالإضافة إلى التطرق إلى الكرامات التي وقعت لـ " المجاهدين العرب في أفغانستان " ، وهناك منشورات ليلية أخرى وزعت داخل أفغانستان تدعو إلى مكافأة لكل من يأسر أميركي أو يقتله وهو ما أثار حالة من



عدم الثقة بين القوات الأميركية والقوات الأفغانية الحليفة لها إذ أن القوات الأميركية تخشى أن تغدر هذه القوات بها من أجل حفنة من الدولارات .

أما الطريقة الثالثة فتتمثل في الصحف الموالية لهما مثل صحيفة ضرب المؤمن والتي تصدر باللغة الأوردية والتي كانت معروفة بأنها مقربة من الحركة حين كانت في السلطة ، وكذلك هناك صحف ومجلات أخرى وتبقى الطريقة الرابعة وهي الاتصال ببعض الصحافيين بالهاتف وتسريب معلومات لهم أو تبني عمليات محددة كما حصل في محاولة اغتيال وزير الدفاع الأفغاني الجنرال محمد قاسم فهميم في جلال آباد حين اتصل مصدر من القاعدة وتبنى العملية ، وأحياناً يتم الاتصال والاتفاق على مكان ما لتسليم منشور ما مثلما حصل مع مراسل " الحياة " في البيان الذي تلقاه مؤخراً باسم "رسالة من قاعدة الجهاد إلى امتنا المسلمة وشعبنا البطل في فلسطين ."

وهناك طريقة خامسة وهي لقاء بعض الصحافيين في مناطق قبلية باكستانية أو داخل أفغانستان كما جرى مع مراسل التايم الأميركية حيث التقى بعض قادة طالبان السابقين وهددوا خلال اللقاء بتكثيف عمليات حرب العصابات وكذلك في لقائي خلال زيارتي إلى مناطق القبائل الباكستانية مع كثير من قادة حركة طالبان وكشفوا خلال اللقاء عن أسرهم لبعض الجنود الأميركيين وغيرها من الأخبار.

وتبقى الوسيلة السادسة الممثلة بإرسال رسائل عبر البريد الالكتروني كما حصل مع أحد الصحف العربية حين أرسلت رسالة من أسامة بن لادن حول القضية الفلسطينية . انتهى